إسرائيل اليهود الوجه الخفي
الماضي والحاضر

الجزء الأوّل

تأليف

فريد إبراهيم محمد

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

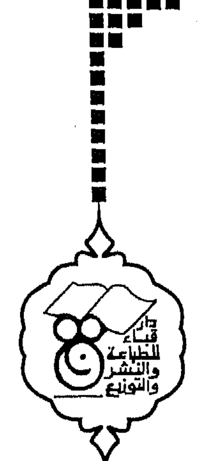
الكتـــاب : إسرائيل اليهود الوجه الخفي
الماضي والحاضر

المـــؤلف : فريد إبراهيم محمد

رقم الإيداع : ٩٠٨٧/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولي : ISBN
977 - 303 - 472 - 0

تاريخ النشر : ٢٠٠٤



الناشـــر : دار قـباء
للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :
٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ — فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــة :
١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيمُ

المقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله وحده، نحمده ونشكُره، ونبوء له بآلائه ولا نكفره، ونستهديه ونستغفره؛ ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا؛ من يهديه الله فلا مُضل له، ومن يُضلل الله فلا هاديَ له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نرجوا منه أن تنفعنا يوم أن تزل الأقدام؛ فهو وحده الـمُتصرف، وهو وحده مالك الـمُلك، وهو الذي له فى الأولى والآخرة الحمد، وهو الذي يُحي ويُميت، وهو على كُل شيء قدير.

ونشهد أن سيدنا وإمامنا وقدوتنا ومُعلِمُنا محمدًا بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وتابعيهم، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

فهو خير الأولين والآخرين، وخيرُ أصحاب اليمين، وخيرُ السابقين، وخيرُ عبدٍ مُجتبى، وخيرُ رسولٍ من الرُسلِ اصطفى، وخير نبيٍ من الأنبياء دعى وهدى.

وهو خير ولد آدم ولا فخر، صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين، صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين إلى أن يشاء اللهُ ربُّ العالمين.

ثم أما بعد :

فإن خير الحديث كتاب الله تعالى؛ وخير الهدي هدى سيدنا محمد ﷺ، وكل بدعة ضلالة، وكُل ضلالة فى النار، نعوذ بوجه الله الكريم من ذلك.

فإن عنوان كتابنا هذا يوحي ولأولِ وهلةٍ أن الـمُراد منه الكلام على إحدى أهل الكتابين؛ ألا وهُم اليهود.

وأود أن أنوه إلى أني قد كُنت أطلقتُ عليه سلفًا اسم (إسرائيل اليهود الوجه القبيح الماضي والحاضر)، إلاّ أني قد التزمت الأدب الشرعي في وصفي أو توصيفي لهذا الكتاب، واستبدلت مكان لفظ (القبيح). (الخفي). وبهذا اللفظ سيفي إن شاء الله بالغرض.

فإن هؤلاء اليهود، تلك النوعية من البشرية، لم تر الأرض ولن ترى مِثلهم، فهُم يحملون من الصفات الذميمة ما لا يُحصيه اللسان، تلك الصفات والتي تأبى النفس المستقيمة أن تتخلق بها، أو تقبل منها ولو ذرة.

وتكسوا أيضًا أرواحهم أبدانٍ نجسة لما تحمل من سمات الشرك بالله تعالى، وكذلك لما تحمله من عداءً للبشرية جمعاء.

فلا هُم كبقية البشر، يألمون في سبيل إحقاق الحق كما يألمون، أو يفرحون كما يفرحون؛ بل على العكس من هذا، فإن فرحهم لا يتأتى إلاّ في ألم البشرية وآلامهم، وألمهم لا يكون إلاّ في فرح البشرية وسعادتهم..

نعوذ بالله من هذه الأبدان القذرة النجسة.

وكلامنا هذا ليس إلاّ انتصارًا لله تعالى، ولدينه، وللحق، وانتصارًا لرسوله سيدنا محمد ﷺ.

فإني أعادي من يعادي ديني، وأسالم من يسالم ديني، ولا أحابي في ذلك ولا أداهن، ولا اعتبار في ذلك للمعايير السياسية الصرف.

ومن الواجب على كل مسلم أن يتصف بهذا، ولا عيب في ذلك ولا جرم، فإن الله تعالى ينصر من ينصره ورسله بالغيب.

ولعَلّ خير شاهد على ما نقوله ما نجده في وقتنا الراهن، ومن جرّاء انفجار

يوم الحادي عشر من شهر سبتمبر لعام ٢٠٠١م، والذي حدث في مدينتي نيويورك وواشنطن.

فخرج من خرج من رؤساء الغرب متهمًا الإسلام والمسلمين والعرب وأهل الدين، ونحن منهم بُرآء، كما أن الله تعالى منهم بريء، وكذلك رسُوله ﷺ.

ولم يقدروا على كتمان العداء والكُره الدفين في قلوبهم وصدورهم تجاه الإسلام والمسلمين.

فخرجت بعض فئات شعوب كُلٍ من أمريكا، بريطانيا، إيطاليا، دول المجموعة الأوروبية، وكذلك غيرهم، خرجت منهم جماعات على الأقليات المسلمة، سواءً من المتواجدين على أراضيهم، أو الذين من أصل أمريكي أو أُوربي، أو من أصل عربي.

خرجوا عليهم شاهرين عليهم السلاح؛ قتلوا منهم أبرياء، هدموا المنازل، حرقوا السيارات، وأحرقوا بعض المساجد حرّقهم الله في جهنم آمين.

وكذلك دولة الصين، سقوا عشرات المسلمين الخمر، وما إن غابوا عن وعيهم حملوهم على عربات مكشوفة بعد أن أطلقوا عليهم الرصاص من مؤخرة رؤوسهم وأعدموهم، وطافوا بهم فى الشوارع، مُعلنين تضامنهم مع الدولة اليهودية الصهيونية العنصرية.

ألا لعنهم الله ألا أهلكهم الله؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

فما من ريب أن الإسلام والمسلمين والعرب، يُهاجمون بشتى الطرق، وبشتى الوسائل.

فنحن نُهاجمُ إعلاميًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وأخلاقيًا، وعقائديًا.

لم يتركوا - أي اليهود وغيرهم - بابًا فيه آلامًا، أو إيذاءً، أو فتنةً إلّا وطرقوه.

ولم يَهِنُوا في ذلك، بل دأبوا على تنشيط ما يقومون به بكل جِد واجتهاد.

وما علينا نحن السُذج إلّا خلط الأوراق والمفاهيم تبعًا لتفسيراتهم للأمور، وانقدنا وراء كل ما يفعلون أو يقولون بكل إخلاص؛ وإن لم يكن ذلك فقد انقدنا إلى ما رسموه لنا.

ومنا من يعلمُ ذلك، ومنا من لا يعلم، وكلاهما مُصيبة عُظمى.

أما هم يكيدون لنا، ونحن في سُباتٍ عميق، لا نودُ أن نفيق منه حِرصًا على الحياة الدنيا وبهجتها، وثرواتها وقصورها؛ بل لم تقتصر الأمور عند هذا الحدّ، فإننا نتناحر من أجل حدُود الأرض، وكلها أراضي عربية إسلامية واحدة.

نتشاحن من أجل خلافات جوهرية أو سطحية، وقد يكون لها الحلول وليست حلاً واحدًا إذا تسامحنا فيما بيننا، وإذا كانت مصلحة الدين والأمة هي الهدف الذي نصبو إليه، ونسعى لتحقيقه.

فالعالم من حولنا يتكاتف، ونحن نفترق، العالم يتآخى، ونحن نتعادى، العالم يبذل كُل ما في وسعه لتحقيق الأمن والرخاء والرقي، ونحن لا همْ لنا إلّا الحياة بكل ما تعنيه الكلمة من معاني؛ كل هذا يحدُثُ في حين ديننا يأمرُنا بعكس ذلك تمامًا، ولكنها الطامة الكبرى، ولا يعلم منتهاها إلّا الله تعالى.

وعلى الجانب الآخر تجد اليهود ومن يعاونهم يرتكبون الجرائم، ويبكون بُكاء التماسيح، ويفعلون الشر والأذى، ويولون دُبرهم كمثل الخنزير.

اضف إلى ذلك سعيهم الدؤب فى الإيقاع بين الشعوب وخاصة المسلمين

والعرب أسيادهم، ولا يألون جُهدًا في تحقيق ذلك، ويتبعون سياسة فرق تسُد.

وكذلك سياسة فرض الأمر الواقع، وكذلك سياسة الخبث الشيطاني وهي: من عاونني فهو معي، ومن لم يعاوني فهو ضدي، وإن لم يكن فهو عليّ.

الـمُهم أني أريد أن أُظهر تاريخ هؤلاء الكفرة، وأُبرز ما خفي أو تناسيناه.

والآن فقد كشف عدو الإسلام والـمُسلمين قناعه الأسود القذر، الشيطاني النجس.

بدت ملامِحُه الأصيلة والمتأصلة فيه مُنذ غابر الزمان، فمهما تحمْلّ واتصف بصفات البشرية، من تسامح، ومن أخلاق، أو حتى مبادئ، إلاّ أنّهُ سُرعان ما يُردّ إلى صفته القبيحة، وعلم الوراثة يُثبِتُ لنا أنّ الصفات القذرة التي وَرِثُوها عن أسلافهم لعنهم الله، لم تزل، بل ستظل ملتصقةً بهم، لم ينفكوا عنها.

فإذا ما تكلمنا عن اليهود، نجد ذلك في الدول الآتية: أمريكا، دُويلة إسرائيل الصهيونية - الدُويلة المزعومة المرتزقة - والتي زُرِعت في أرض عربية إسلامية، وكذلك كل من عاونهما مثل: بريطانيا ذيل الجرو، وكذلك كُلِ من حالفهم، أو عاونهم، ولو بأقل يدٍّ المعونة، حتى وإن كان من الـمُسلمين أنفُسَهُم.

والشيء الـمُؤسَفَ له، هو أن قادة الدول العربية، لم يتحدوا، أو يتقدموا بخُطوة تُناصر الإسلام والـمُسلمين.

في حين على الجانب الآخر في فلسطين الـمُحتلة، نجد الإناث يُجدنْ بأنفُسِهنّ ويؤثرن الآخرة على الحياة، الحياة التي يتلذذ بها قادة الدول العربية ... الإسلامية.

ولم نجد فيهم إلاّ الزعيم الفلسطيني رمز الدولة، صامدًا، وقُوتُهُ فُتات العيش، ونور حجرته ضوء شمعة أوشك على الانطماس، فالحول والقوة بالله وحده.

إنني بذلك لا أخوض في السياسة، فإني أُنبِـذُها كسياسة وساسة بمفهومها الصِرف – لأن الأصل: الدين تتفرع منه أمور الحُكم، والسياسة لا تنفك عنه؛ إلاّ أنّ القادة أو أكثرهم – فالله أعلم – أرادوها أمور حُكم متحررة بلا قيود، وإنْ كان فيها دين فقد أُدخِل فيه حسبما أملاهُ هواهم.

الكلامُ كثير، والوقت عصيب، ومُنذُ عقود ازدهار الإسلام، لم نملُك إلاّ الكلام.

فإن مادة هذا الكتاب قد خرجت من أصلي التشريع: القُرآن والسُنة، أي: أنّ المادة نص ديني، وإن كان هُناك أي انحدار عن هذا فإن النص قد اقتضاه.

وأُنوه على أني كُنتُ قد نَويتُ على أن يكون هذا الكتاب مِن جُزءٍ واحد، إلاّ أن الوضع الجاري فرض عليَّ أنّ أجعله مِن جُزءين، حتى يتسنى لي أن أكون كلمة تُجاهد في سبيل الله، من عاون اليهود عليهم لعنة الله، أو من خذل الإسلام والـمُسلمين خذله الله تعالى، وليس في كلامي هذا خروجٍ عن طاعة أولي الأمر، أو دعوة للخروج عليهم، بل هي حسرةٌ وتحسُرٌ على حال الإسلام والـمُسلمين.

فإني أردت بكتابي هذا أنّ أُبينَّ للبشرية كُلِها من هُم اليهود؟!

وأكشِفَ عن وجههم الخفي، والذي هو وصمةِ عار في جبين الزمان على مرّ العصور والأيام.

فمادة هذا الكتاب تضع بعض المقارنة بين الماضي والحاضر، أو تُظهِرُ حالهم، وذلك في أربع مواضع.

الأوّلى منها:

حالهم مع الله عزّ وجلّ، وهو خالقهم ورازقهم. يا سبحان الله!

الثانية:

حالهم مع ملائكة الله عزّ وجلّ.

الثالثة:

حالهم مع كتابهم، وموقفهم من القُرآن الكريم.

الرابعة:

حالهم مع رُسل الله تعالى وأنبياءه، ونخص منهم نبيه موسى عليه السلام، وأخيه هارون عليه السلام، وقتْلِهُم نبي الله يحيى، وشأنهم مع نبي الله عيسى، وتكون خاتمة ذلك، حالهم مع سيدنا محمد ﷺ وهو إمام الـمُرسلين، وخاتم النبيين، صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

ونعقِبُ ذلك بخاتمة إن شاء الله ربُّ العالمين.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يُحبُ ويرضى، وأن يُتم هذا العمل على الوجه الذي يُرضيه، ويُرضي رسُولهُ ﷺ.

فهو الـمُستعان وعليه التُكلان، وإليه المرجع والمآب، فهو حسبُنا ونعم الوكيل.

وآخِرُ دعوانا أنّ الحمد لله ربّ العالمين

فريد إبراهيم محمد

القاهرة في:

الإثنين الموافق:

١٨ من الـمُحرم لِعام ١٤٢٣ هـ

١ من أبريل لِعام ٢٠٠٢م

من هُم اليهود . بني إسرائيل
قوم موسى عليه السلام

لقد ورد ذكر اليهود فى القُرآن الكريم مراتٍ عِدة، وتتلخص في ثلاث صفات ليس غيرْ وهم:

الأَوَّلى: بنو إسرائيل.

يقول الله تعالى:

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

[البقرة : ٤٠]

وإسرائيل هذا الذي انتسبوا إليه في قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو: يعقوب عليه السلام.

وإسرائيل: اسم سُرياني، أو: عبري، يتكون من مقطعين؛ الأوّل: إسر – ومعناه: عبدْ؛ والثاني: إيل – ومعناها: الله.

فيصير معنى لفظ: إسرائيل، عبدالله، وهو يعقوب نبي الله عليه السلام.

وهو كقولك: جبريل، أو جبرائيل، وكقولك: إسرافيل، وهكذا. مما سيجيء ذكره في موضعه من مادة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وإسرائيل تلك الدُويلة، لا تربطها أي صِلة بهذا الإسم لا من بعيد ولا من

قريب، إن هم إلّا عصابات، قُطاع طُرق، اغتصبوا الحقوق والأرض، وشردوا أهلها وقتلوا بعضهم، وانتهكوا حُرمات نسائها، ويتموا الأطفال، و لم يرحموا الشيوخ؛ لعنهم الله، سُلالة عَبدة العجل، ومَسخ القِردة والخنازير.

الثاني : اليهود.

يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

[البقرة: ١١٣]

قال أبو عُبيدة: التَّهوُّد: التوبة والعملُ الصالح، وتهوَّد: أي صار يهوديًا، والهُودُ: بوزن العُود. اليهود. (١)

ويُقال هُم يَهُودُ. غير منصرف للعلمية ووزن الفعل، ويجوز دخول الألف واللام فيُقال: اليهود، وعلى هذا فلا يمتنع التنوين، لأنه نقل عن وزن الفعل إلى باب الأسماء، والنسبة إلى يهوديٌّ، وقيل: اليهودي: نسبة إلى يهودا بن يعقوب عليه السلام، هكذا أورده الصغاني: يهودا. في باب المُهملة؛ وَهوَّد الرجل ابنه: جعله يهوديًا، وتهوَّد: دخل في دين اليهود. (٢)

ويهودية:

(١) مختار الصحاح [ص٣٧٤- مادة: ه و د].
(٢) المصباح المنير [ص٣٨١ - مادة: ه و د].

نسبة إلى يهودا من الأسباط الاثني عشر، وأُطلق اسْمُهُ على إحدى المملكتين اللّتين إنقسم إليهما مُلك سُليمان، ومن ثمَّ فاليهودية جنسية سُكان مملكة يهودا، ثم صارت علمًا على كُل اليهود.

واليهود كديانة، في غير القُرآن، نظام سلوكي أكثر منها عقيدة، فهي ثقافة اليهود، أي: فلسفتهم، وعاداتهم، وأعرافهم، كما وردت في التوراة كتابهم الأوّل.

وفي التلمود الذي يشرحه ويُكمْله، وتتسم بإيمانها بالمُطلق الذاتي، أي الله المقصور على اليهود؛ فقد اختارهم الله لعبادته، فاختصُّوه بالوحدانية.

ونتيجةً لأنهم شعب الله واختصهم بأرض الميعاد، فإن مفاهيم الله، والشعب والأرض - يُريد مفاهيم العقيدة والتي تحويها تلك المُسميات - تختلطُ عندهم وتكونُ أساس الوعي الصهيوني، وهو وعي ضد الواقع من أجل نهاية سعيدة موعودة: هي خلاصُ إسرائيل، واللهُ يتدخلُ دائمًا لخلاص اليهود؛ فقد خلّصهم في مصر، وسوف يُخلصهم في آخر الزمان من النفي في كُل مِصر - ولعلّهُ يُريد بقوله: مِصر، الثانية. مِصر من الأمصار - وبين البداية والنهاية (يدٌ قوية، وذراع ممدودة) تدفع بالتاريخ من خارجه، وتُحرك البشر كالدُمى.

وفلسفة التاريخ في اليهودية مُعادية للتاريخ أو: لا تاريخ.

ولذا فقد ذُوىَّ إحساس اليهود بالزمن، وخلا تراثهم من المؤرخين، وحفلَّ بالتراعات الطوباوية [1]، وانعزلوا حضاريًا ونفسيًا، وليس لديهم لذلك سوى

---

(١) قوله: الطوباوية: هو تعبير فلسفي للمؤلف ويعني: ما ليس بمكان؛ أي المكان المُتخيل الذي لا وجود له في الواقع، ويرجع استخدام اللفظ بمعنى: الجنة الأرضية، أو: المدينة الفاضلة، أو: المثالية إلى: توماس مور.

واليوطوبيا: هي الجنة التي يُبشّر بها الفلاسفة.

ثم إن كهنة (بيت الربّ) كتبُوها في التوراة، في القرن السابع قبل الميلاد، وكانت قبل اليهود=

العُنف يتوسلون به لتجاوز الهوة بين المثال اللاّ تاريخي وبين الواقع المُتعين، حيثُ العُنف هو الوسيلة الّلا معقولة لفرض تصورات تاريخية على واقع تاريخي.

قُلت:

وهذا ما تفعله بأرض فلسطين من حيث إيجاد تاريخ يثبته العُنف، أهـ.

وإله اليهود - كما تطرح فكرته التوراة - تعبير عن العقلية اليهودية غير القادرة على الرؤية المُركبة، حيثُ النظرة الوحدانية تكادُ تطيع تفكيرهم، فالإله عِندهم واحد، وكذلك الشعب، والديانة، والتنزيل، والتاريخ.

ومع ذلك فالتفكير اليهودي تجسيمي وتشبيهي، وإلهم الواحد لذلك يُعبرون عنه بالجمع ألوهيم.

وفلسفتهم فى اللاهوت هي:

وحدة الوجود والفلسفة الحلولية، وليس الله إلاّ فِعله، بمعنى أنّهُ الطبيعة؛ والطبيعة خلاّقة، أو: هي طبيعة فاعلة، وجوهرها لذلك جوهر إلهي، [1] أهـ.

وقيل:

قد نُسِبوا إلى هود النبي عليه السلام، وهو: هود بن عبد الله بن رباح بن جارو بن عاد بن [2] عوص بن إرم بن سام بن نوح، هذا هو الراجح في نسبه، وأما ابن هشام فقال: اسمه: عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح. عليه السلام. [3]

=موجودة عن الفرس، وغيرها، أهـ بتصرف.

(١) المُعجم الشامل لمُصطلحات الفلسفة [ص ٩٥٥، ٩٥٦].

(٢) قوله: عاد بن: هو الصحيح، وما جاء فى المطبوع قوله: عاد ابن، وهو خطأ، فمع الوصل تُحذف الألف للتخفيف.

(٣) قاله الإمام ابن حجر فى الفتح [ج٦/ص٤٣٤]، وكذا ذكره ابن كثير فى البداية [ج١/ص١٢٠].

الثالث: هادُوا .

يقول تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

[البقرة: ٦٢]

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره:

فاليهود أتباع موسى عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، واليهود من الهوادة، وهي: المودة، أو: التهود، وهي التوبة كقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

أي: تُبنا. فكأنهم سُموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض.

وقيل:

لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولادِ يعقوب، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون. أي: يتحركون عند قراءة التوراة. (١)

وقيل:

وأما الذين هادُوا، فهُم اليهود، ومعنى هادُوا: تابوا، ويُقال منه: هاد القوم يهودون هَوْدًا وهادةً، وقيل: إنما سُميت اليهود يهود من أجل قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾. (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير [ج١ / ص ١٢٦].
(٢) تفسير الطبري [ج١/ ص٤٥٣].

وقيل:

معناه: صاروا يهودا؛ نُسبُوا إلى يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام؛ فقلبت العرب الذال دالاً، لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غيرت عن لفظها. وقيل: سُموا بذلك لتوبتهم عن عِـــبادة العجل. هاد: تاب. والهائد: التائب. (١)

وجاء ذكرهم بلفظ آخر ولكنه في نفس المعنى، وهو ما جاء في قوله تعالى:

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

[البقرة: ١١١]

وقيل: فإن فى الهود قولين؛ أحدَهُما: أن يكون جمع هائد؛ والهائد: التائب الراجع إلى الحق. والآخر: أن يكون مصدرًا عن الجميع.

وقد قيل: إن قوله: ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ إنما هو قوله: إلّا من كان يهودًا؛ ولكنه حذف الياء الزائدة، ورجع إلى الفعل من اليهودية.

وقيل: إنه في قراءة أُبيّ: ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾. (٢)

وفي شعب دُويلة إسرائيل اليهود لعنهم الله، وقبحهم إلى يوم الدين، يقول الدكتور/ عبد الجليل شلبي:

إننا نتحدث عن هذا الشعب بشيء من التسامح في تسميته، فنقول مرةً: الشعب العبراني، وثانية: الشعب الإسرائيلي، وثالثة: اليهودي؛ مما يُوهم أنها أسماء مترادفة، وهي في واقعها ليست كذلك.

---

(١) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٩].

(٢) تفسير الطبري [ج١ / ص ٦٨٨].

فالعبرانيون، أو: العبريون هُم الذين جاءوا مع إبراهيم عليه السلام من بلاد الكلّدانيين إلى أرض كنعان، سُموا كذلك لأنهم عبروا نهر الفرات متجهين إلى هذه البلاد، أو: لأنهم عبروا نهر الأردن في تجولِهمْ في بلاد الكنعانيين.

وتعزي هذه التسمية في التوراة إلى: عابر بن سام بن نوح، الذين هُم من سُلالته، وهذه التسمية الأخيرة مما فنده بعض المستشرقين، وعابر هذا لم يكن أكبر أبناءِ سام، ولا جَدًا أدنى لإبراهيم، ثم إن ابناء نوح وسُلالتهم ممن ذهب بهم الدهر، ولا يُطمأن إلى تاريخهم.

وعلّق على هذه التسمية، وعلى تسلسل نسب إبراهيم إلى عابر في ذيل كتابه قائلاً: في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام؛ وفيه: أن إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن سروج بن راعو بن فالج بن عابر .

وجاء في محاضرات تيرنر Turner: أن عِبري بمعنى: خارجي، وأن القوم سُموا بذلك لأنهم فصلوا ديانتهم عن ديانة الكنعانيين - فهي إذن تسمية متأخرة.

وليس من المقبول أن يكون بين إبراهيم وبين نوح سبعة آباء فقط، انتهى تعليقه.

ثم نُكمِلُ كلام حضرته، فيقول:

أما الإسرائيليون فهم أبناء يعقوب - يُريد أبناء يعقوب الاثنى عشر، ولا يُلمح إلى شعب دُويلة إسرائيل - وسنأتي تسميته بإسرائيل، وقد نَسل اثنى عشر ابنًا، كُل واحدٍ منهم صار أصلاً لجد يُنسب إليه.

وبهذا يخرج من أسرة الإسرائيليين - أي أبناءه - كثيرٌ من العبرانيين، مِثل لوط وذُريته، وإسماعيل ونسله، وأيضًا عيسو بن إسحق ... فهؤلاء عِبرانييون وليسوا إسرائيليين - أي: وليست أبناء إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام.

وأمَّا اليهود فنُسبوا إلى يهوذا - الابن الرابع ليعقوب، وكانت له الرسالة الدينية من بين إخوته، فنُسبوا إليه باعتبارهم أبناء هذه الديانة.

وجاء في بعض الكُتب أنها نِسبة إلى مملكة يهوذا - الإقليم الجنوبي من مملكة إسرائيل، وهذا ليس بشيء.

فالأسماء الثلاثة - أي: العِبرانيون، والإسرائيليون، واليهوديون - ليست مترادفة، ولكن قد يُستعمل أي اسمٍ منها للجميع مجازًا.

وصارت الرسالة الدينية بعد ذلك في بني لاوى (ليفي) - ويُعرفون باسم: (اللّاويين) ولاوى هو الابن الثالث ليعقوب.

ومن هذه السلالة هارون أخو موسى.

وهارون عند اليهود هو الزعيم الديني.

أمّا موسى: فهو القائد السياسي، ولذا انحصرت الرسالة الدينية في هارون ونسله؛ انتهى كلامه. [1]

وكذبوا فهم أفّاكون فاسقون، فلم يُصنف ربُّ العالمين كُلٍ من موسى وهارون، ولم يخُص أيًا منهما بعملٍ ما، أو دعوة مخصوصة، فلا غرابة إذن من كلامهم هذا قبحهم الله، فهم مسخ القِردة والخنازير، وعَبْدَة العِجل.

هذا ما وددنا أن ننوه إليه قبل البدء في مادة كتابنا هذا بإذن الله، فنسأله العون والمدد، فهو المُستعان، وعليه التُكلان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

---

(١) اليهود واليهودية للدكتور: عبد الجليل شلبي [ص١١، ١٢، ١٣].

حال اليهود مع الله عزّ وجلّ

اليهود تلك الصفة الدينية، والتي يتصف بها بنو إسرائيل والتي كانت في حقبتها وقتئذ أفضل وخير الديانات؛ لماذا؟

لأنها وقتئذٍ هي الـمُنـزّلة من قِبل الله عزّ وجلّ، ولهذا شُرِّفت.

أما وأنهم لم يقوموا بما حباهم الله وخصهم به من اتصافهم بالإيمان نتيجة إيمانهم بنبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

آذوا خالقهم عزّ وجلّ بفعلهم الدنيء، آذوا رسولهم كثيرًا حتى كادت أن تزهق رُوحه من أفعالهم القبيحة، بدلوا كلمات الله عزّ وجلّ، والمتمثلة في كتابه التوراة.

من جرّاء ذلك، وبما كسبت أيديهم، كتب عليهم الغضب، وكتب عليهم أن اقتلوا أنفسكم، سخط عليهم، وكتب عليهم التّيه فى الأرض، عبدوا العجل من جهلهم وحقارة مقاصد أنفسهم، مسخهم قِردة وخنازير، وعبدوا الطاغوت من دون الله، تُرى ماذا بذلك يستحقون من ربهم؟

أُناسٌ خلقهم الله تعالى، رزقهم، أنعم عليهم، أصبغها عليهم ظاهرة وباطنة، أُهينوا فى الأرض، سخّرهم فرعون قبحه الله تعالى، استحيا نساءهم، قتّل أبناءهم، سَخّرَّ رجالهم في أخس الأعمال، انظر إلى قول الله عزّ وجلّ:

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

[القصص: ١: ٦].

يقول الله عزّ وجلّ لنبيه المصطفى محمدًا ﷺ، إنا سنتلوا عليك من بعض أنباء نبينا موسى عليه السلام مع فرعون اللعين، وأن هذا القول هو الحق، لأنّهُ صادرٌ من لدُّنا، وما هو من قول البشر، ولا الكهان، ولا الشيطان؛ ولذلك اتُصِفَ القول بالحق، لأنه صادرٌ من الحق جلّ وعلا.

وفي معرض الآيات يُبين الخالقُ عزّ وجلّ: أن فرعون استعلى فى الأرض وطغى وتكبَّر، وكان من فعله أن جعل من بني إسرائيل شيعًا، أي: فِرقًا في خدمته وأغراضه، فجاء منها، قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل مصر، والمراد أهم من بني إسرائيل دون أقباط مصر، ولعْلّ من هنا جاء منشأ كُرههم للأقباط.

وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وذلك كان من فرعون لعنه الله، حين رأى رؤيا دعى لها الكُهان والسحرة والعرّافين، ففُسرت، بأن هلاك مُلكه سيكون على يدِّ غُلامٌ سيُولد في بني إسرائيل، ففزِعَ لذلك، وأمر بقتل الغلمان، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يستبقي عليهم إذا عَلِمَ أن المرأة حِبلى، حتى يتمكن من قتل وليدها إذا كان ذكرًا، وذلك عن طريق جنوده الأشرار، ففزعت إليه أهلُ الأمصار وعُلمائها قائلين: أن بهذا العمل ستفنى ذكور بني إسرائيل ولا يجدون من يعمل فى الأعمال الخسيسة والشاقة – ولهذا تُصنِفُ الدُّويلة الصهيونية سُكانها

والذين سرقوا الأرض [1]، وبكل وقاحة يُدافعون عنها بحجة ملكيتها؛ المُهم أن الدُويلة الصهيونية تُصنف سُكانها درجات، والدرجة الثالثة منها تُسخر فى الأعمال الدنيئة وتدفع بهم فى الأعمال الشاقة، ولا يحق لهم شغل المناصب العُليا بزعمهم؛ وفي نفس الوقت يدّعون أنهم أهلُ عدالة وديمقراطية، ولا تمييز عندهم ولا عُنصرية، والواقع يجعلهم كَذبة كالتي تُساندُها - أميركا - تلك الولايات التي طردتها مؤسسة حقوق الإنسان لعدم أهليتها لمثل تلك الصفة - نعُد لما نقوله من أن قتل الغلمان من بني إسرائيل سيضُر بذكور القبط من أهل مصر، فأشار علماء وكهان فرعون قبحه الله، بقتل الغلمان سنة، والإبقاء عليهم سنة؛ ولا يمنع حذرٌ قدرًا، فقد كان ما أراد الله عزّ وجلّ، فوُلدَ موسى عليه الصلاة والسلام.

من أجل أن يتم هذا جاء قوله عزّ وجلّ:

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

[القصص: ٥، ٦]

---

(١) مع اقتراب نهاية الانتداب البريطاني، فقد ساعد، تحت الضغط اليهودي، في إنشاء عدّة مخطّطات تقسيمية: مشروع بيل Peel لعام ١٩٣٧، وودهيد لعام ١٩٣٨ مشروع الوكالة اليهودية لعام ١٩٤٦، وخُطة الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧. الإعلان عن هذه الأخيرة أشعل شرارة حرب أهلية [١٩٤٧ - ١٩٤٨] أدّت إلى نزوح عربي واسع. ترافق خروج البريطانيين في آيار ١٩٤٨ مع إعلان أُحادي الجانب لإنشاء دولة إسرائيل في ١٤ آيار في إطار حدود الانتداب، [معجم العالم الإسلامي - مجالي مرسي / ص ١٢٥].

ولا أدري ماذا يقصد المؤلف بقوله: عن هذه الأخيرة أشعل شرارة حرب أهلية - فلا أعلم مراده بالحرب الأهلية، أهـ.



فقد كان ما أراد الله تعالى، وتمت مشيئته، وُلِدَ موسى عليه السلام، رباه الله تعالى على عينه، حفظه ورعاه بكلائته، وألقى عليه محبته، وآتاه رُشده، واجتباه واصطفاه، فأرسله إلى بني إسرائيل، وكان هلاك فرعون وملأه وجنودَهُ على يديه كما أراد الله تعالى، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، ومكنَّ لهم فى الأرض، وآتاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين وقتئذ.

انظر إلى قول الله عزّ وجلّ:

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

[الأعراف: ١٣٧]

ولذلك يمتن الخالقُ عزّ وجلّ عليهم مُذكرًا أحفادهم، وذلك في صدر بعثة نبينا ﷺ، وذلك في معرض آيات سورة البقرة، فجاء قوله تعالى:

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

إلى أن قال عزّ وجلّ:

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ

يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

[البقرة: ٤٠ : ٤٩]

هذا فضل الله عليهم، ونعمةُ عليهم، فخيرًا لهم أن يؤمنوا به، ويُسلموا له ويطيعوا رسوله، ويتبعوا كتابه، فعكسًا فعلوا، لعنهم الله تعالى.

جحدوا نعم الله، فلم يشكُروه، وكفروا به، وعدلوا به عجلاً، آذوا رسوله، بدّلوا كتابه وحرّفوه ليوافق هواهم لثقل الطاعة على نفوسهم القبيحة، وحرّفوا تعاليم الإله الخالق استهزاءً واستخفافًا جهلاً منهم؛ فلا عجب، فهُم أهلُ مادة، يُحبون الحياة حُب الخلود، ويعشقونها، يتلذذون بالأكل والشرب، وجمع المال والذهب والفضة، وكذلك النساء والزنى بهن، وهُم أهل ركُون صِرف إلى الحياة الدُنيا وإلى الأرض.

فمن أجل ذلك قابلوا الهداية بالإضلال والضلال، وبالنور عتامة فى القلوب حتى طبع الله على قلوبهم، وبذلك قست، فأوّل ما صدر منهم إساءت الأدب مع خالقهم، انظر إلى قوله عزّ وجلّ:

قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

[الأعراف: ١٢٩]

هكذا كان سوء أدبهم مع هاديهم ومنقذهم من العذاب والسُخرة والدنية والضلال.

أمّا المراد من قوله: ﴿أُوذِينَا﴾ أي بقتل أبنائنا، وقوله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ يقول: من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا، وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يقول: ومن بعد ما جئتنا برسالة الله، لأن فرعون لما غُلبت سحرته، وقال للملأ من قومه ما قال، أراد تجديد العذاب عليهم بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم - وهذا ما يفعلوه الآن مع أبناء أرض فلسطين، ينتظرون أي هفوة فينقضون العهد والمواثيق، وتهب شهوتهم العدوانية لسفك الدماء وقتل النساء والأطفال، وإزهاق أرواح العُزْلّ، لعنهم الله أينما كانوا - نعُدّ لما نقُول: وقيل: إن قوم موسى قالوا لموسى ذلك حين خافوا أن يُدركهم فرعون وهم منه فارّون، وقد تراءى الجمعان، فـ(قالوا) له: يا موسى. ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ اليوم يُدرِكُنا فرعون فيقتُلنا. (١)

هذا أوّل موقف إيماني عملي، فلم تُطيق نفوسهم المِحن والابتلاءات، ولم يروا بنور الإيمان وعدّ ربهم بالنُصرة على فرعون والظهور عليه، وتمكينهم الأرض، الأمر الذي دعاهم إلى السُخط والتذمر، فلا عجب، إنهم اليهود.

(١) تفسير الطبري [ج٦/ ص ٣٧].

قول بني إسرائيل لنبيهم:

اجعل لنا إلهًا

إليك أخا الإسلام الواقعة التالية المُخزية:

فحينما التقا الجمعان، موسى عليه السلام وأتباعه؛ فرعون لعنه الله والأشرار جنوده، وقد اجتمعا فى البحر، إذ بإنجاز الله وعده نبيه؛ أغرق آل فرعون وجنوده، وأبقى الإله على جسد فرعون اللعين الهالك، ليكون لمن خلفهُ آيةً وعبرةً وعِظةً.

ومن المفترض. أن تكون هذه الحادثة بداية تعميق الإيمان في قلوب بني إسرائيل، وكذا ترسيخ عقيدة الإيمان، لما شاهدوا عدو الله وعدوّهم وأتباعَهُ وجنودَهُ قد أهلكهم الله تعالى.

إلّا أنهم أهل شقاء، وقُصورٍ فى الأفهام، وهم كذلك أهلُ مادة.

لم يلبثوا أن نصرهم الله تعالى وقد أتوا على قومٍ يعبدون أصنامًا، فطلبوا من نبيهُم الشرك بالله تعالى، وجعْل النِدّ لهُ. عياذًا بالله من فعلهم القبيح.

وفي ذلك يقول ربُّ العزّة:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾

[الأعراف: ١٣٨]

يا سبحان الله. وعجبًا لهؤلاء الجُهلاء، قومٌ عائدون لأرضهم وقد ورثوها أعزاء من بعد ذُلّ، كُرماء من بعد مهانة، شامخي الرؤوس من بعد نكوسها، آمنون من بعد الخوف؛ كان حقًا عليهم وواجب أن يسجدوا لله شاكرين حامدين.

فطلبوا من نبيهم السجود للأصنام.

يقول الإمام الطبري.

يقول تعالى ذكرُه: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهُموها، والعِبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى، فلم تزجُرَهُم تلك الآيات، ولم تعظهم تلك العِبر والبينات حتى قالوا مع مُعاينتهم من الحجج ما يحقّ أن يُذكر معها البهائم.

إذ مرّوا على قومٍ يعكُفون على أصنامٍ لهم، يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله؛ قالوا: اجعل لنا يا موسى إلهًا، يقول: نعبُده وصنمًا نتخذَهُ إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامًا يعبدونها؛ ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحدُ القهار.

وقال موسى صلوات الله عليه: إنكم أيها القوم قومٌ تجهلون عظمة الله، وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أن لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له مُلك السماوات والأرض.[1]

ثم بيّن نبي الله موسى غاية هذا العمل ونهايته، فقال عزّ وجلّ حكايةً عنه:

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

[الأعراف: ١٣٩]

(١) تفسير الطبري [ج٦ / ص٦٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مهلك، والتبار: الهلاك؛ أي: أن العابد والمعبود مُهلكان، ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: ذاهب ومضمحل، ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.(١)

فأراد بعد ذلك القول تبرأت ذمته، مخافة أن ينــزل العقاب فيأخذ الصالح والطالح، وأيضًا أراد أن يُبلغهم معنى التوحيد قولاً وعملاً، وإبلاغهم ما جاءهُ من الله تعالى.

فقال عزّ وجلّ:

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

[الأعراف: ١٤٠]

الهمزة في قوله: (أ) للاستفهام والإقرار، والمعنى: هل تُريدون مني أن أجعل لكم إلهًا وأنا رسوله إليكم، وبذلك فضّلكم على العالمين.

وفي ذلك يقول الإمام الطبري:

قال موسى لقومه: أسوى الله ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه، والله الذي هو خالقكم، فضّلكم على عالمي دهركم وزمانكم!

يقول: أفأبغيكم معبودًا لا ينفعكم ولا يضرّكم تعبدونه وتتركون عبادة من فضّلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل.(٢)

اللّهُمّ لا حول ولا قوة إلا بالله الواحد القهار.

---

(١) تفسير القرطبي [ج٣ / ص ٢٧٩٠].

(٢) تفسير القرطبي [ج٦/ ص ٦٢].

اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهـًا

ننتقل إلى موقف آخر يُبين سفاهة عقول هؤلاء اليهود المُدّعين، فلا ريب مِن أنهم نجحوا دُنيويًا، والحمد للهِ على خُسارتهم الأخروية، فهم كفرة عُتاة، طغاة، سفّاكون للدماء.

يقول عزّ وجلّ:

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

[الأعراف: ١٤٨]

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ إن بني إسرائيل لم يتخذوا العجل، أو بمعنى أدق لم يصنعوا العجل ولم يأتوا به، ولكنه السامري لعنه الله، وسيأتي في الآية التي في سورة طه؛ والمقصود ذكر قوم موسى وخصهم بالأخذ لأنهم وافقوه على غيّه وضلاله وسفاهته، وشاركوه الفعل، فنُسِبَ الأخذ إليهم من هُنا.

أمّا قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد خروجه ومغادرته لميقات ربه، وفي ذلك جاء قوله مبينًا:

۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾

[طه: ٨٣ : ٨٥]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾، فقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾

ما – استفهام، ﴿أَعْجَلَكَ﴾ أي: ما الشيء الذي جعلك تعجلت لقائي فجعلك تخلُف بني إسرائيل وراءك، أجاب نبي الله قائلاً: ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: بالقرب مني يأتون بالإعتذار حسب ظنه، وتخلّف المظنون. (١)

فعن ابن إسحاق، فيما رواه الطبري قال: وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه، ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر (٢)، فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة، تلقاه فيها بما شاء، فاستخلف موسى هارون في بني إسرائيل، ومعه السامري، يسير بهم على إثر موسى لُيلحقهُم به، فلما كلّم الله موسى، قال له: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾. (٣)

ولقد عاب الله تعالى على بني إسرائيل هذا السفه قائلاً في آية الأعراف السالفة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ هذا الكلام لا يُفيد أن العجل لو تكلم لكان إلهًا والعياذ بالله تعالى، كلا.

ولكن – سياق الآية في معرض الحوار يُفيد إستخفاف العقل بعقيدة التوحيد، والمعنى: أنهم اتخذوا العجل معبودًا، ألم ينظروا إليه بعقولهم وأبصارهم أنّهُ لا يُكلمهم، فيُبين لهم، ولا يهديهم الهداية التي هي ضد الضلال، فهذه غاية

(١) تفسير الجلالين [ص ٤١٣].

(٢) قوله: ثم أتمها بعشر: وذلك أن الله تعالى قد واعد نبيه موسى عليه السلام ثلاثين يومًا لمناجاته، وكان موسى خلال الثلاثين يومًا صائمًا، وعند نهاية الثلاثين وقرب لقاء ربه، قيل: استاك ليغير رائحة فمه، ظنًا منه أنّهُ لا يليق به أن يُكلم ربه ورائحة فمه متغيرة، فعاتبه ربه قائلاً: ألم تعلم يا موسى. أن رائحة فم الصائم عندي خيرٌ من ريح المسك؛ فردّه، وأمره أن يعود إليه بعد عشر ليالي، وهو المقصود من إتمامها بعشر، وتم ميقات ربه (أي معاده) أربعين ليلة.

(٣) تفسير الطبري [ج٩ / ص ٢٤٣].

الإنسان العاقل الرشيد، وأن يُنجي نفسه من نار الخُلد إلى جنة المأوى.

ولذلك قال في الآية ذاتها: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ فالظُلم هنا يُراد به معنيان:

الأوّل: ظُلم النفس، لأنهم ظلموا أنفسهم أولاً باتخاذهُم العجل إلهًا، لأن وبال فعلهم عائد عليهم، ولأنهم لن يضروا الله شيئًا.

أمّا الثاني: ظُلم الشرك، فإن الشرك ظلمٌ عظيم، والعياذ بالله تعالى.

فأمّا عن فعلهم المُشين هذا فما هو إلّا فتنة من الله تعالى وابتلاءً، يقول الله تعالى:

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

[طه: ٨٥: ٨٨]

بعد ما أتمّ موسى عليه السلام الأجل، وأتمّ ميقات ربه أربعين ليلة، وبملاقاته ربه، وبعد تلقيه تعاليم دينه من ربه عزّ وجلّ؛ أعلّمهُ ربّهُ أنّهُ قد فتن قومه بعبادهم العجل بعد ما أضلهم السامري فاتبعوه، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ أي: حزينًا تقطع أوصاله من تلك الفعلة المُشينة، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ يقول: ألم يعدكم ربكم انّهُ غفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم

اهتدى، ويَعدكم جانب الطور الأيمن، ويُنــزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى، ألم يعدكمُوه ربكم. [1]

وقيل: أي: أمَا وعدكُم على لساني كُل خير في الدُّنيا والآخرة، وحُسن العاقبة كما شاهدتم من نُصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله، وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نِعَمهُ، وما بالعهد من قِدم، ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ - أم - هاهنا بمعنى: بل وهي للإضراب عن الكلام الأوّل، وعدول إلى الثاني كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾؟

قالوا: أي بني إسرائيل في جواب ما أنّبهم موسى وقرّعهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا، - فهذا يدُلُّ على سفاهتهم واتباعهم للأمور من غير تمحيص، وعن غير اختيار - فهم إمعة - ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم مما كان بأيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. [2]

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ أثقالاً، ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: حُلّي قوم فرعون، استعارها منهم بنو إسرائيل بعلّة عُرس - فهذا رأي آخر في سبب استعارة الحُلّي - فبقيت عندهم ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ طرحناها في النار بأمر السامري ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ كما ألقينا ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ما معه من حُليهم، ومن التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل على الوجه الآتي [3]؛ وهو المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ

---

(1) تفسير الطبري [ج٩ / ص ٢٤٤، ٢٤٥].

(2) تفسير ابن كثير [ج٣ / ص ١٨٠].

(3) تفسير الجلالين [ص ٤١٣، ٤١٤].

عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ سُبحان الله فهُم والله قوم بُهت وزور، هل يُصاغ بكل المقاييس أن يعبُد رسول الله عجلاً، وهو في ذاته أخس تكوين من البشر، اللّهُمّ ما هي إلاّ عقول السُفهاء.

يقول الإمام ابن كثير فى البداية:

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يُناجيه ربُه ويسألُه موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يُجيبه عنها؛ فعمد رجلٌ منهم يُقال له: هارون السامري، فأخذ ما كان استعاره من الحُلّي، فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي. [1]

ويقول فى القصص:

فلما رأى قوم موسى أنَّهُ لم يرجع إليهم من الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خاطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواريُّ [2] وودائع، ولكم فيها مِثلُ ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادّين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكيه لأنفُسِنَا، فحفر حفيرًا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

قُلت: هذا الكلام يُحمل على أن الحُلّي ودائع لدى قوم بني إسرائيل، وعندئذٍ لا يحق لهم الانتفاع بها، وهو ما أراده نبي الله هارون عليه السلام، وأمّا ما عدا

(١) البداية والنهاية [ج١/ ص ٢٨٦].

(٢) قوله: عواريُّ: عاوره الشيء – أعطاه إياهُ عاريَّةً، والجمع عواريُّ. المعجم الوسيط [ج٢/ ص ٦٥٩].

ذلك مما ذكرناه فهو بيّن في أن هذه الحُلّي كانت فيء مما أفاء الله به على بني إسرائيل بعد إغراق فرعون، ووعده إياهم بميراث أرضهم، وقد كان، أهـ.

نعُد لقول ابن كثير:

وكان السامري من قوم يعبدون البقر – وفي رواية للطبري: من لخم – جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتُملَ مع موسى وبني إسرائيل حين احتُملوا، فَقضَىَ له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري. ألا تُلقي ما في يديك؟ وهو قابض عليه لا يراهُ أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا أُلقيها لشيء إلّا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أُريد، فألقاها ودعا له هارون فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان في الحُفرة من متاع أو حلية أو نُحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح وله خوار، قال:

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما:

لا والله. ما كان فيه صوتٌ قط، إنما كان الريح تدخل من دُبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك – وإنما قال الإمام الصحابي ذلك، لأن هناك من يقول: صار العجل دمًا ولحمًا وله صوت، وذلك ردٌّ قاطع لتعدُّدِ أدلة تمحيصه – فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة:

يا سامري. ما هذا وأنت أعلمُ به؟ قال: هذا ربكم. ولكنّ موسى أضل الطريق!

وقالت فرقة:

لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه، وعكفنا عليه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى.

وقالت فرقة:

هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نُؤمن به، ولا نُصدق، وأُشرِبَ فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا عدم التكذيب به، أهـ.[1]

ولذلك جاء القرآن بآياته معيبًا عليهم فعلهم كُليةً، فيقول ربّ العزّة سُبحانه:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

[طه: ٨٩]

يقول ابن كثير عن الحسن البصري:

أن هذا العجل اسمه: بهموت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير.[2] - يُريد عبادة العجل إشراكًا بالله تعالى، أهـ.

ويقول الطبري:

يقول تعالى ذكره موبخًا عبدة العجل، والقائلين له: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾. وعابهم بذلك، وسفّه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه:

أفلا يرون أنّ العجل الذي زعموا أنّهُ إلههم وإله موسى لا يُكلمهم، وإن كلّمُوه لم يردّ عليهم جوابًا، ولا يقدر على ضُرّ ولا نفع، فكيف يكون من كانت هذه صفته إلهًا؟ [3].

---

(١) قصصُ الأنبياء [ص ٣٧٢ ، ٣٧٣].

(٢) تفسير ابن كثير [ج٣/ ص ١٨١].

(٣) تفسير الطبري [ج٩/ ص ٢٥١].

والحق أن الناظر في أحوال هؤلاء اليهود يجد شيئًا واحدًا، وهو أنهم أهلُ مادة، يُريدون كل شيء ملموس باليد، مرأي بالعين محسوس، فلعنة الله على الكافرين.

ثم يفضح الله أمر من أقحم نفسه فى المهالك، و لم يدرِ ما عاقبة فعله، هل سيعود عليه بالخير أم بالخسارة والنكال؟

يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾

[الأعراف: ١٤٩].

في وصف لحال هؤلاء الكُفار الجهلة، والمدّعين لصفة كمال العقول، اللّهُمّ نعم. فى الدُنيا فقط، وفى المادة فقط، وفى الشيء الذي يُعطيهم الإحساس بالأمان، ولو كان على حساب عقيدة الفرد، أو على حساب الأخلاق العامة.

أو أي شيء من شأنه أن يرفع دنيويًا، ونحمد الله تعالى على ذلك، فهم فِكاك المسلم من النار يوم القيامة وفداءٌ له.

المهم أن هناك وصف دقيق، يصف حال هؤلاء الجهلّة السفلّة في حال عبادهم للعجل، يقال:

إنهم لما صوّت لهم العجل، رقصوا حوله، وافُتتِنُوا به، وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي.(١)

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٢٧٩].

فلما أيقنوا بسقوطهم في الفتن والدجل، رجعوا إلى خالقهم، واعتذروا لعلّ الله تعالى يعفو عنهم.

حقًا. إن الله تعالى يسبق حلمه غضبه، وعفوه عقوبته، فهو يُمهل ولا يُهمل، سُبحانه وتعالى عما يصفون علوًا كبيرًا.

ولذلك جاء قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم، والتجاء إلى الله عزّ وجلّ. [1]

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

[الأعراف: ١٥٠]

هكذا كان موقف نبي الله موسى مع أخيه عليهما السلام، ومع قومه، وما جاء في نصوص التوراة عند اليهود تُبين كذبهم وافترائهم وتبجحهم على الله تعالى ورُسلِه، وقولهم بأن: هارون هو الذي أمر بعبادة العجل، وأنّهُ هو الذي صنعه، سبحان الله تعالى، انظر إلى الكذب، انظر إلى الافتراء، والله إنّ اللسان والبنان والقلم ليعجزوا عن أي وصف يليق بهؤلاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسنذكر هذا الموقف إن شاء الله في موضعه.

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٢٨٠].

لما عَلِمَ الذين اتخذوا العجل إلهًا من دون الله تعالى جهالةً منهم، رجعوا إلى الله تعالى، وندموا على فعلهم، وطلبوا التوبة لعلّ الله يتوب عليهم، كل هذا عبء على عاتق رسولهم وطاقة عصبية رهيبة، وضغط معنوي عصيب يمس العقيدة ويستوجب عقاب الله تعالى، وقد كان.

يقُص علينا ربُّنا عزّ وجلّ مقالة نبيه موسى عليه السلام، بعد انقضاء موقف عبادة قومه العجل، فيقول عزّ وجلّ:

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

[الأعراف: ١٥١ : ١٥٣]

فكان عقاب الله على الذين اتخذوا العجل إلهًا من دون الله تعالى بالقتل، وتاب على من قُتِلَ، وغَفر لمن قتل، يقول تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

[البقرة: ٥٤]

كما قلنا من أن أعظم الظُلم وأكبره؛ هو الإشراك بالله تعالى، وجعْل الأندادِ

لهُ، ولما كان هذا الأمر يُغضِبُ الجليل جلّ وعلا، فما كان له جزاءً إلّا الخلود في الجحيم، ولما كان الـــمُعذَبَ فيها ليس بمُنعمْ، فما هو بـــحي ولا بميت، ولما كان العذاب فيها على غير الصورة المألوفة للأحياء من حُرية واختيار وقبول ورفض ونعيم ونوم وراحة، فقد يكون بصورة الميت لما له من فقدان للحياة التي تستحق الفخر والمباهاة.

ولهذا كان عقاب الله تعالى القصاص من بني إسرائيل، الذين اتخذوا العجل إلهًا من دون الله تعالى سفهًا وجهالةً، أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم، وفي هذا العقاب إلامين؛ الأوّل: إلام القتل: الثاني: إلام التلاقي بعضهم ببعض، وعِلْمهم بذلك، ولقاء الوجه على علمٍ بالفعل.

فكان هذا العقاب لعلّهم يرتدعون، ولكن هيهات لهم أن يعلموا الحق.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ حقًا. لأن الشرك ظُلمٌ عظيم، وهم قد أشركوا بالله باتخاذهم العجل إلهًا، فلذلك كان حكمه فيهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

ثم قال مُعْلّلاً: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أمره لهم بالتوبة إلى الله تعالى وخص لفظه بـــ ﴿بَارِئِكُمْ﴾ ومعنى البارئ: أي الخالق، وهو اسم من أسماء الله تعالى، وقد يكون المراد منه بأن يخص أمرهم بالتوبة بذكر لفظ البارئ أمران:

الأوّل:

أراد أن يُعلمهم أن الخالق للأشياء ربّ الأشياء، والعجل الذي اتخذتموه من دون الله إلهًا هو مخلوق، فهو مادة كُونت بأيدي البشر، فكيف لشيء كونته أيدي بشرية وصوْرته، أن يكون إلهًا.

الثاني:

قد يكون والله أعلم بمُراده. أن اختصاصه لفظ البارئ فى الآية، أن الذي خلقكم، سيحكم عليكم بضد وجودكم، فكان القصاص أن اقتلوا أنفسكم بأمر خالقكم، ثم تكون الحياة الحقة بعد العدم وهي بعد الموت، فكان الأمر كذلك، فمن قُتِلَ من بني إسرائيل ممن عبدوا العجل كان شهيدًا والشهداء أحياءٌ عند الله يُرزقون، ومن قَتل منهم فقد تاب الله عليه، وغفر له فعله والله تعالى أعلم.

فعن عليٌّ رضي الله عنه قال:

لما تعجل موسى إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من الُحلي، حُلي بني إسرائيل، فضربه عِجلاً، ثم ألقى القبضة في جوفه، فإذا هو عِجلٌ له خُوار، فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فقال لهم هارون:

يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وقد أضلهم السامري، أخذ برأس أخيه. فقال له هارون ما قال؛ فقال موسى للسامري: ما خطبُك؟

قال السامري: قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتُها وكذلك سولت لي نفسي.

قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتُنا؟ قال: يقتُلُ بعضكم بعضًا. فأخذا السكاكين، فجعل الرجل يقتُلُ أباهُ وأخاهُ ولا يُبالي مَن قتل، حتى قُتِلَ منهم سبعون ألفًا، فأوحى الله إلى موسى مُرهُم فليرفعوا أيديهم. فقد غفرت لمن قُتِلَ، وتُبتُ على من بقيَّ. (1)

---

(1) رواه الحاكم فى المستدرك [ج٢/ ص ٤١١ ، ٤١٢].

وقال الحسن البصري: أصابتهم ظُلمة حندس [1]، فقتل بعضُهم بعضًا، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك. [2]

ويقول ابن كثير:

فيقال: إنهم أصبحوا يومًا، وقد أخذ من لم يعبُد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريبُ قريبه، ولا النسيبُ نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدُوهم، فيُقال: إنهم قتلوا صبيحة واحدة سبعين ألفًا. [3]

وعن ابن شهابٍ ﷺ قال:

لما أُمرت بنو إسرائيل بقتل أنفُسِها برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافعُ يديه، حتى إذا فتر أتاه بعضُهم قالوا:

يا نبي الله. ادعُ الله لنا وأخذوا بعضُديه يشدون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قَبِـلَ الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح.

وحَزِنَ موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جلّ ثناؤه إلى موسى: لا يحزُنك. أمّا مَن قُتِلَ منكم فحيٌّ عِندي يُرزق، وأمّا مَن بقيَ فقد قَبِـلتَ توبته، فسُر بذلك موسى وبني إسرائيل. [4]

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال:

---

(١) قوله: حندس: الحِندسُ: الظُّلمة. و:الليلُ الشديد الظُّلمة. وأسود حِندِسٌ: شديد السواد. المعجم الوسيط [ج١/ ص ٢٠٩].

(٢) تفسير ابن كثير: [ج٢/ ص ١١٤].

(٣) البداية والنهاية [ج١/ ص ٢٨٨].

(٤) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٠٩ ، ٤١٠].

قال موسى لقومه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال:

أمر موسى قومه عن أمر ربّهُ عزّ وجلّ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاحتبى [(١)] الذين عَكِفُوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفُوا على العجل وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظُلمة شديدة، فجعل يقْتُلُ بعضهم بعضًا، فانجلت الظُلمة عنهم، وقد أجلوا [(٢)] عن سبعين ألف قتيل، كُل من قُتِلَ منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. [(٣)]

وعن ابن إسحاق رضي الله عنه قال:

لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم؛ خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذهم، ثم بُعثوا. سأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا. إلاّ أن يقتُلوا أنفُسهُم. قال: فبلغني. أنهم قالوا لموسى. نصبر لأمر الله، فأمر موسى من لم يكن [(٤)] عبد العجل أن يقتُل من عَبَده، فجلسوا بالأفنية وأصلت[(٥)] عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلُونهُم، وبكى موسى وبَهَشَ[(٦)] إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن تُرفع عنهم السيوف. [(٧)]

---

(١) قوله: فاحتبى: احتبى بثوبه: ضم رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره يشده عليها.

(٢) قوله: أجلوا: أي انكشفوا.

(٣) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٠٨].

(٤) قوله: يكن: هو اللفظ الصواب لما يقتضيه المعنى؛ واللفظ الذي جاء في المطبوع (يمكن) وهو خطأ، فلعلّه تصحيف أو خطأ مطبعي.

(٥) قوله: أصلت: أصلت السيف – أي جرده من غِمده.

(٦) قوله: بهش إليه: ارتاح له وخفّ إليه.

(٧) تفسير الطبري: [ج١/ ص ٤١٠].

هذه بعض الآثار صحيحة السند، والتي جاءت في شأن قتل من عبد العجل من اليهود.

ولما كان القتل بأمر الله وهو توبةٌ منه، كان فيه الخير كُل الخير، ولذلك قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فكان فضل الله عليهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صدق الله العظيم، وله الفضل الجزيل، وإليه يرجع الأمر كله.

في ضوء ما قد سبق ذكره، نجد أنّ الله تعالى أخذ الحق لنفسه، ممن ادعى الشرك له في عبادة العجل، وأعطى الحق لمن قُتل بأن جعْلّهُم شُهداء، وتاب على من قَتل لأنهم كانوا السيف الذي انتقم به الله لنفسه سبحانه.

ثم لم يبقى لنا بعد ذلك إلاّ أن نطْلّع على أمر السامري، ذلك الذي كفر بأنعُمِ الله عليه، بعد أن نجاه مع ممن نجا من بني إسرائيل في مجاوزتهم البحر، وإنقاذهم من جبروت وقهر فرعون لعنه الله تعالى، ولكن أبى إلاّ الكُفر به، ولذلك كان السؤال من نبي الله موسى عليه السلام:

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ [طه: ٩٥]

الخطبُ: أي الحال والشأن، والمعنى: ما حالُك وشأنُـك يا سامري، فأجابَهُ:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

[طه: ٩٦]

معنى قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ شاهدت وعاينت ما لم يروه، وهو أثر فرس جبريل عليه السلام، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي:

من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه؛ وكلما وطأت بحوافرها على موضع إخضر واعشبّ فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان. (١)

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ سول له الشيء: أي حببه له وزينه؛ وأُلقي فيها أن آخذ قبضةً من تراب ما ذُكر، وأُلقيها على ما لا روح له يصير له روح - وهذا القول مردود وقد سبق بيانه - ورأيت قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلهًا، فحدثتني نفسي أن يكون ذلك العجل إلههم. (٢)

وكان العقاب العاجل الفوري من الله تعالى على لسان نبيه، فقال:

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

[طه:٩٧]

هذا عقاب من الله تعالى فى الدنيا، وجزاءً وفاقًا، إذ قال موسى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ﴾ لمن رأيته ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي لا تقربني، فكان يهيم فى البرية، وإذا مس أحدًا، أو مسهُ أحد حُمَّا جميعًا (٣)؛ وذُكرَ: أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك فى الحياة أن تقول: لا مساس، فتبقى هذه عقوبته فى الحياة الدنيا، وأما عقوبته فى الآخرة، قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وإن لك موعدًا لعذابك وعقوبتك على ما

---

(١) قصصُ الأنبياء: [ص ٣٤٨].
(٢) تفسير الجلالين: [ص ٤١٥].
(٣) المصدر السابق: [ص ٤١٥].

فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا العجل من دون الله، لن يُخلفكهُ الله، ولكن يُذيقكه. (1)

وكان ردّ الفعل تجاه العجل – وهو ولد البقر – أن قال فيه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ هذا الكلام من نبي الله موسى عليه السلام فيه تقريع وتوبيخ للسامري على فعله القبيح الدنئ، إذ يقول له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وهذا يؤكد أنّهُ لعنه الله مكث عاكفًا على العجل متعبدًا به، واهمًا بني إسرائيل ممن كانوا معه، أنّ هذا العجل إله، والعياذ بالله من ذلك، ثم أتمّ بيانه مخاطبًا إياه: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ اللام في قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ هي للقسم، وأما الثانية في قوله: ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ فهي للحال، و﴿ثُمَّ﴾ بينهما لترتيب التعقيب في نسق الكلام.

وقد كان، فقد حرّق سيدنا موسى عليه السلام هذا الوثن وهو العجل المصنوع من الذهب، ثم ذراه في البحر، وبهذا ينتهي على يدّ كليمُ الله تعالى فصل الوثنية هذا، ولله الحمد والمنة.

---

(1) تفسير الطبري [ج9/ ص 256].

سؤال اليهود أن يروا الله تعالى جهرًا



لقد مرت بنو إسرائيل بمواقف ومحن وابتلاءات من الله تعالى لعَلّهم يتضرعون فما استكانوا لربهم، وما خضعوا له، وما استسلموا له، سبحان الله.

يتكرر موقف السفه، والعقول الخَرِبة، والأنفُس المادية، فقد طلبوا من رسولهم أن يروا الله جهرةً، أي مُشاهدة عين.

بالله عليك أخا الإسلام أن تنتبه لما أقوله لك:

عندما قضى الله تعالى أمره، واختار سيدنا موسى نبيًا ورسولاً لبني إسرائيل، أحس نبي الله بلذة روحية ما بعدها لذة وكذلك دونها لذة الجنة وهي جنة الخلد، أخذته البهجة، وأخذه الشوق الإيماني الروحي، وطَمِعَ في فضل الله وكرمه وعطاؤه، فطلب منه فقط أن ينظر إليه، لا أن يراه كما أعلنت جمة السُفهاء من اليهود.

فلما سَمِعَ رَبُّ العزّة مقالته، لَطِف به وأخذه بيد الرحمة والحنان، وأخبره بشيء عملي قبل أن يُجيبه إلى ما طلب، قال له ربُّ العزّة بما ما معناه: حيثُ أنّك طلبت هذا يا موسى. فانظر إلى الجبل وهو الوتد فى الأرض، وهو الشامخ الصامد، فانظر إليه، فإن استقر مكانه؛ فعندئذٍ سوف تراني، سبحانه وتعالى.

فلما تجلى ربُّ العزّة إلى الجبل، تجلى نوره فقط كاشفًا عنه حجاب قدرته، ولم ينظر إلى الجبل، فلما تجلى ربُنا عزّ وجلّ، جعل الجبل دكًّا، سبحان الله؛ لم يتحمل الجبل الشامخ وهو الصَلب، لم يطق أن يصمُد أمام سُبحات نور وجه الله الكريم، فاندك الجبل.

فكان هذا جواب عملي لِما طلب موسى الطّيِّلاة؛ فلما رأى الكليم هذا خرّ مغشيًا عليه، ومكث بُرهةً من الوقت، فلما أفاق من هذا، تحامل على شوقه وأعلن خضوعه واستسلامه وانقياده لخالقه عزّ وجلّ؛ فقال فيما معناه:

سبحانك يا علي يا قدير، تُبتُ إليك من سؤالي؛ وهذه التوبة لا عن ذنب ارتكبه، بل هو من قبيل: حسنات الأبرار، سيئات المقربين.

فإذا ما علِمنا هذا الموقف مع كليمُ الله تعالى، وهو مُعدّ بدنيًا وروحيًا، ومُهيئ لاستقبال وحي الله تعالى وأوامره، ومُهيئ كذلك لأن يسمع كلام الله تعالى، ومع ذلك، لم يطق، بل لم يتحمل أن يرى الله تعالى في الحياة الدُنيا جهرًا.

فما بالُك أخا الإسلام بهؤلاء السفلّة المتبجحين على الله تعالى، السائلين عما لم يصدر من أحدٍ من الخلق أجمعين سوى نبيهم، وها قد علمنا ما حدث معه.

يقول تعالى:

وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

[الأعراف: ١٥٥]

الرأي الذي عليه أغلبُ أهل التفسير في هذه الآية:

أن الله تعالى واعد نبيه موسى الطّيِّلاة، وكان لا يأتيه، إلاّ بعلم وبميقات يوقّتهُ له ربُه لملاقاته؛ وأمره أن يأتي من قومه خيرة الخيرة من قومه، تقرُبًا وتضرُعًا إلى الله تعالى، وليستغفروه، وليطلبوا العفو منه على ما ارتكبه عبدة العجل.

فاختار نبي الله سبعين رجلاً، فلما قُرب من الجبل، دخل موسى عليه السلام، في عمود الغمام وضُرب الحجاب أثناء تكليم الله تعالى له، فأمر قومه - السبعين - أن يدخلوا في عمود الغمام الذي انصب على الجبل، فسمعوا كلام الله تعالى لموسى، وأوامره له بافعل ولا تفعل.

والواضح من حياة هؤلاء اليهود السفهه، أنهم لم يتعظوا، ولم يتعلموا من دروس ما قد سلف من حياتهم.

تجرؤا على الله تعالى تجرأ تبجح، فقالوا لنبيهم عندئذ، وهو ما حكاه القُرآن الكريم، فجاء قوله تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾

[البقرة: ٥٥]

هذا شرطٌ اشترطوه على نبيهم، ونفوا عن أنفسهم الإيمان والخضوع لخالقهم، فشرطوا على ربهم أن لا يؤمنوا به حتى يروه، سبحان الله.

هل إيمانهم عائد على الله تعالى بنفع، هل عدم إيمانهم يضُر الله تعالى؟ فَمِن أجل ذلك يدعوهم إلى الإيمانِ والهُدى.

لقد أخبر القُرآن، أن الحق من الله تعالى، فمن شاء فليؤمن بالله عز وجل، ومن شاء فليكفر، لماذا؟

لأن القاعدة، من عَمِلَ صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وليس كذلك فقط؛ بل: ولا تزر وازرةٌ وِزر أُخرى.

فمن هُنا لا ينفعُ الله عزّ وجلّ إيمانهم، ولا تضُرُه معصيتهُم، بل على العكس،

هُمُ الخاسرون، لأنهم كُتب عليهم الضلال، والتيّه، والغضب، وكُتب عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ومسخوا قِردةً وخنازير.

ولذلك لم يطق نبي الله تعالى أن يتحمل مقالتهم، وعند وقوع الصاعقة عليهم قال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

نعم: هُم السفهاء ولكن لا يعلمون.

واسترحامًا من الله تعالى على لسان موسى واستغفارًا مخافة أن يعُمّ العقاب الصالحُ والطالحَ، استرسل في مقالته قائلاً: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ نعم: إن هو إلاّ ابتلاء وامتحان من الله تعالى لعباده في الأرض، يهدي به من يشاء ممن اتبع سبيله، ويُضل من يشاء ممن أعرض عنه.

ثم أعلن رسول الله موسى ولاية الله تعالى، وطلب المغفرة والرحمة، فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ ولإن الله تعالى هو الولي، فلا يملك أن يغفر أو يرحم إلاّ هو، وإن كان هناك من يرحم، إلاّ أنّهُ هو الرحمن الرحيم، وهو أيضًا خيرُ الغافرين سبحانه وتعالى.

ولما أخذت القوم – السبعين رجلاً – الصاعقة، قيل: أنها صاعقة الموت؛ وقيل: صاعقة الغشي، وكلا القولين جائز، وكانت للقوم آية حينما نظر بعضهم إلى بعض وهم في حال الصاعقة، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

فكان فضل الله تعالى على عباده، وهي عادته في خلّقه ودأبه، نظير سوء الأدب والكفران والجحود من خلقه، أن امتن عليهم وأحياهم لعلّهُم يشكُرُون، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قوله: ﴿لَعَلَّكُم﴾

من الله تعالى للترجي، أي: عساكم تشكُرُون، ولكن هيهات، فإن دأبهم الكُفران والإصرار على الشرك والتجبر والتكبر السيئ.

ولتخوف سيدنا موسى من قومه ولعهده بكفرانهم وجحودهم، وحينما قال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، حَرِصَ عليه السلام، أن يدوم هذا الفضل، وأن يُسرمد، فقال:

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

[الأعراف: ١٥٦]

قوله عليه السلام فى الآية: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فهذا القول مما نسخته الشريعة الغرّاء، وهو موافق لأهل الصدق والصلاح والتقوى.

وهو قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

[البقرة: ٢٠١، ٢٠٢]

اللّهُمّ آمين. مع النبيين والصديقين والشُهداء والصالحين، وحسُن أولئك رفيقًا.

نتق الله تعالى
الجبل فوق بني إسرائيل



. تتعدد المواقف المشمئزة، والتي تعتصر لها القلوب نظير العصيان المُعلن من هؤلاء اليهود في ذات الله تعالى.

وتتكرر منهم وقفاتهم لرفضهم الهُدى، وعدم قبوله والاعتضاض عليه بالنواجذ، وإن لم يكفِ هذا إلّا النجاة من غضب الله تعالى لكفى؛ ولكنها القلوب القاسية، والمعتمة.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

[البقرة: ٦٣ ، ٦٤]

الآية في معرض العلم والحكاية عن مواقف هؤلاء اليهود، الذين لا يملوا من الشر، ولا يملوا من الإعراض عن الهُدى؛ والآي في بيان عرض الواقعة لسيدنا رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله ﷺ، وهي تذكير له عما حدث منهم ويتكرر.

فهنا يذكر العلي جلّ وعلا، أنّهُ تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وآتاهم التوراة فيه هُدى ونور، فأبوا مخافة المشقة، فإن شاغلهم الشاغل هو العيش في رغد،

والتلذذ بما أودع الله فى الأرض من ملذات، وأن يتلذذوا بالنساء، ويحرصوا على الحياة، حرص المؤمن على مرضاة الله ورضوانه.

يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رُسله، وأخبر تعالى أنّهُ لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم ليُقروا بما عُهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وامتثال. (1)

وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة، بأن يفعلوها دون تذمُر أو توقف، وأن يحافظوا عليها أشدّ محافظة بجدّ وعزم قوي على تحمل مشاق ما أُوتوه، وأن يذكروا ما فيه بالعمل به وألاّ يتركُوه كالمنسي، فإنهم إذا فعلوا ذلك كان مرجوًا لهم أن يكونوا ممن اتقى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق، ثم لم يكن منهم إلاّ الإعراض، عن الميثاق بعد أخذه.

ولولا فضل الله عليهم ورحمته بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الخاسرين المغبونين بالمعاصي والتخبط فى الضلال. (2)

يقول الإمام الطبري:

قال أبو جعفر: الميثاق: المفعال من الوثيقة. إما بيمين، وإما بعهد أو غير ذلك من الوثائق.

ويعني بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ الميثاق الذي أخبر جلّ ثناؤه أنّهُ أُخذ منهم في قوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

(1) تفسير ابن كثير [ج1/ ص 127، 128].

(2) قصصُ الأنبياء – عبد الوهاب النجار [ص274، 275].

إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

[البقرة ٨٣ ، ٨٤]

الآيات التي ذكر معها، وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد، قال: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح، قال لقومه بني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمْرَهُ الذي أمركم به، ونهيهُ الذي نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذهُ بقولك أنت؟

لا والله. حتى نرى الله جهرةً حتى يطّلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخُذُوه! فما له لا يُكلِمُنا كما كلّمك أنت يا موسى فيقول: هذا كتابي فخُذُوه؟

قال: فجاءت غضبةً من الله فجاءهم صاعقة فَصعقتهم، فماتوا أجمعُون. قال: ثم أحياهُم اللهُ بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله! فقالوا: لا. قال: أي شيء أصابكم؟ قالوا: متنا ثم حيينا، قال: خذوا كتاب الله! قالوا: لا. فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم. هذا الطور، قال: خذوا الكتاب وإلّا طرحناه عليكم! قال: فأخذوه بالميثاق.

وقرأ قول الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا

حتى بلغ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

[البقرة: ٨٥]

قال: ولو كانوا أخذوه أوّل مرّة لأخذوه بغير ميثاق.[١]

انظر إلى قومٍ يُعرضون عن الهُدى، يأتيهم ربُهم بكتاب من عنده، فيه أوامره ونواهيه، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وحرامٌ وحلالٌ وجنةٌ ونار، وعبادة وطاعة؛ ومع ذلك تأبى نفوسهم الخبيثة إلّا التولي والإعراض؛ فقست قلوبهم، ولكن رحمة الرحمن الرحيم تسبق غضبه، سبحانه وتعالى.

يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى ورضي عنهم:

أن أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم بقوة، أي: بعزم واجتهاد، وأن يعملوا بما فيه، فأبوا. وردّوا الهدى الذي جاءهم به الله تعالى على يدٍّ نبيهم موسى عليه السلام.

فبإعراضهم وتذمرهم، ولعدم تحمل ما أُنزل إليهم مخافة المشقة، أُخذوا بالعصا.

فكان خيرًا لهم أن يطلبوا العون من الله تعالى، وأن يشمروا عن سواعدهم لعْلّ وعسى أن يُعينهم ربهم على ما هُمْ فيه.

ولذلك نهانا الشرع عن التشبيه بهم لعنهم الله، حينما قالوا: سمعنا وعصينا.

فهذه قمة الضلال، وقد تشبهوا بالشيطان حين أُمر بالسجود من قِبل الله عزّ وجلّ، فأبى فكان من الفاسقين المطرودين من رحمة الله عزّ وجلّ.

هكذا فعلت يهود.

---

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٦٢].

وإن دلّ هذا فإنما يدُلُّ أيضًا على أن نفوسهم لا تقبل الأمور برضا نفس، إلاّ أن يُجبروا، والواقع يُبين هذا ويؤكده، فإن نفوسهم لا تُزجر بالنظر، ولكن بالعصى تُزجر.

لم يتقهقروا من جنوب لبنان إلاّ بالمقاومة من حزب الله، الذي ندعوا الله تعالى أن يُباركه وينصره فحينما وجدوا الطرقْ على الرؤوس، ووجدوا هلكاهم تتساقط نتيجة الدفاع عن النفس والسرقة والنهب والاغتصاب، أعلنوا الانسحاب من جنوب لبنان من جانب واحد؛ فماضيهم وحاضرهم سواء.

ولن تعود لنا باقي أراضينا وكرامتنا وعزتنا إلاّ بالطرق على الرؤوس بالقوة، مثلما حدث فى السادس من أكتوبر، ذلك اليوم العظيم.

يقول الله تعالى:

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

[الأعراف: ١٧١]

هنا يصفُ ربُّ العزّة سُبحانه الموقف وصفًا دقيقًا بليغًا، فهنا يبين لنا أن الجبل نُتق فوقهم، أي: رُفع فوقهم كأنه ظُلّة، فهذا تشبيه بحال الجبل وقت رفعه فوق رؤوسهم، فكان كأنَّهُ سحابة أو غمامة أظلّتهم، وهذا أيضًا يُبين مدى صلابة قلوبهم القاسية كأنها الحجر، لا يرتدعوا إلاّ بالشيء العظيم فى القوة، والشيء القاهر الذي لا هوادة فيه ولا لين.

ولأن الآية في معرض الحديث بيانًا لنبينا محمد ﷺ، ليُخبره بماضيهم القاتم لكي يحذرهم، ولا ينخدع بخبثهم الدفين في نفوسهم، ولا بحُلو الكلام، الذي يحمل بين ثناياه السُم الذي لا شفاء منه.

يقول الإمام الطبري:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد إذ اقتلعنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظُلة غمام من الظلام، وقُلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوّة من فرائضنا وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهادٍ منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول: ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أُخذ عليكم فيه من المواثيق.

وساق أثرًا بسنده عن ابن عباسٍ، قال:

إني لأعلم خلق الله. لأي شيء سَجَدة اليهود على حرف وجوههم؛ لما رُفع الجبل فوقهم سجدوا وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافة أن يقع عليهم، قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنّة. (1)

هذا فضل الله عليهم، إذ تقبل سجودهم على حرف وجوههم، إذ أنّهُ سجود خوف الموت، لا سجود خوف من غضب الله، أو طمعًا في عفوه وابتغاء مرضاته، صدق الله العظيم فيهم إذ يقول جلّ وعلا:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾

[البقرة: ٩٦]

وعن أبي بكر بن عبد الله قال:

---

(1) تفسير الطبري: [ج٦/ ص ١٤٥].

هذا كتاب أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أُحلَّ لكم، وما حُرِّمَ عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشُر علينا ما فيها، فإن كان فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها قالوا: لا. حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضُها؟ فراجعوه مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عزّ وجلّ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل؛ قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خرّ كُل رجلٍ ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً – أي: خوفًا – من أن يسقُط عليه، فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودي يسجد إلاّ على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفعت بها العقوبة. قال أبو بكر:

فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبها بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلاّ اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغيرٌ ولا كبير تُقرأ عليه التوراة إلاّ اهتز ونغض لها رأسه. (١)

أخذوا التوراة على خوفٍ من الله، ثم ما إن تمكنوا وأُتيحت لهم الفرصة بعد ذهاب نبيهم حرّفوه.

هكذا حالهم، هذه هي طبيعتهم، هذه هي جبلّتهم التي جَبَلوا أنفُسَهُم عليها، فاستحقوا اللّعن، والمسخ، والغضب من الله تعالى عليهم.

لقد ختم الله تعالى آيتي سورة البقرة والأعراف بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

لم يقل المولى عزّ وجلّ على سبيل التمثيل مثلاً: لعلكم تُفلحون، لعلكم تهتدون؛ لماذا لم يقُل غير: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في معرض الوصف؟

---

(١) تفسير ابن كثير: [ج٢/ ص ٢٩٤]، وبآخر الأثر من قول أبو بكر؛ ذكره ابن كثير في كتابه: قصصُ الأنبياء [ص٣٥٦].

السبب واضح وظاهر وجلّي دون خفاء، وهو أن التقوى، وهي عبادة الله على خوف ابتغاء مرضاته، هي التي تنقصهم، وأي شيء بقي لهم يكون شفيعًا لهم عند الله عندما تنـــزل بهم النوازل.

وأي خير فعلوه، أو حاموا حوله حتى يُطبّعوا أنفُسَهُم عليه، لم يكن هناك من خيرٍ فعلوه، أو يُرجى منهم أن يكون!

معاذ الله قست قلوبهم، فطُبِـــعَ عليها، فلا ترى نورًا، ولا تهتدي إلى صراطٍ، ولا ترتجي خيرًا، ولا يُؤمل منها معروفًا، إن هم إلّا كالأنعام بل هُم أضلّ.

ولذلك قال عزّ مِن قائل عُقيب تعرض الآيات لذكر موقفهم هذا، قال:

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

[البقرة: ٦٤]

قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ثم أنتم هؤلاء قد أعرضتم من بعد ذلك الدرس العملي، فلم ينجع معكم، ولم تتوبوا إلى رشدكم، ولم ترجوا من الله العفو والفضل والمغفرة.

ولكن المُنعم أجزلّ عليهم عطاءه، وأفاض عليهم من رحمته التي تسبق غضبه، فقال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الهالكين الضالين.

صدق الله العظيم، إنّهُ هو البرُّ التواب الرحيم، مالك المُلك ذي الجبروت، تقدست أسماءه، وعزّ شأنه وجاهه.

موقف بني إسرائيل من أمرهم بذبح البقرة



لا شك من أن الإذعان لأمر الله تعالى من صفات المؤمنين الصادقين، لا سيما إذا كان الأمر على لسان نبيهم، وأفضل من ذلك إذا كان بين أظهرهم، وأعظم من ذلك إذا كان الناطق به الله عزّ وجلّ.

هكذا كان الموقف بالنسبة لبني إسرائيل، ما إن قيل لهم أمرٌ من قِبل الله عزّ وجلّ إلاّ أعلنوا الاعتراض والتذمر، والتسوف، والخوض في تفاصيل التفاصيل - هكذا تفعل أحفادهم، فإن قادة الدُويلة المزعومة (إسرائيل)، فإن قادتها ما إن نطقوا وتعهدوا بأمورٍ مُعينة، أولاً: لم يوفوا بها: ثانيًا: إذا دخلوا في مرحلة التفاوض، يخوضون في تفاصيل التفاصيل، هكذا دأب أسلافهم ودأبهم الموروث، تشابهت قلوبهم لعنهم الله، وما ذلك إلاّ لضياع الحقوق والعمل على تضييع الوقت، وأشياء غير ذلك وسبحان الله - فحينما وقع لهم أمرٍ من الأمور فكان حل لغزها إن جاز التعبير والذي خفي عليهم أمره، كان الحل أن يذبحوا بقرةً، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

[البقرة: ٦٧]

من المفترض أن هذا الأمر صادر مِن قِبل الله عزّ وجلّ، وبلّغ به نبيهم سيدنا موسى عليه السلام، وفي قصة ذبح البقرة هذه خمسة أمور تُبين سفههم، وقلة أدبهم مع خالقهم وهاديهم، وكذلك مع نبيهم عليه السلام.

الأوّل:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وقد ورد في قوله: ﴿هُزُوًا﴾ ثلاث قراءات:

الأولى: هُزُوا: والهزو - اللعب والسخرية، فعلى هذا يُراد من قولهم ردّ الأمر، واعتباره لعبًا بهم وسخرية منهم لمناسبة ذكره ذبح البقرة، وهو في ظنهم لا يُناسب ما هُمْ فيه، وقد حكى تأويل المعنى لهذه القراءة، الإمام الطبري والقرطبي.

الثانية: هُزُؤًا: بهمزة على الواو، أي: مهزوءًا بنا حيث تُجيبُنا بمثل ذلك، قاله الإمامان في تفسير الجلالين.

وهذا المعنى أيضًا مُحال على نبي الله تعالى أن يكون هو مُراده، فكيف يجعلهم مهزوءًا بهم، أي يجعلهم مسخُورًا منهم.

الثالثة: أيتخذُنا - بالياء، أي: قال ذلك بعضُهم لبعض، قرأها الجُحدري، وحكاه القُرطبي في تفسيره، فعلى هذه القراءة يتضح بيان ما قد سبق من القراءات، وهو أنّهُ حين أعلن نبي الله تعالى جوابه على ما سألوه، أنزلوه منــزلة السُخرية جهالةً منهم، فظنوا أنهم أُتخِذوا هُزُوًا، وبذلك يكونوا بين الناس مهزوءًا بهم، فأثار هذا الفهم الخاطئ الناتج عن جهل، تسآئل بعضهم لبعض، أيتخذنا نبي الله هُزُوًا، فأجابهم موسى عليه السلام بقوله والذي حكاه القُرآن: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

يقول الإمام القُرطبي:

في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله، ودين المسلمين، ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل. (١)

---

(١) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٨٤].

يقول الإمام الطبري:

وهذه الآية مما وبخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضًا نكثكم ميثاقي، إذ قال موسى لقومه، وقومهُ بني إسرائيل، إذا ادّارءوا في القتيل الذي قُتِلَ فيهم إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ والهزو: اللعب والسخرية، ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله فيما أخبرت عن الله من أمر أو: نهي هُزُو أو لَعِب، فظنوا بموسى أنّهُ في أمره إياهُم عن أمر الله تعالى ذِكرهُ بذبح البقرة عند تدارُئهم في القتيل إليه أنّهُ هازئ لاعب، ولم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبي الله، وهو يُخبرهم أن الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة.

فأخبرهم موسى إذ قالوا له ما قالوا: إن المخبر عن الله جلّ ثناؤه بالهُزُء والسُخرية من الجاهلين، وبرّأ نفسه مما ظنوا به من ذلك، فقال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ يعني: من السُفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل. (١)

وأمّا ما كان من سبب ذكر اختلافهم في القتيل، وجواب نبيهم بأن أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ ما رُوي عن بني إسرائيل، أنه كان فيهم من قَتَل رجُلاً غيلةً (٢) بسبب مُختلِفٍ فيه؛ وطرحه بين قوم، وكان قريبه، فادَّعى به عليهم، وترافعوا إلى موسى الطَّيْلا فقال له القاتِلُ: قَتَل قريبي هذا هؤلاء القوم، وقد وجدته بين أظهُرِهم، فانتفوا من ذلك، وسألوا موسى الطَّيْلا أن يحكم بينهُم برغبة إلى الله تعالى في تبيين الحقّ لهم؛ فدعا موسى الطَّيْلا رَبَّهُ تعالى؛ فأمرهم بذبح بقرةٍ وأخذ عضوٍ من أعضائها يُضربُ به الميتُ فيحيا فيُخبرهم بقاتِله؛ فسألوا عن أوصافها، وشدَّدوا

---

(١) تفسير الطبري: [ج١/ ص ٤٧٨، ٤٧٩] مع بعض التصرف.

(٢) قوله: غيلةً: هو الأخذ على غِرةٍ.

فشدَّد الله سُبحانه عليهم حتى انتهوا إلى صفتها المذكورة في القُرآن فطلبوا تلك البقرة فلم يجدوها إلاّ عند رجل - وما جاء في الآثار غُلام - بَرٌّ بأبويه أو بأحدهما؛ فطلب منهم فيها مَسْكها [1] مملوءًا ذهبًا، فبذلوه فيها فاستغنى ذلك الرجُل بعد فقره، وذبحوها فضربُوه ببعضها، فقال: فلان قتلني، لقاتله، [2] قاله ابن العربي.

فقال هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتًا، فلم يُعط من ماله شيئًا، فلم يورّث قاتلٌ بعد. [3]

هذا ما جاء في سبب ورود ذكر ذبح البقرة، وما جاء في شأنها من أخبار ما هي إلاّ كما قررت علماؤنا روايات مأخوذة عن الإسرائيليات.

وفي ذلك يقول الإمام ابن العربي:

كثُر استرسال العلماء في الحديث عنهم في كل طريق - يُريد بني إسرائيل - وقد ثبت عن النبي ﷺ أنّهُ قال: [حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج]. ومعنى هذا الخبر الحديث عنهم بما يُخبرون به عن أنفسهم وقصصهم لا بما يُخبرون به عن غيرهم؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرةٌ إلى العدالة والثبوت إلى منتهى الخبر، وما يُخبرون به عن أنفسهم فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه؛ فهو أعلم بذلك.

وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قولُه؛ ففي رواية مالك عن عمر رضي الله عنه أنّهُ قال: رآني رسول الله ﷺ وأنا أُمسِكُ مُصحفًا قد تشرَّمت حواشيه، فقال: ما هذا؟ قلتُ: جزءٌ من التوراة؛ فَغضِبَ وقال: [والله. لو كان موسى حيًا ما وَسِعَهُ إلاّ اتباعي]. [4]

---

(١) قوله : مَسْكها: أي جلدها.

(٢) أحكام القُرآن لابن العربي [ج١/ ص٢٢، ٢٣].

(٣) رواه ابن أبي حاتم، هكذا ذكره ابن كثير في تفسيره [ج١/ ص ١٣١].

(٤) أحكام القُرآن لابن العربي [ج١/ ص ٢٣].

وهذه أيضًا وصمة في جبين هؤلاء القوم، فإنهم لا يُأمن لهم جانب، ولا يُصدق لهم حديث، لأنهم أهلُ تحريف، وأهلٌ للأهواء، وهذا سيأتي الكلام عليه في موضعه من مادة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وما ذكرناه ما هو إلاّ على سبيل الاستئناس بما ورد في شأن قصة البقرة، وهو لا يَضُر، ولا يترتب عليه مفسدة، وهو كما ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره والطبري والقُرطبي على سبيل الاستئناس لا الشاهد.

فالمُسْلّم به ما قاله الإمام ابن كثير:

والظاهر أنها مأخوذة من كُتب بني إسرائيل، وهو مما يجوز نقلُها، ولكن لا تُصدق ولا تُكذب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلاّ ما وافق الحق عندنا والله أعلم. (1)

نعُدّ لما نحن بصدده من قول بني إسرائيل لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا القول لا يصدِّرُ إلاّ من قلوب غُلف، وأعين عُميٍّ، إذ كيف يجترؤا على مثل هذه الأقوال وقد شاهدوا صدق مقال نبيهم، وعاينوا النور المرتبط بالأرض حال كلام الله عزّ وجلّ له، وكذا سمْعهم كلام الله تعالى له، فكيف يجُز لهم أن يتفوهوا بمثل ذلك؟

اللّهُمَّ هذا من سوء أدبهم، وعدم رسوخ عقيدة التوحيد في قلوبهم، وميلهم إلى الأهواء، وزيوغ أنفسهم إلى الخلود إلى المادة.

الثاني:

قول بني إسرائيل، وهو ما حكاهُ القُرآن عنهم في طلبهم وصف البقرة وَتَعيُّنِها بصفة خاصة.

شدَّدوا على أنفسهم، فسئلوا عنها أبِـكر - صغيرة، أم فارض - مُسنة؟ وانتقلوا إلى أدق من ذلك، سألوا عن لونها.

---

(1) قاله ابن كثير في تفسيره [ج1/ ص 133].

فشدَّدوا على أنفسهم أكثر من ذلك، فطلبوا أن يُبين لهم ما هي لأجل تشابهُ البقر عليهم، واستثنوا بالمشيئة.

فأعلمهم نبيهم أنها لا مُذلّلة فتُثير الأرض، ولا تسقي الحرث، خاليةً من العيوب، سُبحان الله، كل هذا التشديد على النفس وقد أرهقوا أنفسهم بما لا طاقة لهم به، فشدّد الله عليهم، ولو ذبحوا أية بقرة لأجزأهم كما قال بذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى:

الثالث:

قولهم:

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾ [البقرة: ٧٠]

لقد أراد الله تعالى خيرًا ببني إسرائيل إذ وفقهم إلى القول بمشيئته تعالى، وهكذا أخرجهم من دائرة الحوّل والقوة بأنفسهم، إلى الحوّل والقوة بالله، حيث هو الهادي لما يشاء بإذنه وتوفيقه.

فعاملهم الله بحلمه بعد عِلمه، ورحمته قبل غضبه، ولطف بهم، فهداهم إلى ما أمرهم بعد ما شدّدوا على أنفسهم.

الرابع:

قولهم:

﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]

سبحان الله. وعجبًا لهؤلاء القوم الضالّين، ألم يأتهم نبيهم بالحق وهي رسالته، حتى يُشككوا في بقرة، وهي لو قيست بالإتيان بالرسالة من قِبل الله عزّ وجلّ لم تكن شيئًا.

ومن ثمة شيءٌ آخر. هل قال لهم نبيهم عندما عَلِمَ بأمر القتيل أن يذبحوا بقرة، هل قال هذا من تلقاء نفسه؟

ألم يقل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ فالكلام إذن صادر عن أمر الله تعالى، وليست عن موسى ﷺ، ومع ذلك عموا عن الحق، وقالوا له ما قالوا وكأنّهُ هو الآتي بهذا الأمر من تلقاء نفسه.

فهل علموا أن ردّهم أمر موسى هو ردّهم لأمر الله؟

هل علموا أن سفهِهِمُ الذي قادهم لأن يقولوا ما قالوا، خطأ في جناب الله تعالى لأنّهُ هو الآمِرُ بذلك!؟

سبحان الله. قومٌ عُمي، قلوبهم غُلف، نفوس مريضة، لا ترى النور فتتبعه، ولا علمت الحق فعملت به، فما هُم إلاّ كالأنعام يأكلون ويشربون، بل هُم أضل.

الخامس:

نتيجة تعنتهم وتشدُّدهم؛ جاء ما قاله الله عزّ وجلّ:

فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ [البقرة: ٧١]

سبحانك يارب على حلمك على هؤلاء القوم السُفهاء الضالّين عن الحقّ البيّن.

انظر إلى بلاغة القُرآن: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ﴾ أي: وما همّوا بالإسراع والاستجابة لأمر الله تعالى، في ذبح أي بقرة، طلبًا لرضاء الله تعالى، واستكانةً إليه لعلّهُ يُصلح لهم بالهم وأعمالهم.

ولولا أن تداركتهم رحمة ربهم ما فعلوا ما أُمِروا به.

ثم قال الله عزّ وجلّ:

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

[البقرة: ٧٢، ٧٣]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، لم يقتلوا جميعًا هذه النفس، بل أحدهم، ولكن الإشارة إلى الجميع لحدوث الموعظة والعبرة، وطلب الصفح والمغفرة لكي لا يأخذهم الله بالذنب، وقد كان ذلك فيهم.

وقوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: اختلفتم ﴿فِيهَا﴾ أي: في النفس التي قتلها قريبٌ لها، ورمى بها القوم ظُلمًا وزورًا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: والله مُطلّعٌ على ما في بواطن نفوسكم وما فيها تكتمون، ونسبة الفعل إلى الجميع حتى يتعظوا، ويُحدث لهم تقوى، بأن يحذروا من مثل هذه الأفعال، فإن الله يعلم سركم وجهركم، وما أسررتم وما أعلنتم.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا أيضًا صادرٌ عن الله عزّ وجلّ لا عن موسى، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾؛ ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل، ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض جُزء من أجزاء البقرة، والله أعلم بأي جزء كان قد مس القتيل، فأحياه الله تعالى، فأعلم القوم بمن قتله، ثم مات من فوره.

وهذا مثلٌ حي، وتجرُبة عملية لإحياء الله الموتى بعد مفارقة الروح الجسد، وأن ذلك آيةٌ من آياته سُبحانه؛ ولماذا كان ذلك؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا اللفظ الذي ختم الله به القصة، ومن ثمَّ الآية، يُبين أن القوم لا يعقلون شيئًا ولا يفقهون.

وهو مُناسب لما صدر منهم في ردّهم أمر الله عن طريق نبيه، وإيذائهم إياهُ بالقول الجارح، والذي لا يصدُّر إلّا من أفواه لا تعرف لنبيهم قدره عند مُرسِله.

ثم يفضح الله تعالى أمر بني إسرائيل في عدم الاتعاظ، وكذا قبول الحق والتمسك به، وكذلك تبصرهم بآيات الله الجليّة، والتي من المفترض فيهم لا تزيدهم إلّا إيمانًا وتثبيتًا، وعكسًا من القول والفعل فعلوا.

يقول الله تعالى:

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

[البقرة: ٧٤]

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل، وتقريعًا لهم على ما شاهدوا من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كُلِه، فهي كالحجارة التي لا تلينُ أبدًا، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال:

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

[الحديد: ١٦]

ثم قال:

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباسٍ:

لما ضُرِبَ المقتولِ ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟

قال: بنوا أخي قتلوني؛ ثم قُبِـض، فقالَ بنو أخيه حين قبضهُ الله: والله ما قتلناه، فكذّبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني أبناء أخي الشيخ ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية، بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا عِلاج للينها، أو أشدّ قسوةً من الحجارة، فإن مِن الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبـطُ من رأس الجبل من خشية الله.[1]

لم يؤثر القول الطيب في نفوس بني إسرائيل، وكذلك لم تزيدهُمُ الآيات إلاّ طُغيانًا وكُفرًا.

فى الوقت الذي حدث فيه قتل الشيخ، واستغاثتهم نبيهم بعدما ضاقت عليهمُ الأرض بما رحُبت، وأمرهم ربهم بذبح البقرة، وصدر ما صدر منهم في شأن البقرة، وهدايتهم ربهم إلى سبيل الرشاد في ذبحها، ورؤيتهم رأي العين القتيل يحيا بإذن الله، وبسبب ضربه ببعض أجزاء البقرة، فإن ذلك الأمر وإن كان فيه الأخذ بالأسباب، إلاّ أن الأمر جميعه مُعجزةً.

فلم يزدهم ذلك كله إلاّ تمردًا وطغيانًا وكُفرًا، ولا يعلم عاقبة أمر هؤلاء اليهود إلاّ الله وحده، أشرًا أُريد بهم، أم أراد بهم ربهم رشدًا.

---

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٣٧].

فقست قلوبهم، فكانت في صلابة الحجارة وقسوتها، وكذلك حدّتها، وكذا موت الإحساس بداخلها.

فلا غرابة إذًا إذا رأيناهم يقتلون بوحشية، وبضراوة الوحوش، فالحاضر شاهد عليهم، يقتلون أطفالاً رُضعْ فى الأرض المسلوبة المغتصبة - فلسطين - ولا تأخذهم رأفة ولا رحمة بالشيوخ، ولا يرحموا دموع النساء والفتيات، ألا لعنة الله عليهم، قبح الله وجوه قومٍ كافرين.

لا يرعون إلاً ولا ذِمة، ولا تأخذهم بالضعفاء رحمةً ولا شفقة.

فإذا علمنا أنهم أناسٌ بلا قلوب بشرية، بل قلوب حيوانية، لا تُقيد أفعالهم قيود شرعية، ولا تحكم تصرُفاتهم أخلاقيات ومبادئ دينية، حتى صارت قلوبهم أشدّ قسوةً من الحجارة الصماء؛ بل إن الحجارة فيها فائدة، ومنها المنافع.

وفي ذلك جاء التعريف الدقيق في سطور القُرآن الكريم، وبين طيات صفحاته، فجاء في ذلك ثلاث تعريفات:

الأوّلى:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ﴾ هذه منفعة جعلها الله تعالى فى الحجارة، أن تنفجر فيخرُج منها الماء يسيل عذبًا سائغًا للشاربين، فسبُحان الله العلي القدير، والذي يقول للشيء كن فيكون.

الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ﴾ سُبحان الله؛ يُخرج من الحجارة الماء، وقد حدث لليهود أنفُسهم أن ضرب نبيهم الحجر بعصاه، فانشق بإذن الله اثنتا عشرة عينًا، قد عَلِمَ كُل أُناس منهم مكان شُربه من العيون الاثنى

عشر، إلّا أنهم لم يتذكروا مقالة ربهم فيهم بتشبيه قلوبهم بالحجارة وكنّها بأنها أشدّ قسوة، فما عملوا لطاعة الله وإرضاءه، بل ظلموا وتكبروا وعصوا، وانقلبوا خاسرين.

الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يا سُبحان الله، الحجارة تهبط وتندك رهبة من الله وإعظامًا لجلاله عزّ وجلّ، وتصيرُ تُرابًا من خشيته سُبحانه وتعالى.

إلّا قلوبكم يا مسخ القِردة والخنازير؛ لم تلِن لِذكر الله، ولم تخشع لله، وقد حدث لنبيكم موسى ﷺ، حينما تجلّى ربّهُ للجبل عندما سأل ربّهُ الرؤيا، فلما تجلّى ربّهُ للجبل جعلهُ بسبُحات وجهه دكًا تُرابًا مع صلابته وشماخته.

فلم ينجع ذلك بَعدُ فيكُم، ولم تتذكروا أن الجبل صار تُرابًا ذرات من خشية الله، ومهابةً لجلال عظمته، سُبحانه وتعالى عما يعملُ الظالمون.

ولذا قال ربُّ العزّة سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعملوا ما شئتم، فإني بما تعملون عليمٌ به، بصيرٌ به، سميعٌ له، وإن رُسُلنا لديكم يكتبون، ولأعمالكم مُحصون، وبها تُجازون، إن كان خيرًا فالجنة جزاءً وفاقًا، وإن كان شرًّا فالنار عذابًا، ويخلُد فيها المرءُ مُهانًا ذليلاً خزيانًا.

فإن القلوب لَتلين لِذكر الله، حتى تصيرُ ألين من الزُبد، وإنها لتصدأ، وجِـلاء صَدأها ذِكرُ الله عزّ وجلّ.

فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ

[الزمر: ٢٢]

أخذ اللهُ الميثاق على بني إسرائيل وبعثهُ اثنيْ عشر نقيبًا

يُذَكِّرُنا ربُنا عزّ وجلّ بمواقف بني إسرائيل المُخذلة، والتي لا تُقيم للحق بنيانًا، ولا تُعلي له هامة.

فهُم على دأبهم من الخُذلان والنكوص على الأعقاب، وهُم على عصيانهم قائمون، وعلى التمرد والتذمر موُفون.

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

[المائدة: ١٢]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فالميثاق هو الذي ذُكر بعد في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فما وفوا بذلك العهد ونقضوه كعادقم ودأبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ أي من شعبهم وأهلهم وذويهم، فهم بذلك ليس بغرباء عنهم، وذلك أدعى في إطاعتهم، وأنجع في علاجهم، فما أغنى ذلك كله.

وقوله: ﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ النقيب: شاهد القوم وضمينهم، والنُقباء: الأُمناء على قومهم.

يقول الإمام ابن كثير:

يعني عُرفاء على قبائلهم بالمبايعة، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقد ذكر ابن عباس عن ابن إسحاق - أي بطريق ابن إسحاق - وغير واحد، أن هذا لما كان تَوجُه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأمر بأن يُقيم نقباء من كل سبط نقيب [1].

وهؤلاء الإثنى عشر نقيًا هُم:

رواية محمد بن حبيب في (المُحَبَّر) [2]:

١- من سبط روبيل: شموع بن ذكور.

وفي رواية عنه ذكرها القُرطبي في تفسيره [3]:

- من سبط روبيل: شموع بن ركوب.

وفي رواية محمد بن إسحاق ذكرها ابن كثير في تفسيره [4]:

- من سبط روبيل: شامون بن ركون.

---

(١) تفسير ابن كثير: [ج٢/ ص ٣٩].
(٢) المُحَبَّر لأبي جعفر محمد بن حبيب [ص ٤٢٥ ، ٤٢٦].
(٣) تفسير القُرطبي: [ج٣/ ص ٢٢١١].
(٤) تفسير ابن كثير: [ج٢/ ص ٣٩].

٢- ومن سبط سمعون: شرفوط بن حورى.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط شمعون: شوقوط بن حورى - ولعْلّ هذا تحريف، والأوّل أرجح.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط شمعون: شافاط بن حرري.

٣- ومن سبط يهوذا: كالب بن يوفنا.

وفي رواية لابن جرير عن ابن إسحاق: كالب بن يوقنا؛ وعن مجاهد: كلاب بن يوفنا؛ ولابن عباس: كلاب بن يوفنا، وللسُدّي: كالوب بن يوفنة؛ ولعطية هو العُوفي: كالوب؛ وأخرى لابن عباس: كالوب بن يوفنة؛ ولقتادة والربيع، وبه قال ابن جرير: كالب.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط يهوذا: كالب بن يوقنا.

وفي رواية ابن إسحاق، وقد ذكرها ابن جرير أيضًا.

- ومن سبط يهوذا: كالب بن يوفنا؛ وهذا هو الأرجح.

٤- ومن سبط إساخر: يغوول بن يوسف.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط الساحر: يوغول بن يوسف.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط أتين: ميخائيل بن يوسف؛ والأوّل أرجح.

٥- ومن سبط أفرائيم بن يُوسُف عليه السلام: يوشع بن نون - فتى موسى.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط أفرائيم بن يوسف: يوشح بن النون.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط يوسف، وهو سبط إفرايم: يوشع بن نون؛ والأوّل أرجح.

٦- ومن سبط بنيامين: يلطى بن روفوا.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط بنيامين: يلظى بن روقو.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط بنيامين: فلطم بن دفون؛ والأوّل أرجح.

٧- ومن سبط زبلون: كدابيل بن شوذى.

وفي رواية القُرطبي.

- ومن سبط ربالون: كرابيل بن سودا.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط زبولون: جدي بن شوري؛ والأوّل أرجح.

٨- ومن سبط منشا بن يوسف: كدى بن سوسى.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط منشا بن يوسف: كدى بن سوشا.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط منشا بن يوسف: جدي بن موسى؛ والثاني أرجح.

٩- ومن [1] سبط دان: عمابيل بن كملى.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط دان: عمائيل بن كسل.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط دان: حملائيل بن حمل؛ والأوّل أرجح.

١٠- ومن سبط أُوشير: شتور بن ميخاييل.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط شير: ستور بن ميخائيل.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط أشار: ساطور بن ملكيل؛ والأوّل أرجح.

١١- ومن سبط نفثالي: يحيى بن وقس.

وفي رواية القُرطبي:

(١) في المطبوع في (المُحَبَّر) قوله: وممن، وهو خطأ، ولعلّه تحريف.

- ومن سبط نفتال: يوحنا بن وقوشا.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط نفثالى: بحر بن وقس؛ والأوّل أرجح.

١٢- ومن سبط جاذ: كوآءل بن موخى.

وفي رواية القُرطبي:

- ومن سبط كاذ: كوال بن موخى.

وفي رواية ابن إسحاق:

- ومن سبط يساخر: لايل بن مكيد؛ والأوّل أرجح.

قال القُرطبي [1]:

فالمؤمنان منهم يوشع وكالب، ودعا موسى عليه السلام على الآخرين، فهلكوا مسخوطًا عليهم؛ قاله الماوردي، وبه قال محمد بن حبيب في المُحَبَّر [2]، إلاّ أنَّهُ قال: كولب، بدلاً من كالب، وهذا غير المشهور، أهـ.

بأسلوب المغايرة والتفرقة، والفخر أيضًا والاعتزاز بسلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ تناول علماؤنا الأجلاء ذكر النقباء الاثنى عشر الذين أرسلهم رسولنا سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين، الذين أرسلهم إلى الملوك والأمراء على الأمصار، بدعاية الإسلام، فكانوا خير رُسل من خير رسول، فبلّغوا، وكانوا على ما كُلِفُوا أُمناء رضي الله تعالى عن صحابته أجمعين آمين، أهـ.

---

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٢١١].
(٢) المُحبَّر [ص ٤٢٦].

نعد إلى ما قد بدأناه؛ من أنَّ هؤلاء الاثني عشر نقيبًا لم يوف منهم إلاّ اثنان فقط، وكان كل نقيب منهم يمثل قومه وعشيرته، وليكون شاهدًا بأعينهم حينما ينقِلُ لهم، ولسانهم حينما يتكلم.

إلاّ أنهم خانوا العهد والميثاق، ولم يفِ منهم غير اثنان كما قُلنا وهما: يوشع بن نون عليه السلام، وهو فتى موسى والقائم بأعمال النبوة بعد وفاته عليه السلام؛ والثاني: كالب بن يوفنا رحمه الله ورضي الله عنه.

ولذلك عاب عليهم ربُنا عزّ وجلّ بنقض الميثاق، وإيتائهم ما يُعابون عليه بعد غمرهم بنعم الله تعالى، وشمولهم بعنايته ورحمته وحلمه وعفوه، وبعد أن فاضت عليهم أيادي نِعَمهَ، فقابلوا النعم بالجحود، والشكر بالكفران، ولم يجدهم ربهم فى المواطن التي من المفترض أن يكونوا متلبسون فيها بالطاعة.

وما يزيدُك حُزنًا وألمًا، أنهم سُرعان ما ينقضون المواثيق، ويخونون العهود، ولم يتذكروا أو تناسوا أمر الله لهم: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ هذه المعية التي لم يتمسكوا بها، ولم يعملوا بها ولها، فَمن مِنا يرفض معية الله عزّ وجلّ ويتركها وراء ظهره.

اللّهُمَّ إلاّ أن يكون سفيهًا، أو جاهلاً، أو معتوهًا، أو فاسقًا، أو ظالمًا لنفسه، أو استغنى بالمخلوق عن الخالق، وهو على بينة بذلك، أو أخذ من الله عهدًا بذلك.

فليس من ثمة تفسير لمثل هذه الأمور إلاّ قولنا: أنهم جُهلاء فاسقون، ركنوا إلى الدُنيا وأحبوها وآثروها على ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، وكرهوا المشقة في سبيل الله.

فما كان من الله تعالى إلاّ أن عاقبهم بأشد العذاب والعقاب، فما لانت قلوبهم وما استكانوا لربهم، وما أنابوا له، نعوذ بالله من شرور أنفُسِنَا، ومن سيئات أعمالنا، نبرأ إليه من كل قول وعمل يُوجب غضبه وسخطه، اللّهُمَّ آمين.

أمر الله عزّ وجلّ بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة



يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

[المائدة: ٢٠ : ٢٦]

لفظة: ﴿إِذْ﴾ فى القرآن تتكرر كثيرًا، ومعناها: واذكر يا محمد. إذ الخطاب له ﷺ من قِبل الله عزّ وجلّ، واذكر يا مُحمد. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ وكل موضع يجري مجرى هذا النمط.

يقول الإمام الطبري:

وهذا أيضًا من الله تعريفٌ لنبيه محمد ﷺ قديمًا؛ بتمادي هؤلاء اليهود في الغيّ وبُعدهم عن الحقّ، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدّة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتهم إلى الرشاد، مع كثرة نِعم الله عندهم، وتتابع أياديه وآلائه عليهم[1]؛ مُسليًا بذلك نبيه محمدًا ﷺ عما يحلّ به علاجهم وينـــزل به من مُقاساتهم في ذات الله.

يقول الله – تعالى – له ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن الذهاب عن الله، والبُعد من الحقّ وما فيه لهم الحظ فى الدُنيا والآخرة من عادتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم، وتَعزّ بما لاقى منهم أخُوك موسى ﷺ، واذكر إذ قال موسى لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: اذكروا أيادي الله عندكم وآلاءه قِبَلكم. [2]

وقول كليم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فيه تودّد وتلطف بهم ورحمة، إذ جعل بادئ ذي بدء ذِكر نعم الله تعالى، لعَلّ ما يعرِضُه بعدْ، ينال استقبالهم له بحُسن أدب مع خالقهم، وحُسن آداء.

ونعمه تعالى عليهم كثيرة، ولا تُحصى إذا قيست بعصيانهم وتمردهم وتذمرهم وإعلان العصيان، واشتراطهم على خالقهم عند كل أمرٍ لهم فيه الخير كُل الخير.

---

(١) قوله: عليهم: هكذا بصيغة الخطاب للجمع، وهذا ما يقتضيه السياق، وما جاء فى المطبوع بلفظ: عليه – على الإفراد، وهو خطأ، ولعلّه تحريف.

(٢) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٢٢٩].

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ هذه مِنَّةٌ عُظمى إذ كُل الأنبياء من بعد أبيهم إبراهيم عليه السلام، وعمِّهم إسماعيل عليه السلام، كُلهم من بني إسرائيل، وهو إسحاق عليه السلام.

إلاّ ما كان من ختم رسالة التوحيد، والتي شَرُفت بها الأرضُ مع السماء، مِن بَعث خيرهم محمدًا ﷺ.

يقول الإمام ابن كثير:

أي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لَدُن أبيكم إبراهيم إلى مَن بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهُمُ الأنبياء يدعون إلى الله، ويُحذِرُون نقمته، حتى خُتِمُوا بعيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرُسُل على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهم - السلام وهو أشرف مِن كُل مَن تقدمهُ منهم ﷺ. (١)

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ ليس المراد بقوله: ﴿مُّلُوكًا﴾ أي: الملك الذي يحكم البلاد والأمصار، بلى، ولكن المراد منها، أنّهُ جعلكم ملوك أمركم، بعد أن كنتم مملوكين مسترقين مستعبدين من قِبل فرعون لعنه الله.

وأيضًا المراد منها المعنى المعنوي، إذ أغناكم الله بعد فقر، وأعزكم بعد ذُلّ، وأعطاكم من غير مسألة، ورفعَ شأنكم، بإرساله نبيه لكم.

وفي الأثر الذي أخرجه مُسلم، عن أبا عبد الرحمن الحُبُليِّ يقول: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما، وسأله رجلٌ، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم.

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٤/ ص ٤٤].

قال: ألك مسكن تسكُنه؟ قال: نعم.

قال: فأنت من الأغنياء.

قال: فإن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك. (1)

فهذا يدّلُ على أن من أنعم الله تعالى عليه بهذه النعم، فهو بين اثنين؛ إما من الأغنياء، وإما من الملوك.

وهكذا أراد الله تعالى من معرض الامتنان على عباده اليهود على لسان نبيه موسى عليه السلام؛ ولا تزال نعم ربُّنا على بني إسرائيل تترا.

يقول ربُّ العزّة سُبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما - في قوله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ قال: جعل منكم أنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قال: المرأة والخادم.

وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ [المائدة: ٢٠].

قال: الذين هُم بين ظهرانيهم يومئذ. (2)

ولا يزال فيض الباري على عباده يسيل وينهمر؛ فهو يُذّكرهم أيضًا بما آتاهم من فضل الله تعالى، إذ عفا عنهم لسوء أدبهم في سؤالهم رؤية ربهم، وكذلك عبادتهم العجل لسفههم، فتاب الله عليهم، وأنزلّ عليهم المن والسلوى رزقًا طيبًا من لدُّنه، ومن قبل هذا كله نجاتهم من آل فرعون قبحه الله، وإنقاذهم من السحرة بين يديه، وسوْمهم سوء العذاب، فذبّح أبنائهم، واستحيّ نسائهم، فما بعد ذلك.

---

(1) رواه مُسلم في صحيحه [ج١٨/ ص ١٤٦].

(2) رواه الحاكم في مستدركه [ج٢/ ص ٣٤١] وقال: هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين و لم يُخرجاه؛ وقيل فى التلخيص: على شرط البخاري ومُسلم.

ثم يسترسل نبيهم فى القول متلطفًا خائفًا على وجلْ، لعلمه بتذمرهم، ولعلمه بخيانتهم للعهود، ونقضهم للمواثيق، وعدم إطاعته طاعة من يُريد رضى ربه، وإعلانهم المستمر للعصيان، وجعْل الشروط دائمًا قبل إنفاذ ما أُمروا به؛ ياسُبحان الله.

يقولُ ربُّ العزّة سُبحانه، ناطقًا به نبيهم عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إلى هُنا ما زال الأمل فى الطاعة قائم، و لم يُغادر قلب نبيهم، وحثهم على السمع والطاعة، خوفًا عليهم من إنزال العقاب بهم فأمرهم بدخول الأرض المقدسة، وهي أرض فلسطين، وقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لم يقل ربّ العزّة: (التي كتب الله عليكم) وإلاّ فإنهم يدخلونها لا محالة؛ ولكن الإعلام بأن الله قد كتبها لهم، أي: أمركم بدخولها: وعِلة الأمر ستجيءُ بعد.

ثُم يعلن نبي الله موسى عليه السلام ما يضيق به صدره من الخوف، لدأبهم في العصيان، فيقول: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ معرض الحديث يُبين أن سبب أمره بالدخول فى الأرض المقدسة، أن هناك قتال، وهو بأمر الله، فيُصور القُرآن الحدث المتوقع من بني إسرائيل تصويرًا دقيقًا، فيقول: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ الارتداد هو الرجوع القهقري خوفًا، فإذا ما كان حرصًا على الحياة، ومخافة الموت، فكان الرجوع إلى الخلف بالأدبار، أي: يتقهقرون للخلف ووجوههم للأمام، ويرجعون بظهورهم والتي كنّى عنها بالأدبار، وهو يُبين مدى حرصهم على الحياة، وخوفهم من الخوض في معارك الجهاد، والتي تكون جائزتها إحدى الحُسنيين، إما النصر والفوز والغنائم والرجوع والنفس سالمة، وإما القتل والشهادة في سبيل الله، وذلك جزاؤه الجنة ولا محيص عنها.

ولذلك كان الجزاء الوفاق، فقال: ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ الانقلاب: هو العوْدّ

إلى الأهل والوطن، ﴿خَٰسِرِينَ﴾ الدُنيا والآخرة، الدُنيا لعدم السمع والطاعة في الله والجهاد في سبيله، فيعقُبه الذُّل والعار لا محالة، وأما الآخرة فجزاء ذلك الخلود في النار، وبذلك يكون الخُسران المبين.

ومع ذلك كله، لم يؤثر فيهم كلام نبيهم وإرشاداته، ومواعظه وتذكيره بعاقبة مخالفة أمر الله.

وقد وقع العصيان منهم كعادهم؛ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ يا سُبحان الله، بدلاً من أن يتوكلوا على خالقهم، وكان خيرًا لهم، وبدلاً من أن يستعينوا بالله، ويتقربوا إليه بنبيهم، خالفوا كعادهم، ولأهم أهلُ مادة، قاسوا أنفسهم بالجبارين قاطني الأرض المقدسة، فعرفوا قدر أبدالهم، وتركوا أنفسهم للأهواء، ولم يغمسوها في بحور الإيمان لكي يُلبِسُوها ثياب التقوى، ويصيروا في إهاب المؤمن التقي القوي، فلا تضعُف لهم شوكة ولا ينثني لهم بنان.

ولكنهم اشترطوا على خالقهم، وأعلموا بذلك نبيهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ ثم ماذا بعد؟ ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وقد امتلأت سطور كُتب التفاسير - بعض التفاسير - بأساطير وخُرافات، وأباطيل روت، وبينت أن الجبارين ذات أجسامٍ شديدة عظيمة هائلة، على غير عادة الخلق، وأقوال مثل هذه وغيرها في صفتهم، وقد قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قصصُ الأنبياء:

وكل هذه هذيانات وخُرافات لا حقيقة لها؛ وأن الملك - أي ملك الجبارين بالأرض المقدسة - بعث معهم عِنبًا كل عِنبة تكفي الرجل، وشيئًا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح.

ثم قال: وذكروا هاهُنا أن عُوج بن عُنق خرج من عند الجبارين إلى بني

إسرائيل ليهلكهُم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراع. هكذا ذكره البغوي وغيره وليس بصحيح. [1]

قلت:

فعلى هذا يكون طول الرجل فيهم (٣٣٣٣ مترًا) تقريبًا، فهل هذا يُعقل أو يُصدق؟ فهل هذا يُصوغهُ العقل؟

وقال في التفسير:

وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين ههنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عِظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأن منهم عُوج بن عُنق [2] بنت آدم ﷺ، وأنّهُ كان طوله ثلاثِ آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثون ذراعًا وثُلث ذراع، تحرير الحساب.

وهذا شيءٌ يُستحىً من ذِكرُه، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقُص حتى الآن]؛ ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا، وأنّهُ كان ولد زانية، وأنّهُ امتنع عن ركوب سفينة نوح، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب وافتراء.

فإن الله تعالى ذكر أن نوحًا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال:

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ [نوح: ٢٦]

وقال تعالى:

فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾

[الشعراء: ١١٩، ١٢٠]

---

(١) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٣٣٤].

(٢) قوله: عُوج بن عُنق بنت آدم ﷺ: هذا خطأ واضح، وتحريف بيّن وهو دأبهم فكيف يؤنث في اللغة ما ورد اسمه على صفة التذكير، فلا عجب في أهل جهل.

وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]

وإذا كان ابن نوحٍ الكافر غَرِقَ، فكيف يبقى عُوج بن عُنق وهو كافر وولد زانية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع؛ ثم في وجود رجلٌ يُقال له: عُوج بن عُنق نظر، والله أعلم. (١)

وقيل:

وقال العلاّمة بن قيم الجوّزية، بعد أن ذكر حديث عُوج:

وليس العجب من جُرأة مَن وضع هذا الحديث، وكَذبّ على الله؛ وإنما العجب ممن يُدخِل هذا في كُتب التفسير وغيره، فكل هذا من وضع زنادقة أهلُ الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسُخرية بالرُسل وأتباعهم.

ثم قال الشيخ أبو شُهبة:

ألا لعن اللهُ اليهود، فكمّ مِن علمٍ أفسدوا، وكمّ مِن خُرافات وأباطيل وضعوا. (٢)

لا عجب إذا ما كان الأمر كذلك، فكيف بقومٍ حرّفوا ما أنزل الله إذا ما قالوا أو نقلوا حديثًا عاديًا، فهذا بلا شك أخف جُرمًا من الوضع في كتاب الله تعالى، وهو التوراة؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

بعد ذكر الظالمين الفاسقين، ننتقل إلى ذكر الصالحين في قصة دخول الأرض المقدسة إذْ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الرجُلانِ هُما: يوشع بن نون فتى موسى ﷺ، وكالب بن يوفنا، وهو ما ذكرناه سلفًا.

---

(١) قاله ابن كثير في تفسيره [ج٢/ ص٤٦].

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كُتب التفسير [ص ١٨٦، ١٨٧].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ورد فيها ثلاث قراءات؛

الأولى: بفتح الياء في قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ مخالفة أمر الله.

والثانية: قراءة سعيد بن جُبير، نقلها ابن جرير في تفسيره، أنّهُ كان يقرأ ذلك: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخَافُونَ﴾ بضم الياء ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ وعن قتادة في بعض الحروف: (يخافون الله أنعم الله عليهما). [(١)]

وما ذكره ابن كثير في قصصه؛ فقال: ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: يهابون [(٢)]؛ هكذا بضم الياء وهي **الثالثة**.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ وهما يوشع بن نون عليه السلام، وكالب بن يوفنا وقد كان راهبًا، وهو ختن نبي الله موسى كما قيل، فأنعم الله تعالى عليه بالإسلام له، والإيمانُ به، وذلك قبل الدخول فى الأرض المقدسة.

وقد يكون إنعام الله تعالى عليهما بأن لم يجعلهُما من الذين نقضوا الميثاق، وخانُوا العهد، وكانوا أُمناء على قبائلهم، وجعلوا يحثونهم على طاعة الله ورسوله بأن يدخلوا الأرض المقدسة.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب المدينة المقدسة، وهذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك التعاون على البر والتقوى.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ وهذا الحوار فيه ما فيه من الحث المعنوي، وشحن نفوسهم بالإقبال على طاعة الله والجهاد في سبيله، وبذل النفس والمال ابتغاء مرضاته، وعدم النكوص على الأعقاب.

---

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٢٤١].

(٢) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٣٣٤].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: فليكن أمركم إلى الله والعزم به، واتكالكم عليه فى الدخول على القوم الجبارين، والتبسوا بالذكر، ولتلهث ألسنتكم به عزّ وجلّ.

وهؤلاء القوم الجبارين ليسوا كما جاءت أنباءهم وصفتهم عن طريق روايات الإسرائيليات، بلى؛ ولكن يعنينا هنا المعنى اللغوي للكلمة، وهذا سيزيلُ كثيرًا من اللبس، والمغالطات.

فالجبَّارُ: كُل عات [1]؛ ويُقال: قلبٌ جبارٌ: لا تدخُله الرحمة ولا يقبل الموعظة والجمع: جبابرة. [2]

فعلى هذا. قد يكون والله أعلم بالحال، أن الاثنى عشر نقيبًا والذين أرسلهم نبي الله وكليمه موسى، قد علموا بحال هؤلاء الجبارين، وأسروا فيما بينهم بأن يخفوا صفتهم عن قبائلهم وقومهم الذين أُمروا بالدخول عليهم، فوفَ من الإثنى عشر اثنان، ونقض العهد العشرة الباقين، فأخبروا شعبهم بأمر الجبارين السبب الذي حال بين دخولهم الأرض المقدسة خوفًا من القتال والموت، وهذا لجبنهم وخسةً فيهم وجبْلّهم على السفه والفسوق والعصيان؛ ولذلك قيل لهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ علقوا طاعة شعبهم فى الله بصفة الإيمان وعلى هذا فيصير المعنى: فإن لم تفعلوا ما تُؤمرون فلستم بمؤمنين.

وقد كان.

وكدأبهم فى العصيان والتمرد، ومخالفة أوامر الله عزّ وجلّ، ولقسوة قلوبهم، الأمر الذي جعلها لا تلين لذكر الله، وتحجرت فلا تخشاه وتتقيه.

---

(١) القاموس المحيط [ص٣٢٥ - مادة: ج ب ر].

(٢) المعجم الوسيط [ج١/ ص ١٠٩ - مادة: جَبَرَ].

فـ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ يا سُبحان الله. هؤلاء العُتاه المعتوهين السُفهاء لم يكن لخالقهم في قلوهم أدنى من ذرةٍ مِن إيمان، فلو كان في قلوهم ذرة إيمان لهابوا الله تعالى، وخافوا بطشه، وحَذِروا غضبه، إلاّ أهم عُمي البصر والبصيرة، وطُبع على قلوهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وبهذا الحوار يتكرر منهم اشطراهم على خالقهم مقابل الطاعة، بل جعلوا الأبدية وأقسموا لذلك.

فهل يُصدق أن قومًا نظير طاعتهم لله الواحد القهار، يشترطون، ويُقسمون بأهم لن يدخُلوا هذه الأرض أبدًا ما دام هؤلاء الجبابرة فيها؛ ألم يخافوا غضب الله عزّ وجلّ؟ ألم يحسبوا العواقب نتيجة عنادهم ومكابرتهم، ومع منْ إنّهُ الله ربّ العالمين، القادر على سحقهم كالذر.

ولعْلّ نبي الله موسى زاد من تذكريهم ببطش الله، وبمخالفة أوامره، الأمر الذي جعلهم يقولون له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ هذا الأمر لا يختلف كثيرًا عن منافقي الأمة المحمدية في صدر دعوهما؛ فكذلك كان شأهم، آثروا القعود والتخلف عن الجهاد في سبيل الله، واختلقوا الأعذار والله أعلم بكذبهم وما يشعُورُن.

أمّا عِباد الله المخلصين من هذه الأمة، وخاصة صحابة نبينا مُحمدًا ﷺ فقد خالفوا تعنت بني إسرائيل مع نبيهم، وآثروا ما عند الله، وابتغاء مرضاة رسوله، الأمر الذي يستوجب رضى ربّ العباد.

فعن عبد الله – هو ابن مسعود – رضي الله عنه قال: قال المقدادُ يوم بدرٍ:

يا رسول الله. إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ

﴿أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ، أهـ. (١)

وقول بني إسرائيل لنبيهم فيه من إساءة الأدب والحماقة والفسوق ما فيه.

اضف إلى ذلك خُذلاهم وتخلُّفهم عن طاعة رهم، وأثرتهم القعود حرصًا على الحياة، الأمر الذي جعل نبيهم يضيق صدره، وكادت تزهق روحه من سوء فعلهم، وقد قيل: أن يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا - أو يوقنا، قد مزقا ثيابهما من صاعقة ردّهم وإغلاظهم فى القول، وقد رموا قومهم بالحجارة.

فهنا لم يملك نبي الله تعالى إلاّ الإلتجاء إلى خالقه، والعُذر له، والتبرأ إليه من فِعلِهُم القبيح، فـ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ أي: ربّ لا تؤاخذني بفعلهم القبيح، وردّهم الغليظ الجافي، فإني لا أملكُ إلاّ نفسي في أن أُحرِّضُها وآمُرُها طواعية لطاعتك، ومالي سواك، وكذلك أخي فإني أملكُ أمره، فإنا مُطيعون لك مُنيبين إليك، نتبرأ إليك من هذا القول، ومن ذلك الفعل.

وهنا لم يطق موسى عليه السلام بعدما رأى إصرار قومه على المعصية، فكان قوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: فرق بيننا، ولا تجمعنا على معصية.

يقول الإمام الطبري:

وهذا خبرٌ من الله عزّ وجلّ عن قِيل قوم موسى حين قال له قومه ما قالوا من قولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أنّهُ قال عند ذلك، وغَضِبَ من قيلهم لهُ (٢)، داعيًا: يارب

(١) رواه البخاري في صحيحه [ج٣/، ص ١٣٩]، والنسائي فى السُنن الكُبرى [ج٦/ ص٣٣٣، ٣٣٤]، والإمام أحمد في مُسنده [ج١/ ص٣٨٩، ٣٩٠].

(٢) قوله: له: هذا ما يقتضيه سياق الكلام، لأن عائد الكلام على موسى، فلَزِمَ الإشارة له، والذي جاء في المطبوع قوله: عليهم، وهو خطأ، ولعلّه تحريف.

﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ يعني بذلك: لا أقدر على أحد أحملَهُ على ما أُحبّ، وأريد من طاعتك واتباع أمرك ونهيك، إلّا على نفسي وعلى أخي. من قول القائل: ما أملك من الأمر شيئًا إلّا كذا وكذا، بمعنى: لا أقدر على شيء غيره، ويعني بقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ افصل بيننا وبينهم بقضاءٍ منك تقضيه فينا وفيهم فتبعدهم منا، من قول القائل: فرقت بين هذين الشيئين، بمعنى: فصلت بينهما. (١)

ويقول الإمام ابن كثير:

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ يعني: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال، غَضبَ عليهم موسى عليه السلام؛ وقال داعيًا عليهم: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ أي: ليس أحدٌ يُطيعُني منهم فيمتثل أمر الله ويُجيب إلى ما دعوت إليه إلّا أنا وأخي هارون ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. (٢)

لماذا كنّى نبي الله موسى فعل قومه بالفسوق، ولما يقُل على سبيل المثال: الكافرين، أو: المنافقين!؟

فلننظر إلى معناها اللغوي في لغتنا العربية، فنجد: الفسقُ، بالكسر: التركُ لأمر الله تعالى، والعصيانُ، والخروج عن طريق الحق، أو الفُجورُ.

و: فَسَق: جار، وعن أمر ربه: خرج؛ (٣) والفاسِقُ: المُنسلخ عن الخير.

فإذا ما علِمنا معنى الفسوق، علِمنا إذًا مغزى قول سيدنا موسى عليه السلام:

---

(١) قاله الطبري في تفسيره [ج٤/ ص ٢٤٦].

(٢) قاله ابن كثير في تفسيره [ج٢/ ص ٤٧].

(٣) القاموس المحيط [ص ٨٢٦ – مادة: ف س ق].

﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، لأهم بالفعل قد فعلوا كُل ما تحمِلهُ الكلمة من معاني؛ ترك لأمر الله. حقًا تركوا أمر الله بالدخول فى الأرض المقدسة؛ وعصوا أمره، وخرجوا عن الطريق الحق حينما آثروا الحياة الدنيا عن طاعة الله وابتغاء مرضاته؛ فجروا؟ نعم. فجروا حينما قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هؤلاء هم اليهود.

هذه هي طبائعم الخبيثة.

تلك هي نفوسهم الشريرة، والتي تتشابه بالشيطانية، فصارت شيطانية حقًا.

دخول بني إسرائيل في التيه

مما قد سبق ذكره، علِمنا أن اليهود، وهم مع معاصرهم لنبيهم، ورؤيتهم كرامته ومُعجزاته، إلاّ أنهم كانوا أشدّ عِنادًا، وأكثر مُكابرةً، طغوا وتكبروا، رأوا النور فلم يهتدوا به وإليه، وعلِموا الحق فلم يتبعوه.

وآخر عهدهم بنبيهم علة ما قد حدث ووقع أمره وقتئذ، وحينما أُمروا بالدخول في الأرض المقدسة، وكان من أمرهم ما قد سبق ذكره، كان الحُكم العادل فيهم من الله تعالى جزاءً وفاقًا، فقال سبحانه وتعالى إستجابة لأمر نبيه فيهم:

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

[المائدة: ٢٦]

لقد جعل الله تعالى الأرض المقدسة لبني إسرائيل في عهد نبيهم دار مُقام، وأمرهم بالدخول فيها، فأبوا مخافة أن يصطدموا بالقوم الجبارين الذين يقطنوها وقتئذ، وقالوا ما قالوا لنبيهم، وفي حق بارئهم، ولم يخشوا الله ويتقوه.

فكان الحُكم من الله تعالى ضد أمره.

وفي الآية قراءتان على الوصل وعلى الوقف؛ فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وبذلك يكون قد وصلنا القراءة هكذا:

﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وبالقراءة يتبين أن الله تعالى قد حرمها على اليهود أربعين سنة أن يطئوها، وذلك جزاءً عكس فعلهم.

فعلى هذا وعند القراءة، وبمرورنا على قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا نقف، ونصل القراءة، ونقف عند قوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ هذه القراءة.

أمّا الأُخرى، فهي قراءة قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ والوقوف على قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ثم تبدأ القراءة من قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فعندئذ يكون الوصل من عند قوله: ﴿سَنَةً﴾، ونصل القراءة إلى قوله تعالى: ﴿الْأَرْضِ﴾، ثم يكون الوقف.

فعلى هذا يكون المعنى على القراءة الأولى: أن الله حرم عليهم دخول الأرض المقدسة حينئذ أربعين سنة؛ والمعنى على القراءة الثانية: أن الله تعالى حكم عليهم بالتيّه فى الأرض أربعين سنة، وقد يكون على هذا المعنى تقديم وتأخير في القراءة لهذه الآية على هذا المعنى، والله تعالى أعلى وأعلم بمراده.

والتيه: فِعْلٌ من تاه – يتيه – تَيها، و: تَيَهَانًا: ذهب متحيرًا.

و: تَيَّه – نفسه، و: توَّه – نفسه؛ بمعنًى أي: حيَّرها وطوَّحها؛ وما – أتيَهَه، و: أَتوَهَه، و: التِّيه – المفازة يُتاه فيها. (١)

و: تاه في الأرض: ضلَّ وذهب متحيرًا. (٢)

و: التِيه: بكسر التاء – المفازة، والتَّيهاء بالفتح والمدّ مِثلُه، وهي التي لا علامة فيها يُهتدى بها؛ وتاه الإنسان فى المفازة يتيه تَيْها: ضلَّ عن الطريق. (٣)

(١) مختار الصحاح [ص ٥٦ – مادة: ت ي ه].
(٢) المعجم الوسيط [ج١/ ص ٩٥، ٩٦ – مادة: تاه].
(٣) المصباح المُنير [ص ٥٢ – مادة: ت ي ه].

هكذا كان حُكم الله تعالى في هؤلاء اليهود.

وقد أتى بعض المفسرين بأعاجيب ومغالطات، وأباطيل بأمورٍ قد حدثت لبني إسرائيل من أن القوم كانوا يسيرون تائهون فإذا ما صاروا رجعوا إلى ديارهم التي بدءوا المسير من عندها، وكذلك من أن ثيابهم لا تُبلى، ولا تَتَسخ، وأن الحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا كان من الجنة، وإلى غير ذلك من الأباطيل.

بالله عليك أخا الإسلام، تُرى قومٍ غَضِبَ الله عليهم لعصيانهم، وفسوقهم، ومخالفتهم لأمر الله، تُرى هل يجازيهم على فعلهم بأن يفعل لهم كل هذه الآيات خلال فترة التيّه وهي الأربعين سنة.

قطعًا هذا مُخالف لمبدأ الثواب والعقاب، سيما إذا كان الأمر يمسُ جناب الله تعالى.

فهل يجوز أن يُعاقبهم، ثم يُحسِنُ إليهم، حتى لا يُعطيهُم الإحساس بالعذاب الواجب من جرّاء عتوهم، قطعًا لا يجوز!؟

ولا يفوتنا هُنا شيءٌ نذكره وهو قول الإمام أبو شُهبة في ردّه على أباطيل ما قيل في هذا الأمر، وكذلك ما قيل في تِعداد شعبهم وقتئذ، وما حدث لهم فى التيّه من أمور، يقول:

وهذا الفصل من النفاسة بمكان، فلذلك حَرِصتُ على ذكره، لأنّهُ يُفيدُنا في ردّ الكثير من الإسرائيليات التي وقعت فيها المغالط، والأخبار الباطلة، والخُرافات التي كانت سائدة فى العصور الأوُلى فردِ الأخبار الباطلة. [1]

أمّا قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فمعناه: فلا تحزن.

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كُتب التفسير [ص ١٩٠].

ويقول الإمام ابن كثير:

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تسليةً لموسى عليه السلام عنهم.

أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فَضَعُفت أنفسُهُم عن مُصابرة الأعداء، ومُجالدتهم ومقاتلتهم مع أنّ بين أظهُرِهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يَعِدُهُم بالنصر والظفر بأعدائهم؛ هذا مع ما شاهدوا مِن فِعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق لهُ، ولجنوده فى اليمّ وهم ينظرون لتقرَّ به أعيُنَهُم وما بالعهد من قِدم، ثم ينكلون عن مُقاتِلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر، لا توازي عُشر المِعشار في عُدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتُضِحُوا فضيحة لا يُغطيها الليل، ولا يسترها الذيل؛ هذا. وهم في جهلهم يعمهون، وفي غَيّهم يتردَّدون، وهم البُغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك:

نحن أبناء الله وأحباؤه.

فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقُرود، وألزمهم لعنةً تصحبهم إلى النار ذات الوقود.

ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود.

وقد فعل وله الحمد من جميع الوجوه. [1]

ثم انظر إلى تكرار لفظ: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وتكراره يدل على التأكيد ولصوق الفسوق بهم، وعدم انفكاك هذه الصفة عنهم، فلعنة الله عليهم دُنيا ودين آمين.

(١) قاله ابن كثير في تفسيره [ج٢/ ص ٤٨، ٤٩].

ما جرى لبني إسرائيل في التيّه وما جرى منهم

يقول الله تعالى:

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ [الأعراف: ١٦٠]

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: فرقناهم.

وقوله: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ يقول الإمام القُرطبي:

وجعلهم أسباطًا ليكون أمر كُل سِبط معروفًا من جهة رئيسهم، فَيَخِف الأمر على موسى؛ ثم قال:

وقوله ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ والسِبط مُذكر لأن بعده ﴿أُمَمًا﴾ فذهب التأنيث إلى الأمم: اثنى عشر لتذكير السبط لجاز؛ عن الفراء. وقيل:

أراد بالأسباط القبائل والفِرق؛ فلذلك أنث العدد. [١]

وها قد فرقهم الله تعالى في التيّه أربعين سنة، يتيهون في الأرض؛ ولكن مع كُفرهم، ومع عنادهم ومكابرهم، وكذا جحودهم وفسوقهم، وإيذائهم نبيهم موسى عليه السلام، مع كُل ذلك وغيرُه فإن الله تواب، رحيم، عفو، حليم، فإن لُطفه في قضاءه، ورحمته وَسِعت كُل شيء، كان أرحم بهم من أنفسهم حين ظلموها بأفعالهم وأقوالهم والتي تستوجب العقاب من الواحد القهار.

---

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٨١٩].

انظر إلى قول العلي القدير، العليم الخبير:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

[الإسراء: ٢٠]

فقد أطعمهم وسقاهم، بعد أن جحدوا ولم يشكُروا، وظلّل عليهم الغمام من الحرّ بعد أن أُذوا، وكساهم بعد أن تمردوا.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

[البقرة: ٥٧]

ويقول عزّ من قائل في سورة الأعراف:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

[الأعراف: ١٦٠]

يمتن الله تعالى على عباده من بني إسرائيل، فقد جعل مع قسوة العقوبة رحمة، سُبحانه فهو الرحيم، فهل عَلِموا ذلك ورحموا الضُعفاء من الناس؟

ورزقهم على ما كان من جحودهم وعنادهم وعصيانهم، فهل تركوا الناس وشأنهم؟

لقد ظلّل الله عليهم فى التيّه بسحاب السماء ليقيهم حرّ الشمس؛ وهذا من رحمته، ورحمةً بنبيهم موسى عليه السلام، حتى لا ينفطر قلبه حُزنًا على قومه.

فهل رقق قلوبهم ذلك. كلا!؟.

وأطعمهم ما لم يكن يعلموه، وإذا كان الإنعام من الرازق على المرزوق مباشرةً، فاهنأ بما يفيضُ به عليك، فهل يكون من الكريمُ إلّا الجود؟

وإذا ما كان العطاء منه، فلا يُعطي إلّا أحسن الأشياء وأفضلِها، وذلك لتُناسبُ قدرته وسعة عطاءه، وتُبين لنا جود خزائنه، ونفيس ما يُعطى لعباده.

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فالمنّ: شيءٌ كان يسقُطُ فى السَّحَر على شجرهم، فيجتنونه حُلوًا مِثل العسل، فيشربونه ويأكلونه. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

لـو أطعِمـوا المَنّ والسّلوى مكانهُم ما أبصر الناسُ طُعمًا فيهم نجَعا [1]

ثم قيل: والسلوى: طير؛ واحدتُها: سلواة؛ ويُقال: إنها السُّماني؛ ويقال للعسل أيضًا: السلوى. [2]

ويقول الإمام ابن حجر فى الفتح ذاكرًا أقوال العلماء في معنى المنّ والسلوى؛ فأما المنّ. ثم يعرض أقوال العُلماء من عِدة طُرق، فمنها عن ابن عباسٍ قال: كان المنّ ينــزِلُ على الشجر فيأكُلون منه ما شاءوا؛ ومن طريق عكرمة قال: كان مثل الرُبّ الغليظ – أي بضم الراء بعدها موحدة، ومن طريق السُدّي قال: كان مِثل الترنجبيل؛ ومن طريق سعيد بن بشير عن قتادة قال: المنّ يسقُط عليهم سقوط

---

(١) قوله: نَجَعًا: والنجع – النفع.

(٢) قاله ابن هشام فى السيرة النبوية [ج٢/ ١١٧].

الثلج، أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل؛ ثم يؤيد الإمام الجمع بين هذه الأقوال، فيقول: وهذه الأقوال لا تنافي فيها.

وأمّا في معنى السلوى، ذكر أقوال العُلماء من عِدة طُرق أيضًا: فعن ابن عباسٍ قال: السلوى طائر يُشبه السمَّاني؛ ومن طريق وهب بن منبّه قال: هو السمَّاني، وعنه قال: هو طير سمين مثل الحمام؛ ومن طريق عكرمة قال: طيرٌ أكبرُ من العصفور. (١)

وبمثل هذه الأقوال جاء القول في تفسير الطبري بسنده.

وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير في تفسيره:

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المنِّ؛ فمنهم من فسَّرهُ بالطعام، ومنهم من فسَّرهُ بالشراب، والظاهر واللهُ أعلم. أنّه كُل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عملٌ ولا كدٌّ، فالمنَّ المشهور إنْ أُكِلَ وحدهُ كان طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِجَ مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن رُكِّبَ مع غيره صار نوعًا آخر، لكن ليس هو المُراد من الآية وحده، والدليلُ على ذلك قول البخاري - وساق السند - عن سعيد بن زيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [الكمأةُ من المَنِّ وماؤُها شِفاءٌ للعين]. (٢)

ثم ساق آثارًا في معنى: السلوى، وفِعلهم في ذلك؛ فقال:

---

(١) قاله الإمام ابن حجر في الفتح [ج٨/ ص ١٤] بتصرف.

(٢) رواه البخاري في صحيحه [ج٣/ ص ١١٠]، ومسلم في صحيحه [ج١٤/ص٥]، ورواه النسائي في السُنن الكُبرى [ج٤/ ص ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨]، ورواه الترمذي في سننه [ج٤/ ص ١٦٢، ١٦٣]، وابن ماجة [ج٣/ ص ٢١٩، ٢٢٠]، والدرامي [ج٢/ ص٢٢٧]، وذكره السيوطي في الجامع الصغير [ج٢/ ص ٤٠٢].

قال قتادة:

السلوى كان من طير إلى الحُمرة، تحشُرُها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسدْ ولم يبق عنده، حتى إذا كان سادسه ليوم جُمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه، لأنّهُ كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.

وبسند - سُنيد، قال ابن عباسٍ: خلق لهم فى التيّه ثيابٌ لا تُخرق ولا تدرن - أي: لا تتسخ، وهذا الأثر لا يصح إلى الإمام الحبر، لأنّهُ يُنافي سُنة الله فى الكون.

وقال الإمام ابن كثير: قال ابن جُريج:

فكان الرجل إذا أخذ من المنّ والسلوى فوق طعام يومٍ فسد، إلاّ أنّهم يأخُذون في يوم الجُمعة طعام يوم السبت، فلا يُصبح فاسدًا.

وقال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، أهـ. (١)

هكذا كان فضلُ الله تعالى على بني إسرائيل الفسقة، ولذلك قال عزّ ذِكرُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ هذا مقام امتنان عليهم، فهم يأكلون ويشربون من غير كدّ ولا تعب، فحق عليهم الامتنان، وإن كان الذي يأتي بالكدّ والتعب أيضًا من فضلِ الله، إلاّ أن الله تعالى لا يظلمُ الناس شيئًا، فَـيُعطي كُل ذي حقٍ حقه، سُبحانه وتعالى علوًا كبيرًا.

ثم يُبين لنا جلّ وعلا أن ذلك بسبب ظُلمهم لأنفسهم، وما ظلمهُم الله، لأن ما يعود على المرء من جزاء فبما كسبت يداه، وما ربُك بظلامٍ للعبيد.

---

(١) قاله ابن كثير في تفسيره [ج١/ ص ١١٧، ١١٩] بتصرف.

فيقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فما معنى هذا؟

إن ما حدث من بني إسرائيل، ويجري، وما سيحدُث، حتى في عصرنا هذا، إنما ينتُج عن أناسٌ طُبِعَ على قلوبهم فلا يفقهون قولاً، وختم الله على قلوبهم، فلا يروا نور الإيمان إلّا ما شاء الله، فهم جِبلة قست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة. يا سُبحان الله، قلوبهم أقسى من الحجارة في ذاتها.

فإذا ما كان الأمر كذلك، عُلِمَ من يظلِمُ من، فهُم الذين قالوا ما قالوا في طلبهم لعبادة العجل، وعبدوه سفهًا وجهلاً، وهم الذين قالوا: أرِنا الله جهرةً، وهُم الذين آذوا رسُوله، وقالوا فيه وفي أخيه ما قالوا.

فسمى الله تعالى ذلك ظُلمًا، لأن أعظم الظُلم الشِرك بالله تعالى، فما نتج عن ذلك كُله إلّا الإشراك معه، والكُفر به.

ولأن وبال ما يجتنيه المرء من آثام وخطايا، لا يضُر الله به، فلِذَا هو عائدٌ عليه، وبذلك قد ظلم نفسه، فحق عليه قول ربنا: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

فمن المفترض في هؤلاء الأُناس أن يعودوا إلى رُشدهم، ويفيقوا من غيبتهم، ويُراجعوا أنفسهم، ويتوبوا إلى الله تعالى، ويطلبوا الصفح عسى الله أن يتوب عليهم؛ إلّا أنهم دأبوا على العصيان والتمرد والوقاحة مع خالقهم، وتعودوا على السفالة والتدني، ولم يتركوا لأنفسهم اختيار النور، ولم يهدُوها إلى الصراط المستقيم، لعلّها تتشبث بالنور؛ ولكن هيهات أن يحدث مثل هذه الأماني، والتي كُتب عليها استحالة التحقيق.

قومٌ عصوا رسولهم، وأغضبوا ربهم، فالمتوقع منهم أن يطلبوا من رسولهم أن يستغفِرَ لهم ربهم عسى أن يقبل منهم.

وأن يعملوا جاهدين فوق طاقتهم طلبًا للمغفرة، وأن لا يتوانوا في ذلك دأبًا.

فبدلاً من أن يكون هذا حالهم، وينطق به لسانهم.

نطقوا بالتمرد والتذمر، وأعلنوا العصيان.

يا سُبحان الله. واللهِ إنا لا ندري ما نقول، فإن أي صفة من شأنها تشفي ما بداخلي غضبًا لله تعالى، فلن تفي بالقول.

وقبل أن ننتقل إلى موقف التمرد وإعلان العصيان، لا يفوتنا أن نذكُرَ ما كان من فضل الله عليهم في سُقياهم من الحجر.

يقول الله تعالى:

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

[البقرة: ٦٠]

ويقول تعالى:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ

[الأعراف: ١٦٠]

تُعلمُنا آية البقرة، أن بني إسرائيل طلبوا من رسولهم في التيّه أن يُسقيهم بعد أن منَّ الله عليهم بإطعامهم المنّ والسلوى، فما كان من رحمة العزيز الغفار إلاّ الاستجابة لأمرهم، فلبى طلب نبيه، فأوحى إليه أن يضرب بعصاه الحجر، وهو ما قررته آية الأعراف، فجاء قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، ولقد جاءت آثارًا في تعيين الحجر الذي ضربه نبي الله موسى بعصاه، فمن قائل يقول: هو الذي أخذ بثيابه ورمى بها في البحر حينما كان يغتسل بالشاطئ؛ وآخر يقول: هو حجر مربع؛ وآخر يقول: هو على شكل رأس إنسان، وإلى غير ذلك من الأقوال، والحق أنها مِن خُرافات وأباطيل وتحريف بني إسرائيل، والتي نقلناها عنهم حسب زعمهم.

والحق الجلي في هذا. أن المُراد من قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أن الحجر اسم جنس لا صفة بعينها.

وقد غلب الاختلاف على تعيين ذلك الحجر من قِبل بني إسرائيل أنفسهم، فأرادوا أن يفعلوا مِثل ما فعلوا في تعيين البقرة حينما شدّدوا على أنفسهم، وقالوا ما قالوا من سؤالهم عنها تحديدًا، وكان يُغنيهم عن ذلك كله لو ذبحوا أي بقرة كما قد سبق وأن ذكرنا.

وهنا لا يضُرُنا معرفة الحجر من الجهل به، فهذا لا فائدة منه، ولا من طائلٍ وراءه.

فكل ما نود معرفته هُنا هو أمر الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام، أن يضرب بعصاه الحجر حين استسقاه قومه، وهذا من رحمته بخلقه، وسِعة صبره على تمردهم وعصيانه، وإمهالِهم قبل إهمالهم.

فضرب موسى عليه السلام الحجر؛ فكان الماء من الحجر بإذن الله عذبًا سائغًا للشاربين، باردًا لطيفًا، وهذه من آياته التي أجراها على يدِّ نبيه عليه السلام، وكان من

المنتظر أن تترك فيهم أثرًا يُحرك بداخلهم مشاعر الإيمان، والرجوع والإنابة إلى الله، والندم على ما كان منهم، ولكن هيهات أن يحدُث؛ حتى يدخل الجملُ في سمْ الخياط عندئذ يكونوا مؤمنين.

ومن بلاغة القُرآن الكريم في تصويره لخروج الماء من الحجر، نجد التصوير جاء دقيقًا غايةً فى الدقة.

فنجد القُرآن مرةً يقول في سورة البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وفي سورة الأعراف يقول: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وسورة البقرة ثاني ترتيب المصحف، إلاّ أنّ سورة الأعراف ترتيب نزولها قبل البقرة بكثير سور، وكلا السورتين مدَنيتّان.

وقد جاء التعبيرُ فيها غاية الدقة، فيقول تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ قيل فى القاموس: بجس. الماء والجُرح يَبجِسُهُ: شَقَّهُ؛ وبجَّسَهُ. تبجيسًا: فَجَّرَهُ فانبجس وتبجَّس؛ والبجـِيسُ: الغزيرةَ؛ والإنبِجَاسُ: النُّبوعُ فى العين خاصةً، أو عامٌ.[1]

فعلى هذا المعنى والذي في صورة الأعراف، نجد أن عند ضرب نبي الله موسى بعصاه الحجر، نَجدهُ قد انشق استجابةً لأمر الله، وجاء الانشقاق على حسب تِعداد الأسباط، وهو اثنى عشرة أسباطًا، وقد عَلِمَ كُل أُناسٍ منهم مكان مشربهم من عيون الحجر؛ وهذه آيةٌ من آياته، تبارك العليُّ القدير.

ويجيءُ التعبير الآخر لصورة البقرة يُضفي على المعنى الأوّل جمالاً وبهاءً وعظمةً.

فجاء قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الفاء فى الموضعين حرف عطف لفعل ماضي، وحرف الفاء هذا يُبين سُرعة الإجابة والإنصياع لأمر الله تعالى؛ ألا ترى كيف قال

(١) القاموس المحيط [ص ٤٧٨ – مادة: ب ج س].

عزّ وجلّ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فكانت سُرعة الاستجابة لأمر الله ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

ويجوز لك أن تقول: أن هناك فعل مضمر، فيصير المعنى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ – فضربه – ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ والله تعالى أعلمُ بمُراده.

وقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ وانفجر الماء وتفجَّرَ: سال.[1]

فعلى هذين المعنيين؛ يتبين لك أن القُرآن الكريم وهو كلام الله تعالى، والـمُنـزّل على قلب رسوله ﷺ والذي لا يأتيه الباطلُ من بينْ يديه، ولا من خلفه، لأنّهُ تنـزيلٌ من عزيزٍ حميد.

يتبين أن القُرآن جاء بالوصف الدقيق الأخاذ، ففي الآية الأولى قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي: شُقَّ، وفى الثانية قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾: أي: سالت، والانفجار في عصرنا هذا يعني: خروج الذرات بسرعة ومتناثرة؛ إلّا أنّ القُرآن حجْمَّ هذا الوصف للطافة مقصده، فجاء المعنى سال أي: بلطف.

وهذه الآية من عظمة ربنا وخالِقنا وهادينا ومُنقذُنا من النار، سُبحانه وتعالى، فهو اللطيف الخبير، العلي القدير، نسألهُ أن يغفر ذنوبنا بفضله، ويستُر عيوبنا بمنّه، فهو العليُّ القدير، ولما شاء وعلى ما يشاءُ قدير، آمين.

ثم يمتنّ الله تعالى على عباده، ويحذرهم من دأبهم معه، فيقول عزّ وجلّ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: أن هذا من رزق الله وفضله، فكلوا واشربوا منه، واشكُرُوا لهُ آلائِه، واذكُروا لهُ حِلّمهُ عليكُم، ولطفه بِكُم ورحمته.

(١) القاموس المحيط [ص ٤١٠ – مادة: ف ج ر].

قيل:

في الكلام حذف تقديره: وقلنا لهم: كلوا المنّ والسلوى، واشربوا الماء المتفجر من الحجر المنفصل؛ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ أي: لا تُفسدوا. والعيث: شدة الفساد، نهاهم عن ذلك. وأصل العثا شدة الإفساد، بل هو أشدّ الإفساد. [1]

و﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال؛ وتكرر المعنى تأكيدًا لاختلاف اللفظ، وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها، والتقدم فى المعاصي والنهي عنها. [2]

نعُد إلى مرارة النفس، وشقاء القلب، وانفطار الروح لما يصدُّر من أفواه هؤلاء اليهود الخُبثاء.

تركوا ما أنعم الله عليهم من نِعم برفضهم إياها بلسان حالهم، جحدوا لهُ نِعمه لم يشكُروا لهُ فضله، قابلوا الإحسان بالإساءة، والفضل بالنكران.

واختاروا لأنفسهم، وجعلوا اختيارهم لدى أنفُسِهم أفضل من اختيار الله لهم.

لقد رَحِمهُم الله تعالى حينما تحيروا أربعين سنة، يتيهون فى الأرض، فجعل الله تعالى في قضاءِه لُطفً بهم.

أنزلّ عليهم المنّ والسلوى، وفجرّ لهم من الحجر اثنتا عشرة عينًا، لأسباطهم الاثنى عشرة أسباطًا، وعرّفهم مشربــهُم، وظلّل عليهِمُ الغمام.

فماذا بعد ذلك؟.

فمن المفترض تجاه كُل هذه النعم، وهذا الفضل الذي أسداهُ الرحمن على

---

(١) قاله الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٤٤٠].

(٢) قاله القُرطبي في تفسيره [ج١/ ص ٤٦٠].

هؤلاء اليهود، أن يشكُروا له كما قُلنا، ويلتمسوا الصفح والعفو والمغفرة بالتذُّلِ له، وأن يستغفر لهم نبيهم، فضد هذا فعلوا.

يئسُوا وملّوا من أكل المنّ والسلوى، واستغنوا عن الأفضل والأجود بالأدنى البخس.

ويقول تعالى حكايةً عنهم:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ

[البقرة: ٦١]

يا سُبحان الله. هؤلاء هُم اليهود.

وهذا أيضًا مقامٌ يفضح الله تعالى فيهم فعلهم الخبيث، وقِيلهم الفاسد الخبيث، وقلوبهم المُظلمة، وأرواحهم الخبيثة ونفوسهم الدنيئة.

ويقول الإمام ابن كثير فى القصص:

أي: هذا الذي تطلبونه وتُريدونه بدل هذه النِعم التي أنتم فيها، حاصلٌ لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها.

وإذا هبطتم إليها، أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها، تجدون بها ما تشتهون وما ترمون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكن لستُ أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا، ولا أُبلّغكم ما تعنتم به من المنّ.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم، تَدُلُ على أهم لم ينتهوا عما نوهوا [1] عنه، كما قال تعالى:

وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

[طه: ٨١]

أي: فقد هلك، وحقّ لهُ واللهِ الهلاك والدمار، وقد حلَّ عليه غضب الملك الجبار.

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد: فقال: [2]

وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

[طه: ٨٢]

صدق الله العلي العظيم، الحليم اللطيف الكريم.

وهنا أمرٌ قد خفي على أُناسٌ مُراده، وهو المُراد من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ فحينما قالت بنو إسرائيل ما قالوا وهم في حالة توفية الجزاء، قالوا وهم جُهال سُفهاء؛ بطلبهم الطعام من البصل والعدّس والفوم (القمح) لكي يطحنوه ويخبزوا منه، وكذلك القثاء والبقل.

فانظر أخا الإسلام بالله عليك، انظر إلى قومٍ يوفون ما عليهم من عقاب قد

(١) قوله: نوهوا: هذا هو الصحيح، والذي في المطبوع قوله: نوا. ولعلّه خطأ مطبعي.

(٢) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٣٤٠].

عاقبهم الله به، يتمردوا وهم يوفون، فهل هذا ينُمّ عن عقول صائبة أو نفوس مستقيمة، قطعًا. الإجابة لا؟!

طلبوا هذا وهم واهمون أنّهُ خيرٌ مما هم عليه من رزق الله، وهنا أجابهم نبي الله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ وهنا مسألتان:

الأوّلى:

في قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ ومعناه: النـــزول من أعلى إلى أسفل؛ أو: النـــزول والإقامة في مكانٍ ما.

فعلى هذا هل خرجت بنو إسرائيل من التيّه وهُم في حال توفية العقاب، ونزلوا مكانٍ ما؟

فيه ثلاث مسائل:

الأوّلى:

قد يكون سؤالهم هذا وأنهم حسب زعمهم قد ملّوا أكل المنّ والسلوى؛ قد جاء بعد انقضاء أجلهم الذي وقتّهُ لهم ربُّ العزّة سُبحانه، فكان ردّ نبي الله موسى عليه السلام: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ أي: انزلوا مِصرًا من الأمصار، فإن لكم فيه ما سألتم.

الثانية:

وهي الأصح لشواهدها، ومنها ما قاله الإمام القُرطبي:

قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾؛ وهذا أمرٌ معناه التعجيز؛ كقوله تعالى:

۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

[الإسراء: ٥٠]

لأنهم كانوا فى التيّه، وهذا عقوبة لهم. (١)

وللمقصود يُشير الإمام ابن كثير بعد ما استدل على أن قوله: ﴿مِصْرًا﴾ هو بلد من البلاد، وليست مِصر المحروسة بعناية الله وكلائته، فقال:

والحق. أن المُراد مِصر من الأمصار، كما رُوى عن ابن عباس وغيرُه، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيزٍ، بل هو كثيرٌ في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فلن يُساوي مع دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر، ولا ضرورة فيه لم يُجابو إليه، والله أعلم. (٢)

الثالثة:

أن سياق الآيات في قصة التيّه لم يُشر من بعيد ولا قريب، أنهم قد خرجوا من التيّه، ودخلوا مِصر، أو أي مِصر من الأمصار، بل إن آيات التيّه تُبين أن بني إسرائيل قد أتموا عقوبتهم فى التيّه، ومات فيه جميعُ من كان فيه من الرجال.

أما ذُريتهم هُم الذين قد دخلوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، لأن نبي الله هارون قد تُوفيّ فى التيّه، ومن بعده موسى عليه السلام، وقد رجى من الله تعالى أن يُدنيه من الأرض المقدسة ولو برمية حجر، فأجابه الله سبحانه وتعالى لذلك.

ثم سكنوا أرض الشام، ولم يَرِدّ نص قُرآني، أو أثر عن السلف الصالح ومن

---

(١) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٦].

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٥].

قبلهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يُبين أنهم قد خرجوا من التيّه ورجعوا إلى مصر ثانيةً، أو دخلوا أي بلد غير التوجه إلى الأرض المُقدسة.

ولا التفات بعد ذلك ، إلى أى كلامٍ فيه مضيعةٌ للوقت، أو لأي جدلاً عقيمًا، أو لأي تحاورات بالعبارات، والله سُبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

الثانية:

أن قوله: ﴿مِصۡرًا﴾ على الألف والتنوين، فهي ليست بمصر البلد المعروف، والتي نرجوا من الله أن يدوم عليها ويغمرها بنعمة الأمن والسلام والإسلام.

بل المُراد منها مِصرًا من الأمصار، أي: أي بلد من البلاد، فإن الأرض مليئة بمثل هذه الأطعمة، وما أكثرُها، ولكنها مع ما أنتم فيه بَخسة ودنية، ويكفي أنها من اختياركم، والذي فضلتموه وآثرتموه على اختيار الله لكم، أهـ.

وقوله تعالى:

وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾

[البقرة: ٦١]

ففي قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ يقول الإمام الطبري:

قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿وَضُرِبَتۡ﴾ أي: فُرِضت، ووضِعت عليهم الذلةُ وأُلزموها؛ من قول القائل: ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة، وضرب الرجل على عبده الخراج، يعني بذلك وضعه فألزمهُ إياه، ومن قولهم: ضرب الأمير

على الجيش البعث - بعث الجُند إلى الغزو - يُراد به ألزمهموه [1]. وبمثل ذلك قال القُرطبي. [2]

ويقول الإمام ابن كثير:

أي: وُضعت عليهم، وأُلزموا بها شرعًا وقدرًا، أي لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفُسِهم أذِلاء مستكينون. [3]

فقد صدقوا القول واللهِ، ألاّ لعنة الله على اليهود.

وقوله: ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ قيل: الذُل. قال الضحاك وقال الحسن: أذلّهم الله، فلا مِنعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين، وقد أدركتم هذه الأمة وإن المجوس لَتجبيهم الجزية. [4]

ويقول القُرطبي: والذلة: الذُل والصغار. [5]

وهذا والله حق. فإن اليهود المعاصرين، خاصة من الأمريكان، والدُويلة المفروضة علينا المزعومة إسرائيل، تجدهم مع ما معهم من أسلحة ومال يقوي شوكتهم، إلاّ أنك تسمع منهم رغم أنفهم أنهم مذلّولين فى الأرض، مُهانين، ويترنمون ويتشدقون بهذا حتى في أغانيهم وطقوسهم.

وما ذاك إلاّ لذلك، ألا ترى أن الله كتب عليهم الغضب أبدًا.

---

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٤٩].

(٢) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٧].

(٣) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٥].

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٧].

إن الله قد أوجب عليهم الذُلّ شرعًا وقدرًا فلا مناص من ذلك ولا مفر، بل لا مخرج منه، فهم أذِلاء بأمر الله تعالى وكلمته عزّ وجلّ الشرعية.

وإن كان ميزان الزمان قد اختل الآن، إلّا أنّ نصر الله قريب، ووعده ناجزه لا محالة، ولينّصُرنّ الله من ينصُره؛ إنّ الله تعالى لقويّ عزيز.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ يقول القُرطبي.

الفقر. فلا يوجد يهودي وإن كان غنيًا خاليًا من زي الفقر وخضوعه ومهانته، ثم قال: والمسكنة: الخضوع؛ وهي مأخوذة من السكون، أي قللّ الفقر حركته؛ قاله الزجاج. [1]

وقال ابن كثير:

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسُدّي: المسكنة. الفاقة - أي: الفقر [2]، وبه حكى الطبري في تفسيره عنهم. [3]

وهذا أيضًا حقًا إلى يوم الدين.

فاليوم والزمن المعاصر يشهدُ على ذلك، فإن مجلس الأمن، وهو أيضًا وصمة عار في جبين الشريعة الإسلامية، والتي من المفترض أنها تحكم الإسلام، لا المؤسسة اليهودية.

فإن مجلس الأمن، وهو مؤسسة عالمية، قد أدان أمريكا بالمليارات من الدولارات، لماذا؟

---

(١) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٧].

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٥].

(٣) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٤٩].

لأن الولايات المتحدة، وهي اثنان وخمسون ولاية لا تقدر على سداد ما هيَّ مُطالبة بسداده، لماذا؟

لأن الفقر واجبٌ عليهم قدرًا وشرعًا إلى يوم القيامة، وإن كان لهم ما في الأرض وملؤها ذهبًا، لأن ذلك كائنًا بكلمة الله القدرية.

وقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ يقول الطبري:

قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ انصرفوا ورجعوا، ولا يُقال باؤوا إلاّ موصولاً، إما بخير وإما بِشرٍّ، ويُقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءًا وَبوَاءً؛ ومنه قول الله عزّ وجلّ:

إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِى وَإِثۡمِكَ [المائدة: ٢٩]

يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صار عليك دوني.

فمعنى الكلام إذًا: ورجعوا مُنصرفين مُتحملين غضب الله، و [(١)] قد صار عليهم من غضب الله، ووجب عليهم منه سخط. [(٢)]

وقد حكى هذا الإمام ابن كثير في تفسيره تبعًا للإمام الطبري. [(٣)]

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب الذي قد أوجبناهُ عليهم لما قد صدر منهم، فجاء بيانه ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ وسيجئ الكلام على ذلك في ذكرنا حال اليهود مع الأنبياء، وذلك بمشيئة الله وعونه.

---

(١) قوله: و: هذا الحرف قد أثبتناه لاقتضاء السياق لذلك، ذلك لأنه حرف عطف على ما قبله.
(٢) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٥٠].
(٣) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يقول الإمام الطبري؛ وحكى القُرطبي مثلُه؛ قال:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ردّ على ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأوّلى. ومعنى الكلام: وضُربت عليهم الذّلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، من أجلِّ كُفرِهم بآيات الله، وقتلّهُم النبيين بغير الحقّ، من أجلِّ عصيانهم ربهم، واعتدائهم حدُوده؛ فقال جلّ ثناؤه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ والمعنى: ذلك بكفرهم وعصيانهم معتدين. [1]

وقال القُرطبي:

﴿ذَٰلِكَ﴾ ردّ على الأوّل وتأكيد الإشارة إليه، والباء في ﴿بِمَا﴾ باء السبب[2].

وقوله: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[3] يقول القُرطبي: والاعتداء: تجاوز الحدّ في كل شيء؛ وعُرِف في الظُلم والمعاصي.

ويقول الطبري:

والاعتداء: تجاوز الحدّ الذي حدّهُ الله لعباده إلى غيره، وكُل متجاوزِ حدّ شيءً إلى غيره فقد تعدَّاهُ إلى ما جاوز إليه.

ومعنى الكلام: فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمري، وتجاوزوا حدّي إلى ما نهيتُهُم عنه. [4]

وعصيانهم الذي ذكر الله يوحي بأنه متكرر، ولا هو بمنقطع، فإن مادة

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٥٣]، والقُرطبي [ج١/ ص ٤٦٩].
(٢) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٦٩].
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٥٣].

كتابنا هذا وعناوين مواضعه تُبين ظُلّمهُم ومعاصيهم الدؤبة، وكذلك تمردهم وتذمرهم وبطرهم على فضل الله وإحسانه إليهم، وستره عليهم، ولكنَّ نفوسهم الخبيثة تأبى ذلك إلاّ التمرد والعصيان.

ولذلك كان لهم الخزي والحسرة والندامة، ألاّ لعنة الله عليهم بما عصوا الله ورسُوله، وبما كانوا يعتدون على أوامره وحدوده، والله تعالى أعلى وأعلم.

أمر بني إسرائيل دخول الباب سُجداً، فعصوا وبدّلوا



يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

[البقرة: ٥٨، ٥٩]

ويقول جلّ ذكره:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

[الأعراف: ١٦١، ١٦٢]

بعدما قصّ الله تعالى علينا من نبأ اليهود، ومن مخالفتهم أمر الله في محاربة من كان ببيت المقدس، وعصيانهم وتمردهم وفسوقهم لأوامر الله تعالى.

وما كان من أمر الله تعالى إذ حكم عليهم بالدخول فى التيّه أربعين سنة يتيهون فى الأرض، ومات من الرجال ممن عصى أمر الله، وذلك مُدة مقامهم فى التيّه، وبموت نبيئاهُم موسى وهارون عليهما من الله الصلاة والسلام، وبقيام يوشع بن نون بأعباء بني إسرائيل ومواصلة رسالة النبوة.

أمر الله تعالى ممن شدّ بنيانه واستوى ممن كان من ذُرياهم، أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، بعد أن أهلك من كان فيها بقدرته وقدره.

إلاّ أنْ كان من الخلف ما هو أشرُّ من السلف.

فما كان ممن دخلوا الأرض المُقدسة إلاّ العصيان والظُلم والفسوق، تابعوا سلفهم على الكفر والعصيان والفسوق.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ولفظه في سورة الأعراف، قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، فا اللفظ الأوّل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، والثاني: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ فلا مُنافاة بينهما، وإن كان الأخير مبني على المجهول، فالأوّل: القول مضاف إلى الله تعالى، والثاني: بلّغته رُسُل الله إلى نبيه يوشع، فأُضيف الفعل إليهم، وهو فى الأصل صادرٌ من الله عزّ وجلّ، ولفظ: ﴿لَهُمُ﴾ للاختصاص والتمييز.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، والثاني: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ فالأوّل أمر بالدخول، والثاني: الأمر بالسُكنَى.

فمن ذلك تبين أنّ الله تعالى أمرهم بالدخول فى الأرض المقدسة، وهو ليس دخول قضاء أمر من أوامر الله، فيعقُبه خروج؛ بل دخول إقامة، ولذلك أكد باللفظ الثاني: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾، أي: ادخلوا الأرض المقدسة، واسكنوها، ولكم ما يُقيم حياتكم فيها من سُبل المعايش؛ وبذلك ثبت أن الأمر للسكن، وليس بتمكينهم الأرض كما يزعمون.

وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ هذا أمر توجيه من الله تعالى، بأن يأكلوا من الأرض المقدسة حيث شاءوا، فهم بالخيار، فالحرج مرفوع، ولقد أُبيح لهم ما فيها من الأُكل.

والرغد: من الشيء. الكثير الواسع.

وقوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وفي اللفظ الثاني قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ فهنا استدلالٌ لطيف، والذي قد جاء في قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ وهو ما جاء في سورة البقرة، وما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، يُفيد الربط بين اللفظين أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يتلبسوا بقولهم: حُطَّ عنّا خطايانا، وهُم داخلون، أو: وهُم في طريقهم لدخول الأرض المُقدسة، وهو ما بيّنهُ بقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، ثم أمرهم أن لا يفترُوا عن قولهم: حُطَّ عنّا خطايانا، حتى بعد أن يدخلوا من باب الأرض المقدسة، وهذا ما بيّنهُ بقوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

وقد أمرهم أن يدخلوا من الباب بصفة معينة، وبهيئة مقيدة بلفظة: ﴿سُجَّدًا﴾، والذي فسره حبر الأُمة سيدنا عبد الله بن عباسٍ ﷺ بقوله: ركوعًا منحنين.

فما كان من اليهود الفسقة الفجرة العُصاة، إلّا أنْ بدّلوا القول، وبدّلوا الفعل.

بدّلوا القول بقولهم: سُقما ثاه أزّه هَذْبا - بالعبرية، ومعناه: حبةٌ مقلوةٌ في شعرةٍ مربوطةٍ [1]، وفي لفظٍ آخر؛ عن ابن مسعود أنّهُ قال: إنهم قالوا: هطا سمعانا أزبة مزبا، فهي بالعربية: حبة حِنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء. [2]

(١) أحكام القُرآن [ج١/ ص ٢١].

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٢].

لعنهم الله. لم يعتبروا بما حصُلّ لسلفهم الطالح، والذي أذاقهم الله ألوان العذاب ليرتدعوا، فما أنابوا لربهم، وما خشعوا له، وما تذلّلوا له.

قالوا ذلك استخفافًا واستهزاءً وسخريةً، هَزِءَ بِهِمُ الله، وسَخِرَ منهم، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وبدّلوا الفعل، فقد أمرهم الله تعالى أن يدخلوا الباب سُجدًا إلّا أنهم كدأبهم في الفسوق والمخالفة، دخلوا يزحفون على أستاههم كما القردة والكلب.

فعن همام بن مُنَبِّه، قال: هذا ما حدثنا أبو هُريرة عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ.

[قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجدًا وقولوا حِطةٌ يُغفر لكم خطاياكم. فبدّلوا. فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبةٌ في شعرةٍ]. (١)

قال الإمام النووي في شرح مُسلم:

جمع أست، وهي الدُبر.

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

وفي آية الأعراف قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهنا أيضًا ربط بين الآيتين، وهو بيِّن في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه [ج ١٨/ ص ٢٠١]، ورواه البخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٢٧٤]، ورواه النسائي في السُنن الكُبرى [ج٦/ ص ٢٨٦]، وابن منُبه في صحيفته [ص ٥٦٩]، وكذا غيرهم.

قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾.

فالتبديل جاء من أُناس معينة معلومة، وليس كل بني إسرائيل هُنا بدّلوا القول والفعل غير الذي أمرهم به الله تعالى.

وقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فالإرسال لأُمة مُعينة، كما يُرسل الله تعالى رُسُله إلى أُمة بعينها، وإلاّ لقال تعالى: فأنزلنا. والرجز لغةً: العذاب.

أي أن الله تعالى أرسل عليهم من السماء عذابًا، وكان ذلك عقابًا لهم؛ وقد عرّفه الشارع الحكيم، فعن عامر بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه، أنّهُ سَمِعَهُ يسألُ أُسامة بن زيد [1] ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون؟ فقال أُسامةُ: قال رسول الله ﷺ: [الطاعون رجزٌ [2] أو: عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيل، أو: على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدمُوا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرُجُوا فِرارًا منه]. [3]

وقال أبو النضر: [لا يُخرجُكُم إلاّ فرارٌ منه].

والطاعون هو صفة لمرض أو داءٌ عِضال كالإيدز والعياذ بالله، وهو منتشر ومعروف، فى الدول المتقدمة، وكذا في بعض دول إفريقيا.

---

(١) قوله: بن زيد: قد جاء في رواية البخاري في الفتح [ج٦/ ص ٥٩٢].. أُسامة ابن زيد هكذا بالألف في (بن) وهو خطأ، فالاسم موصول، وبه يحذف الألف؛ وفى الصحيح (المتن) أُسامة بن زيد، أهـ.

(٢) قوله: رجزٌ: وفي رواية البخاري كما فى الصحيح: رجسٌ – هكذا بالسين.

(٣) رواه مسلم [ج ١٤/ ص ٢٤٩]، والبخاري في صحيحه [ج٣/ ص ٢٩٠]، وفي منتخب كنـز العمال بهامش مسند الإمام أحمد [ج٣ / ص ٥٠٠]، وذكره السيوطي فى الجامع الصغير [ج٢/ ص ٣٢٩].

يقول الإمام النووي:

وأمّا الطاعون: فهو قرُوح تخرج فى الجسد، فتكون فى المرافق، أو الآباط، أو الأيدي، أو الأصابع وسائر البدن.

ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القرُوح مع لهيب، ويُسوّد ما حواليه، أو يخضرّ، أو يحمر حُمرةً بنفسجية كدرَة، ويحصُل معه خَفقان القلب والقيء، وأمّا الوباء: فقال الخليل وغيره: هو الطاعون، وقال: وهو كُل مرضٍ عام.

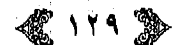
والصحيح الذي قاله المحققون أنّهُ مرض الكثيرين من الناس في جهةً من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفًا للمعتاد من أمراض فى الكثرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعًا واحدًا بخلاف سائر الأوقات، فإن أمراضهم فيها مُختلفة، قالوا: وكُل طاعون وباء، وليس كل وباءٍ طاعونًا. (١)

فعلى هذا نعلم أن الرجز الذي أنزله الله من السماء على بني إسرائيل، ما هو إلّا جزاءً على ما اقترفوا من الذنوب والآثام والخطايا، وما هو إلاّ مرضٌ إبتلاهم الله به لعلّهم يتوبوا.

وأمّا قوله في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، وفي الأعراف: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ فلا تناقض ولا تغيير بين اللفظيين: ﴿يَفۡسُقُونَ – يَظۡلِمُونَ﴾ واللّذين وردا فى الآية، فالأوّل صفةً لهم وهو الفسوق، وتكراره في المواقف المتعددة، يُعطي صفة الاختصاص، أو اللّصوق، فهذه الصفة صارت مُلازمةً لهم، لا تنفك عنهم، فكأنهم اكتسبوها.

وأمّا الآخر وهو الظُلم، فإنهم ظلموا أنفسهم بإيرادها موارد التهلُكة، بسبب تجبرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر خالقهم وبارئهم.

(١) قاله الإمام النووي في شرحه لصحيح مُسلم [ج ١٤/ ص ٢٩٤، ٢٩٥].



وأشدّ أنواع الظُلم الذي يُنسب لذات العبدّ، ظُلمهُ لنفسه، وأعظم الظُلم الشركُ بالله تعالى كما قال في قُرآنه الكريم.

نسألُ الله العفو والعافية فى الدين والدُنيا، وأن لا يجمعنا معهم دُنيا ولا دين، فإنه على الإجابة قدير، وعلى كل شيء قدير، فهو نعم المولى ونعم النصير، اللّهُمّ آمين، والله تعالى أعلى وأعلم.

سوء أدبهم مع اللّه تعالى بقولهم على اللّه بغير الحق



زعم اليهود وغيرهم بأن لله تعالى ولـــدًا



فلنلتقط أنفاسنا، ونجدد ما في صدورنا من هواءٍ قد لوثه ما قد سبق؛ وقد ضيَّق الصدر معرفتُه، ونتأهب من جديد ونتحلى بالصبر، ونضبط أعصابنا، حتى لا ننفعل فيصدُرُ منا ما لا يليق.

فإذا ما تطرقنا للحديث عن بني إسرائيل، نجد الحديث أسود، قاتم، لا ينشرح له الصدر، بل يضيق حتى نكادُ نختنق، وتزهق أرواحنا، وتكون النهاية.

إلّا أنّ الله تعالى أعطانا الصبر، وأمرنا بالمُصابرة، وحثنا على أن نُجاهد بكل سلاح، سلاح التقوى، سلاح العمل، سلاح الاقتصاد، سلاح المال، سلاح الكلمة، سلاح الإيمان وهو عَمدّ حياتنا، وكذا سلاح العلم.

يقول الله تعالى:

وَأَعِـدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ [الأنفال: ٦٠]

فلنبدأ بما أزمعنا أن نتعرض له.

إن اليهود مِثلهم مثل النِحلّ الأُخرى، والمِلل التي تعاقبت، فلم يأتسوا بالصالِح من الأُمم الغابرة، ولم ينتهجوا نهج الصالحين منهم؛ بل ساروا على الطريق السيء ولم يتخذوا الصراط المستقيم طريقًا.

قالوا مثل من قال قبلهم، واتحدوا مع من كان من معاصريهم، فئةٌ قالت:

المسيحُ ابنُ الله؛ والأخرى قالت: عُزيرٌ ابن الله، وثالثةٌ قالت: اتخذ الله ولدًا، وغيرهم قالت: الملائكة بناتُ الله، وغيرهم جعلوا له شركاء من الجن، وهو خلقهم، وغير هؤلاء عبدوا الأصنام، وأخرى اتخذوها بجهل حسب زعمهم، اتخذوها أولياء معبودةً من دون الله ليُقربوهم إلى الله زُلفى.

يا سُبحان الله، أشياء عجيبة، وأمور غريبة، لا تصدُرُ إلاّ عن قلوب عليها غِشاوة، وصدور خيّم عليها ظلام الشرك، ونفوس سيطر عليها الشيطان حتى لا ترى النور، أو أن يمس شغاف قلبها، ولو وبيص من النور.

اللّهُمّ إلاّ من رَحِمَ ربي.

يقول الله تعالى:

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

[البقرة: ١١٦]

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ قيل هم اليهود والنصارى؛ قالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقالت اليهود: عُزيرٌ ابنُ الله؛ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ولأن الإنسان يجهل قدر الله عزّ وجلّ، ولم يُنزهَهُ حق التنـــزيه، نزّه الله تعالى نفسه عن قولهم وغيرهم، فقال إخبارًا عن ذاته المُقدسة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾.

واتخاذ الولد في حق الله مُحال، لأن الولد يقتضي أن يجيء من التوالد في عُرف الخليقة، وهذا أيضًا يتطلب الـــمُجاسمة، والـــمُجاسمة تتطلب الشريك والشريك كنايةٌ عن الشّبه بالمخلوق؛ والله تعالى مُنـــزهٌ عن ذلك كُله وغيرُه.

ربنا تبرأنا إليك ، فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا؛ نحن المخلوقين.

ولقد قطع الله تعالى الطريق على مُعتقدي هذا، وكذا من زعم مثل هذه الأقاويل والمهاترات، وبيَّنَّ أنّهُ لو فُرِضَ أنّ الله تعالى لهُ ولدٌ، لم يكن الأمر حيئذٍ كما تتوهمون، من أن الولد من التوالد، وهو يجيئ من الشريك، بل الأمر غير هذا، فإنه سيصطفي من المخلوقين الولد، حتى هذا لم ولن يحدُث، لأن الله تعالى واحدٌ أحد، لا شريك لهُ ولا ولدٌ.

يقول الله تعالى :

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

[الزمر: ٤]

وفي هذا الأمر يقول الإمام ابن كثير كلامٌ طيبٌ حسنٌ، يجدُرُ بنا أن نذكُره، فقال: اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليّها على الردّ على النصارى عليهم لعائنُ الله، وكذا من أشبههم من اليهود، ومن مُشركي العرب، ممن جعل الملائكة بناتُ الله.

فأكذبَّ الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولدًا.

فقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنــزه عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا، وإنما لهُ مُلك السماوات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم، ورازقهم، ومقّدرهم، ومسخرهُم، ومسيّرهم، ومصرّفهم كما يشاء، والجميعُ عبيدٌ له وملكٌ له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولِدًا من شيئين مُتناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مُشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبةً لهُ، فكيف يكُونُ لهُ ولد؟

كما قال تعالى:

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

[الأنعام: ١٠١]

وقال تعالى:

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

[مريم: ٨٨ : ٩٥]

وقال تعالى:

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

[سورة الإخلاص]

فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة، أنَّهُ السيّد العظيم، الذي لا نظير لهُ ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيرَهُ مخلوقة لهُ مربوبة، فكيف يكُونُ لهُ منها ولد؟ [(١)].

ثم ساق حديثين يستبين منهما أنّ ادعاء الولد لله، شتمْ عِبادهُ له، أعاذنا الله من كل شر وسوء، نذكُرُ منها حديثًا، والنصّ من صحيح البخاري.

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٨٨، ١٨٩].

فعن ابن عباسٍ ﷺ؛ عن النبي ﷺ قال:

[قال الله: كذّبني ابن آدم و لم يكُن له ذلك، وشتمني و لم يكُن لهُ ذلك، فأمّا تكذيبهُ إياي فزعم أني لا أقدِرُ أن أُعيدُه كما كان، وأمّا شتمُهُ إياي فقوله لي ولد، فسُبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولدا].(١)

وفى آخر له بسنده؛ عن أبي هُريرة ﷺ؛ عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم و لم يكن له ذلك، وشتمني و لم يكُن لهُ ذلك. فأما تكذيبهُ إياي، فقوله: لن يُعيدّني كما بدأني، وليس أوّل الخلقِ بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمهُ إياي فقولهُ: اتّخذ الله ولدًا وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألد و لم أُولد، و لم يكُن لي كُفوًا أحدٌ].(٢)

وفي قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ قال الإمام ابن حجر فى الفتح: واتفقوا على أن الآية نزلت فيمن زعم أن لله ولدًا، من يهود خيبر، ونصارى نجران؛ ومن قال من مُشركي العرب الملائكةُ بنات الله، فردَّ الله عليهم. (٣)

وأمّا ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ما ذكره الإمام ابن حجر فى الفتح، فقال:

وجاء في سبب نزولها من طريق أبي العالية، عن أُبي بن كعب: أن المُشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فنـــزلت؛ أخرجه الترمذي والطبري وفي آخرُه قال: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ (لأنه ليس شيءٌ يُولد إلاّ سيموت، ولا شيء يموت إلاّ سيُورث، وربنا لا يموتُ ولا يُورث ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ شبهٌ ولا

(١) صحيح البخاري [ج٣/ ص ١١١]، وكذا رواه غيره.
(٢) صحيح البخاري [ج٤/ ص ٢٤٨].
(٣) قاله الإمام ابن حجر فى الفتح [ج٨/ ص ١٨].

عدل) [1] وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن أبي العالية مُرسلاً وقال: هذا أصح وصحح الموصول ابن خُزيمة والحاكم، وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى والطبري والطبراني في الأوسط. [2]

وأمّا ما قالته اليهود لعنهم الله:

فقد قال السيوطي في أسباب النـــزول: وأخرج ابن أبي حاتم: عن ابن عباسٍ؛ أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ، منهم: كعب بن الأشرف، وحُيي بن أخطب، فقالوا: يا مُحمد. صِف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾. [3]

وقال: أخرج أبو الشيخ في العظمة، من طريق أبان، عن أنس قال: أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم. خلق الله الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النار، والسماء من دُخان، والأرض من زبد الماء؛ فأخبِرنا عن ربك، فلم يُجبْهُم، فآتاه جبريل بهذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾. [4]

وقال الطبري: ذُكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسبِ ربِّ العزّة، فأنزل الله هذه السورة – يُريدُ سُورة الإخلاص – جوابًا لهم؛ وقال بعضهم: بل نزلت من أجلِ أن اليهود سألوه، فقالوا له: هذا الله خلْق الخلْقَ، فمن خلق الله؟ فأُنزلت جوابًا لهم.

ثم ساق آثارًا بسنده، فعن سعيدٍ قال: أتى رهطٌ من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا مُحمد. هذا الله خلْق الخلْق، فمن خلق الله؟

---

(١) رواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات [ج٢/ ص ٣٩].
(٢) قاله الإمام ابن حجر في الفتح [ج٨/ ص ٦١١].
(٣) ورواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات [ج٢/ ص ٣٨].
(٤) أسباب النـــزول بتفسير الجلالين [ص ٨٣٠].

فَغَضِبَ النبي ﷺ حتى انتُقِعَ لونه؛ ثم ساوَرَهم غضبًا لربه، فجاءهُ جبريل عليه السلام، فسكَّنَه، وقال: اخفض عليك جناحك يا مُحمد، وجاء من الله جوابَ ما سألوا عنه، قال: يقول الله:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

فلما تلا عليهُم النبي ﷺ، قالوا: صِف لنا ربك كيف خَلْقُه، وكيف عَضُدَهُ، وكيف ذِراعه؟ فَغَضِبَ النبي ﷺ أشدَّ من غضبه الأوّل، وساوَرَهم غَضبًا، فأتاه جبريل فقال لهُ مِثل مقالتِه، وأتاه بجوابَ ما سألوه عنه:

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧

[الزمر: ٦٧] [١].

هذا السفّه والله، قد قالهُ الشيطان، إبليس لعنه الله، فقد قاله لسيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد كان يؤذيه بقبيح القول، فكان يأتيه متمثلاً في صورة آدمي، ويسألُه: من خلق الكون، من خلق السماوات، من خلق الأرض، من خلقك، ثم يأخذه في لجة شديدةً وفي موارية وخُبث، فيقُولُ لهُ: من خلق الله؛ فيصرُخ نبي الله مُتسغيثًا، فيُدرِكُه روح الله جبريل عليه السلام.

لعنه الله من شيطان رجيم.

فمن الواضح أن اليهود على درب إبليس سائرون، وقد عاهدوه بأن لا يخلفوا له عهد؛ قبحهم الله، ولعنهم الله بما قالوا.

---

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٤٤٦، ٤٤٧].

وأيضًا وعلى الرغم من أنهم أهل كتاب مُنــزلٌ من عِند الله، إلاّ أنهم أيضًا شابهوا المُشركين من العرب في مقالهم.

فعن أُبي بن كعب ﷺ، أن المُشركين قالوا: يا مُحمد. انسُب لنا ربك فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝﴾ قال: الصمد الذي لم يلد ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ لأنَهُ ليس شيءٌ يولد إلاّ سيموت، وليس شيءٌ يموت إلاّ سيُورث، وأن الله لا يموت ولا يُورث ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ قال: لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء.(١)

وأمّا ما جاء في قوله ﷺ؛ فيما حكاه عن ربّ العزّة سُبحانه وتعالى: (وأما شتمهُ إياى، فقوله: لي ولد) قال الإمام ابن حجر:

إنما سماه شتمًا لما فيه من التنقيص، لأن الولد إنما يكون عن والدة تحملهُ، ثم تَضعْهُ، ويستلزم ذلك سبْق النكاح، والناكح يستدعي باعثًا له على ذلك. والله سُبحانه مُنــزهٌ عن جميعُ ذلك.(٢)

وفي رواية أخرى للبخاري قوله: (وشتمني ولم يكن له ذلك] قال ابن حجر: والمُراد به بعض بني آدم، وهم من أنكر البعث من العرب وغيرهم من عُبّاد الأوثان، والدهرية، ومن ادّعى أنْ لله ولدًا من العرب أيضًا، ومن اليهود والنصارى.

وقال في قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾:

ولما كان الربّ سُبحانه واجب الوجود لذاته، قديمًا موجودًا قبل وجود

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [ج٢/ ص ٥٨٩]، ورواه الترمذي في سُننه [ج٥/ ص ٢٨١]، ورواه الطبري في تفسيره [ج١٥/ ص ٤٥٠] عن أبو سعيد الصّنعاني، وذكره السيوطي في أسباب النــزول [ص ٨٣٠] وعزاه لابن خُزيمة، من طريق أبي العالية، عن أُبي بن كعب.

(٢) قاله الإمام ابن حجر فى الفتح [ج٨/ ص ١٨].

الأشياء، وكان كل مولود مُحدثًا انتفت عنه الوالدية، ولما كان لا يُشبِهُهَ أحدٌ من خلقه ولا يُجانِسُهُ حتى يكون له من جنسه صاحبةٌ فتتوالد انتفت عنه الوالدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ﴾

[الأنعام: ١٠١] [(١)].

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وتقدّست أسماؤه، وتقدّست صفاته، سُبحانه وتعالى، جلّ شأنُه، وعزّ جاهُهُ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي الكريم، ولله الحمد فى الأولى والآخرة، والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) قاله الإمام بن حجر فى الفتح [ج٨/ ص ٦١٢].

قول اليهود عُزيرٌ ابنُ الله



يقول الله عزّ وجلّ:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

[التوبة: ٣٠]

وهي أيضًا سورة برآءة:

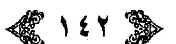
يقول الإمام ابن كثير:

وهذا إغراءٌ من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكُفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرية على اللهِ تعالى، فأما اليهود فقالوا فى العُزير إنّهُ ابنُ الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. [١]

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص، لأن ليس كُل اليهود قالوا ذلك، قاله القُرطبي. [٢]

فهذا من عظيم الفرية على الله تعالى، أن تَنسبَ البشرية، أو أي أهل مِلة، أو جماعة خاصة، أن يَنسِبُوا إلى الله تعالى مِثل هذه الأقوال.

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٣٩١].
(٢) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٣٠٣٠].



فالواقع أن هؤلاء اليهود دومًا يخرُج منهم من يقول ما يعظمُ إثمه، وما يكبُرُ على السامع صداه.

كيف يقوُلُ مِثل هذا من عَلِمَ التوراة، وعَلِمَ منها وعلى لسان نبيه، أنّهُ لا إله إلاّ الله، وحده، لا شريك له، ولا نِدّ له، ولا ولدّ!؟

بل هو الله الأحد، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له شريكٌ فى المُلك، ولا نظير، ولا مُكافئ، ولا ولد له.

سُبحانه وتعالى عما يقُولُ الظالمون علوًا كبيرًا.

لقد وُسِم جبين الأُمة اليهودية بالخزي والعار، لِما صدر عنهم ومنهم مع أنهم أهلُ كتاب.

وعلى الرغم من كل ما قالوه، ومن كل ما فعلوه، ومع سليقتهم الخبيثة، فإنهم قوم مُدّعون، يدّعون أنهم شعب الله المختار، فهل بالله عليك، ولو كانوا كما يقولون؛ فهل ترى منهم ظُلمًا لأحد!؟

فإن الله ليس بظلاّمٍ للعبيد.

فهل يجعلهم ظالمين إذا نُسِبُوا إليه مِن أنهم شعبُ الله المختار؟

هل ترى سفكهم للدماء؟

هل ترى منهم أكل أموال الناسِ بالباطل؟

هل تسمعهم يقولون على الله الكَذِبَ وهم يعلمون؟

هل، وهل، وهل؟

أشياء كثيرة تحتاجُ لإجابة خالصةٍ لله، من غير تزييف ولا تجميل، ومن غير حَمية أو عصبية، ومن غير جَوْر أو ظُلم.

وأنا أعلم مع كل من يعلم أنهم أفّاقُون، وأنهم كذّابون، وأنهم فاسقون، وأنهم سفّاكون لدماء الأبرياء، وأنهم خائنون لمن يأتمنهم، ناقضون للعهود مع من يُعاهدهم، وأنهم مغضوبٌ عليهم إلى يوم الدين، وهم في الأرض أذلاء صاغرون.

وفي سبب نزول هذه الآية ما ذكره ابن هشام في السيرة معزوًا لابن إسحاق، وما أخرجه الطبري في تفسيره وبسنده عن ابن عباسٍ، وما ذكره السيوطي في أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين، عن ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباسٍ.

قال ابن إسحاق:

وأتى رسول الله ﷺ سلاّم بن مِشْكم، ونُعمانُ بن أوفى أبو أنس، ومحمود بن دِحية، وشأس [1] بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا له: كيف نتّبِعُك وقد تركت قِبلتَنا، وأنت لا تزعُم أن عُزيرًا ابنُ الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ إلى آخر القصة.

قال ابن هشام:

يضاهون: أي: يُشاكل قولُهم قول الذين كفروا، نحو أن تُحدِّث بحديث، فيُحدثّ آخر بمثله، فهو يُضاهيك. [2]

يقول ابن العربي:

قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: يعني يُشاهون، ومنه قول العرب: امرأة ضهياء التي لا تحيض، والتي لا ثدي لها، كأنها أشبهت الرجال.

---

(١) قوله: شأس: في رواية الطبري، وابن أبي حاتم في أسباب النـزول للسيوطي: شاس بدون همزة الألف.
(٢) سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٤٩].

وقوله: ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾: فيه ثلاثة تأويلات.

الأوّل – قول عبدة الأوثان: اللاّت والعُزى، ومناة الثالثة الأُخرى.

الثاني – قول الكفرة: الملائكة بناتُ الله.

الثالث – قول أسلافهم، فقلّدوهم فى الباطل، واتّبعوهم فى الكُفر، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢]

وفي هذا ذمُّ الاتباع فى الباطل [١]. وقد ذكر هذا القُرطبي تبعًا له.

وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يقول: لعنهم الله، وكل شيء فى القُرآن (قَاتَلَ) فهو لعن. قاله الطبري. [٢]

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقول: أي وجه يذهب بهم ويحيدون، كيف يَصدّون عن الحق [٣]، وقيل: أي كيف يَضِلُون عن الحق وهو ظاهر، ويعدِلون إلى الباطل؟ [٤].

وحجة من قال بذلك من اليهود – وهي مردودةٌ عليهم – مِن أنّ عُزيرٌ ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ ما ذكره الطبري في تفسيره، وبسنده عن ابن عباسٍ والسُدّي، واللفظ للسُدّى، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قالت ذلك، لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم، وأخذوا التوراة، وذهب علماؤهم الذين بقوا، فدفنوا كُتب التوراة في الجبال، وكان عُزيرٌ غلامًا يتعبد في رءوس الجبال، لا ينزل إلاّ يوم عيد، فجعل الغُلام يبكي ويقول: ربّ تركت بني إسرائيل بغير عالِم! فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه، فنـزل مرّةً إلى

(١) أحكام القُرآن [ج٢/ ص ٩٢٦].
(٢) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٤٥].
(٣) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٤٦].
(٤) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٣٩١].

العيد؛ فلما رجع إذا هو بامرأةٍ قد مُثلت له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول: يا مطعماه، وياكاسياه! فقال لها: ويحكِ، من كان يُطعمُكِ ويكسُوكِ ويسقيكِ وينفعُكِ قبل هذا الرجل؟ قالت: الله.

قال: فإن الله حيٌّ لم يمُت.

قالت: يا عُزير. فمن كان يُعلِّمْ العلماء قبل بني إسرائيل؟

قال: الله.

فلما عرف أنّهُ خُصِم، ولى مُدبرًا، فدعته فقالت: يا عُزير، إذا أصبحت غدًا، فَأت نهر كذا وكذا فاغتسل فيه، ثم اخرج فصلّ ركعتين، فإنه يأتيك شيخ، فما أعطاك فخذه!

فلما أصبح، انطلق عُزيرٌ إلى ذلك النهر، فاغتسل فيه، ثم خرج فصلى ركعتين، فجاءه الشيخ فقال: افتح فمك! ففتح فمه، فألقى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة مُجتمِعًا كهيئة القوارير ثلاث مِرارٍ.

فرجع عُزير، وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل. إني قد جئتكم بالتوراة.

فقالوا: يا عُزير ما كُنت كذّابًا.

فَعمِدَ فربط على كُلّ أُصبع له قلمًا، وكتب بأصابعه كُلِّها، فكتب التوراة كُلّها.

فلما رجع العُلماء أُخبروا بشأن عُزير، فاستخرج أولئك العُلماء كُتُبهُمُ التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال، وكانت في خوابٍ [(1)] مدفونة، فعارضوها بتوراة عُزير، فوجدوها مثلها، فقالوا:

---

(1) قوله: خواب: أي القَرابات، القاموس المحيط [ص ٧٣ - مادة: خ ب ب].

ما أعطاك هذا إلّا لأنك ابنه [1]. وقد ذكر هذا ابن كثير في تفسيره.

وفي لفظ ابن عباسٍ: فقالوا: والله ما أُوتي عُزيرٌ هذا إلّا أنّهُ ابنُ الله، أهـ.

ولهذا عاب الله تعالى عليهم ذلك، وفضح أمرهم من أنهم كذّابون، فإن كان الأمر كذلك، فكان لابد أن تكونوا أطوع عباد الله لله، وأخشاهم له، وأتقاهم له، إلّا أنكم مُفترون، بل اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله.

يقول الله تعالى:

اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

[التوبة: ٣١]

والأحبار: جمع حبر - وهو: العالم.

والرهبان: جمع راهب - وهو: واحد رُهبان النصارى - أي العابد.

أي أنَّ اليهود والنصارى اتخذوا هؤلاء أربابًا من دون الله.

أمَا إنهم لا يعبدونهم كعبادتهم الله عزّ وجلّ، ولكنّ الأمر كما جاء في الحديث الذي رواه عديٌّ بن حاتم، قال:

أتيتُ النبي ﷺ وفي عُنُقي صليب من ذهبٍ فقال: [يا عديُّ. اطرح عنك هذا الوثن]. وسمعته يقرأ في سورة براءة:

اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

[التوبة: ٣١]

---

(١) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٤٣، ١٤٤].

قال: [أمَا أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم إذا أحلوا لهم شيئًا استحلُّوه، وإذا حرَّمُوا عليهم شيئًا حرَّمُوه]. (١)

وفي رواية للطبري:

قال: قُلتُ: بلى. قال: [فتلك عبادتهم]. (٢)

أمَا وإن سيدنا عيسى عليه السلام بريءٌ مما نسبوه إليه - أي النصارى، مِن أنَّهُ ابنُ الله والعياذ بالله من ذلك، فإنّ من قال ذلك من النصارى فقد أتى بابًا من أبواب الشرك، وله جهنم خالدًا فيها وساءت مصيرًا.

انظر إلى تبرئة الله عزّ وجلّ لسيدنا عيسى مما نسبته النصارى إليه وهو منه برآء، يقول الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ

(١) سُنن الترمذي [ج٥/ ص ١٢٢] وقال الترمذي: هذا حديثٌ غريب.

(٢) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٤٧].

جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

[المائدة: ١١٦: ١٢٠]

هكذا أتى الله تعالى بالحوار على صيغة الماضي لوقوعه مستقبلاً لا محالة، لأن الماضي والحاضر والمستقبل عند الله عزّ وجلّ سواء، لأنّهُ لا زمان ولا مكان عنده سُبحانه، ولا تؤثر في ذاته الحوادث، ولا تضيره الأزمان، إذ هو بارئ الزمان والمكان، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، أهـ.

ولذلك، وبخّ الله تعالى هؤلاء الطائفتين، وردّ عليهم ما اقترفوا من الآثام والخطايا، فقال تعالى مُبرأً لعُزيرٌ، ولسيدنا عيسى عليه السلام، وأثبت ما دَعَوَا إليه، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سُبحانه وتعالى عما يُشركون علوًا كبيرًا.

ثم قال تعالى:

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

[التوبة: ٣٢]

يقول القُرطبي:

أي دِلالته وحِججه على توحيده جعْل البراهين بمنـــزلة النور لما فيها من البيان. وقيل: المعنى نور الإسلام، أي أن يُخمِدوا دين الله بتكذيبهم. (١)

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٣٠٣٤].

وقال الطبري:

يعني: أنهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتُعث به رسوله، وصدّهُم الناس عنه بألسنتهم أن يُبطلُوه، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياء، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ يعلو دينه وتظهر كلمته، ويُتمّ الحقّ الذي بعث به رسوله محمدًا ﷺ، ولو كره إتمام الله إياه الكافرون، يعني: جاحديه المُكذبين به. (١)

ولِعظم ما أتيا به الطائفتان من الزُور والافتراء، فقد سمّاهُم ووصفهم بأنهم كافرون؛ فهذا الوصف أو الاسم يُناسب جُرمِهم، وما اقترفتُه أيديهم عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، آمين، أهـ.

---

(١) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٤٩، ١٥٠].

قول اليهود نحن أبناءُ اللهِ وأحبــــاؤُه

لا تجدُ قومًا كفروا بربهم وهم يعلمون ذلك، يُناقضون أنفسهم، ويُكذّبون الماضي والحاضر مما حلّ بهم من العذاب الأليم، ويُخادعون الناس - اللّهُمّ إلاّ المسلمين، لأنهم أعلم بحالهم المُهين القذر - واهمين أنهم أفضل خلق الله عند الله.

وهم الكفرة الفسقة، وهُم عبدة العجل، وهُم من قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله، وهم من قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهُنا قاعدون، وهُم الذين آذوا رسولهم؛ ومع ذلك يقولون في وقاحة لم يُر مثيلٌ لها، وفي تبجح، ما حكاهُ القُرآن الكريم، فجاء قوله:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

[المائدة: ١٨]

قال ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآية الكريمة:

ادعاؤهم أنهم أحباء الله:

وأتى رسول الله ﷺ: نعمانُ بن أضاء، وبَحْريّ بن عمرو، وشأس[1] بن عدي،

(١) قوله: وشأس: هكذا بالهمز، وقد ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره [ج٢/ ص ٤٢] معزوًا لابن إسحاق بسنده عن ابن عباس، وقال: شاس - بدون همزة، وذكره أيضًا السيوطي بدون همزة، في ذيل تفسير الجلالين بدون همزة: شاس.

فكلَّمُوه وكلَّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذّرهم نقمته؛ فقالوا: ما تُخوفنا يا مُحمد، نَحنُ والله أبناءُ الله وأحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. (١)

ذكر السيوطي في ذيل تفسير الجلالين، في لباب النقول في أسباب النـزول، ذكر هذا الأثر معزوًا لابن عباسٍ، برواية ابن إسحاق السالفة، ثم قال:

ورُوى عنه - أي ابن عباسٍ - قال: دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، فأبوا عليه، فقال لهم مُعاذ بن جبل وسعد بن عُبادة (٢): يا معشر يهود: اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنَّهُ رسُول الله، لقد كُنتم تذكُرُونه لنا قبل مبعثه، وتَصِفُونَهُ لنا بصفته، فقال رافع بن حُريملة ووهب بن يهوذا: ما قُلنا لكم هذا، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده، فأنزل الله:

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

[المائدة: ١٩]، أهـ (٣).

وفي رواية ابن إسحاق، ثم قال:

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة [ج٢/ص ١٤٣]، وأورده ابن كثير [ج٢/ ص ٤٢] والسيوطي: [ص ٣٢٥].

(٢) ولقد زاد ابن إسحاق في روايته وكذا الطبري: ثلاثتهم - وعقبة بن وهب؛ وقد سقط من رواية السيوطي.

(٣) أسباب النـزول للإمام السيوطي، بذيل تفسير الجلالين [ص ٣٢٥، ٣٢٦].

ثم قصّ عليهم خبر موسى وما لقي منهم، وانتقاضَهم [1] عليه، وما ردّوا عليه من أمر الله، حتى تاهوا في الأرض أربعين سنةً عقُوبةً. [2]

يا سُبحان الله. هكذا يفعل خلفهم الذين هم شرٌّ من سلف، هكذا أو مثله تقول اليهود اليوم: من أنهم شعب الله المُختار، ومن أنهم الساميون.

اولاً: كونهم يقولون: أنهم شعبُ الله المُختار، فقد افتروا على الله بذلك، وقد نسبوا الظُلم أيضًا إلى الله، لأنهم ظلّمة، والله لا يختار من يظلم لأنّهُ حرَّم الظُلم على نفسه، وجعْلهُ بين عباده مُحرّمًا.

ولأنهم سفّاكُون للدماء، والله رؤوفٌ رحيم، حليمٌ لطيف، فكيف يختار لنفسه من عباده قتلة، سفّاكين لدماء الأبرياء ومن المسلمين!؟

ولأنهم خائنين غير مؤتمنين، فكيف يختارهُمُ الله؟ ولأنهم ناقِضُوا العهود، فكيف يختارُ الله من عباده من لا يؤتمن ولا يفِ بعهد!؟

ولأنهم فسقة كفرة برسوله محمد ﷺ، فكيف يختارُ لنفسه من خلقه فاسقين؟

وكيف يختار لنفسه من يكفُر برسوله ﷺ!؟

وكيف يختار الله لنفسه من اتصف بكُلّ نقيصةٍ ورذيلة، ولم يترُك ولم يدعْ صفةً من صفات الخِسة إلاّ واتصف بها، ولا قولٌ قبيحٍ إلاّ وتفوهوا به، ولا عمل سوءٍ وشر إلاّ وارتكبته أيديهم راضية بذلك أنفُسهُم؟ عليهم لِعائنُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولهم جهنم خالدين فيها والحمد لله ربّ العالمين.

وفي تفسيره يقول الإمام ابن كثير:

---

(١) قوله: وانتقاضهم: أي غدرهم به، وافتراقهم عنه.

(٢) سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٤٤].

أي: نحن مُنتسبُون إلى أنبيائه، وهُم بنوه، وله بهم عناية وهو يُحبُّنا، ونقلوا عن كتابهم أنّ الله تعالى قال لعبده إسرائيل أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه، وقد ردّ عليهم غير واحد ممن أسلم من عُقلائهم، وقالوا: هذا يُطلقْ عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى في كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم: يعني ربي وربكم؛ ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفُسهم من البنوة ما ادّعوها في عيسى الطَّيْلا، وإنما أرادوا من ذلك معْزّتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه. [1]

وقد روى الطبري عن السُديّ قوله:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ أمّا أبناء الله، فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدًا من ولدك أُدخلهم النار، فيكونون فيها أربعين يومًا حتى تُطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم يُنادي مُناد: أنْ أخرِجُوا كل مختون من ولد إسرائيل، فأُخرجهم. فذلك قوله:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ –

وتمام الآية: وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

[آل عمران: ٢٤]

وأمّا النصارى، فإن فريقًا منهم قال للمسيح: ابنُ الله.

فكذا أخبر الله عزّ ذِكرُه عن النصارى، أنها قالت ذلك على هذا الوجه إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ وهو جمع حبيب، يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قُل لهؤلاء

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٤١].

الكذّبة المفترين على ربهم: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾[1]؟ يقول: فَلأيّ شيء يُعذّبكُم بذنوبكم إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه، فإن الحبيب لا يُعذبُ حبيبه، وأنتم مُقرون أنّهُ مُعذبَكُم؛ وذلك أن اليهود قالت:

إنّ الله مُعذّبُنا أربعين يومًا عدد الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يُخرِجُنا جميعًا منها، فقال الله لمُحمد ﷺ قُل لهم: إن كُنتم كما تقولون أبناءُ الله وأحباؤه، فَلِمَ يُعذبَكُمْ بذنوبكم؟ يُعلِمهُم عزّ ذِكرُه أنهم أهل فِرية وَكذبٌ على الله جلّ وعزّ.[2]

ثم قال تعالى رادًّا لُمقولتهم المُفتراه، وادِّعاءِهُمُ الباطل: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لو كنتم كما تدّعون أبناءُه وأحباءه، فَلِمَ أعدّ لكم نار جهنم على كُفرِكُم وكَذبِكُم وافترائكم؟ قاله ابن كثير.[3]

ويقول الطبري:

قُل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناءُ اللهِ وأحباؤه، بل أنتم بشرٌ ممن خلق، ويقول: خلْق من بني آدم، خلقكم الله مثل سائر بني آدم، إن أحسنتم جُوزيتم بإحسانكم كما سائر بني آدم مَجْزيُّون بإحسانهم، وإن أسأتم جُوزيتم بإساءتكم كما غيركم مجزيّ بها.

ليس لكم عند الله إلاّ ما لغيركم من خلّقه، فإنّهُ يغفر لمن يشاءُ من أهل الإيمانُ به (ذنوبهم[4])، فيصفح (عنهم) بفضله، ويسترها (عليهم) برحمته، فلا (يُعاقبهم) بها.

---

(١) قوله: بذنوبكم: هكذا نصّ الآية، وما جاء في المطبوع بين المعكوفتين (ربكم) وهو تحريف ولعلّه خطأ.

(٢) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٢٢٥].

(٣) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٤١].

(٤) قوله: بذنوبهم: هكذا اقتضى السياق على أن تكون بصفة الجمع وكل ما بين المعقوفتين، لجميع ما قبله، وما جاء في المطبوع على الإفراد.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يقول:

ويعدلُ على مَن يشاءُ مِن خلقه، فيُعاقبه على ذنوبه، ويفضحهُ بها على رءوس الأشهاد، فلا يستُرها عليه، وإنما هذا من الله عزّ وجلّ وعيدٌ لهؤلاء اليهود والنصارى، المتكلمين على منازل سلفهم الخَيَّار عند الله، الذين فضَّلهُمُ الله بطاعتهم إياه واجتنابهم معصيته، لُمسارعتهم إلى رضاه، واصطبارهم على ما نابهم فيه.

يقول لهم: لا تغتروا بمكان أولئك مني، ومنازِلهم عندي، فإنهم إنما نالوا مني بالطاعة لي ، وإيثار رضاي على محابّهم، لا بالأماني، فَجدّوا في طاعتي، وانتهوا إلى أمري، وانزجروا عما نَهيتُهم عنه، فإني إنما أغفر ذنوب من أشاء أن أغفرَ ذُنوبه من أهل طاعتي، وأُعذِبُ من أشاءُ تعذيبَه من أهل معصيتي، لا لِمن قَرُبت زُلفة آبائه مني، وهو لي عدّو، ولأمري ونهيي مُخالف.[1]

اللّهُمّ غُفرانك، فأكرمنا ولا تُهِنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منهم، فإن الأرض ميراثُك، ونحن عبيدُك، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

---

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٢٢٦].

قول اليهود لعنهم الله
إن الله فقير

يقول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝١٨١﴾

[آل عمران: ١٨١]

وفي سبب نزول الآية ما ذكره الإمام الطبري في تفسيره وبسنده، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال:

دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدارس [١]، فوجد من يهود ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له فِنحاص [٢]، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْر يُقال له: أشيع.

فقال أبو بكر رضي الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم! فوالله إنك لتعلم أنّ محمدًا رسُول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل! قال فنحاص: واللهِ يا أبا بكر. ما بنا إلى الله من فقر، وإنّهُ إلينا لفقير، وما نتضرعُ إليه كما يتضرعُ إلينا، وإنّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًّا ما

(١) قوله: المدارس: عند ابن إسحاق في سيرة ابن هشام: المِدْراس - وكذا عند غيره ومعناه: البيت الذي كان اليهود يتدارسون فيه دينهم وكُتبهم.

(٢) هو: فنحاص بن عازوراء، وقيل: ابن عازورا، بدون همزة.

استقرض الربا منا كما يزعُمُ صاحِبُكُم، ينهاكم عن الربا ويُعطيناه، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا؛ فَغضِبَ أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده. لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عُنقك يا عدو الله، فأكذِبُونا ما استطعتم إن كُنتم صادقين! فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا مُحمد. انظر إلى ما صنع بي صاحِبُك! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: [ما حملك على ما صنعت؟] فقال: يا رسول الله. إن عدو الله قال قولاً عظيمًا، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضِبتُ لله مما قال، فضربت وجهه؛ فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قُلت ذلك.

فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وفي قول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب:

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

[آل عمران: ١٨٦]

وعن الحسن البصري قال: لما نزلت:

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

[البقرة: ٢٤٥]

قال: عَجِبَت اليهود فقالت: إن الله فقيرٌ يستقرضُ، فنـزلت: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾. (١)

(١) تفسير الطبري [ج٣/ ص ٢٥٨، ٢٥٩].

فنحاص هذا كان من اليهود الذين عاصروا نبي الله مُحمدًا ﷺ، فهو شر خلف لشر سلف، قال ما قال مِثلهُ مثل سلفه الطالح، تشابهت قلوبهم، لعنهم الله.

والأثر فيه من الأقوال القبيحة، والتي خرجت من أفواه ستُلّجم بلجامٍ من حديد من نار إن شاء الله، وساءت له ولأمثاله مصيرًا.

فحينما قال سيدنا أبو بكر ﷺ، لفنحاص لعنه الله: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم! فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل!

إن استهلال صاحب رسول الله ﷺ قد بدأ بالتنبيه المشوب بالحذر للسامع، ثم أتبعه بالنصيحة المُخلِصة، فقال له: اتق الله وأسلم.

ثم ذكّره وخوّفه من الكذِب على اللهِ تعالى، فقال: إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله.

ثم عقبّ بقوله: قد جاءكم بالحق من عند الله؛ فلماذا جعل الخطاب أولاً للفرد، ثم جعله للجماعةِ هُنا؟

لأن محمدًا ﷺ لم يأت لفنحاص وحده وإن كان الخطاب له، وإنما جاء لكل اليهود، بل لكل العالمين إلى يوم الدين، وهذا من بلاغة الصديق ﷺ.

وكما جاء لكل اليهود، فإن تصديق ذلك كان المُراد من قوله: تجدونه مكتوبًا عِندكم فى التوراة والإنجيل؛ نعم. ولكن الظالمين بآيات الله ونعمه ليجحدون.

بعدما ذكرنا قول الخيرّ، نتعرضُ لقول الشر.

قال فنحاص لعنه الله: والله – عليه لعنة الله – يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنّهُ إلينا لفقير.

عليه لعنة الله وقبح الله وجههُ وفاههُ.

قوله هذا عليه لعنة الله، يحتمل معنيان:

الأوّل: معنوي.

فكأنه أراد عليه لعنة الله واليهودّ الذين كفروا، أراد بقوله: إلى الله من فقر؛ أراد أنهم على الهُدى، وأن كتابهم هذا خير الكتب، وإن كان كذلك إلاّ أنهم قد حرّفوه؛ فإذا كانوا على الهُدى فلا حاجة لهم إلى رسُول، ولذلك استغنوا بما عندهم، فقال الهالك: ما بنا إلى الله من فقر.

الثاني: حسي.

أنّهُ أراد لعنه الله حينما عَلِمَ بنـــزول قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فَهِمَ بجهله، ولأنهم أهلُ مادة، لم ترتقي نفوسهم عن الدنايا والخِّسة، فَفَهِم بجهله أن الله تعالى يحتاجُ إلى ما عند عباده حتى يُغنوه، سُبحان الله.

والله إنّهُ لجهل، وبمقالتهم هذه قد ثبت عكس ما ادّعوا حينما بُعِثَ رسول الله ﷺ من أنهم أهلُ علم لوجود الكتاب بين أيديهم، فثبت جهلهم رغم وجوده بحوزتهم.

فمن كان ذا لُبٍّ، أو ذرةٍ من إيمانٍ، أو وميض من نورٍ في قلبه، وآتاه الله من فضله، يقول مثل هذا، أو يُصدّقه. لا!؟

يقول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

[فاطر: ١٥ : ١٧]

فهل يُعقل أنّ الذي بيده خزائنُ السماوات والأرض، وهو الخالقُ البارئُ المصور لجميع خلقه، وهو الذي يُحيي ويُميت، وهو الذي يَرزُق ويُعطي ويهبْ، وهو الذي إليه تُحشرون.

والناس جميعًا بل الخلق كافةً فقراءٌ إليه، عالةٌ عليه سُبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

وأيضًا لا يصدُّر هذا القول إلّا من أفواه الفسقة، لأن الخلق جميعهم ضُعفاء، فكيف يَقدِرُ هذا الفقير الحقير على القويُّ القادِرُ القاهر.

ربنا نتبرأُ إليك.

وقوله لعنه الله: وما نتضرعُ إليه كما يتضرعُ إلينا؛ هل هذا القول يُصدّقهُ أي رجلٍ عاقلٍ ذا قلبٍ واعٍ؛ فهل يلتجئ الخالق إلى المخلوق الحقير سيما لو كان حقيرًا كافرًا فاسقًا؟

والتضرع معناه: الخضوع والذُّل والاستكانة؛ فهل يخضع الخالق للمخلوق؟

وهل يُذلُّ الخالِقُ للمخلوق؟

وهل يستكين الخالِقُ للمخلوق؟

اللّهُمّ. لا؛ فاشهد.

قومٌ فسقة، كفروا بربهم، وأساءوا إلى رسولهم، وجحدوا نِعم خالقهم؛ فلا عجب إذاً أن يكون هذا شأنهم، وهكذا قولهم؛ لعنهم الله دنيا ودين آمين.

وقوله لعنه الله: وإنا عنه أغنياء.

هذا حُمق وسفه؛ فهل يستغني الفقيرُ عن الغني؟ وهل يستغني الضعيفُ الحقير عن القوى العزيز؟ وهل يستغني المُحتاج عن القادر المُقتدر؟

الإجابة باليقين، لا!

وقوله لعنه الله وقبحه: ينهاكم عن الربا ويُعطِيناه، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا.

سُبحان الله، وقاحة تامة، تبجُح على الخالق، من الذي يُرابي، انظر إلى قول الله عزّ وجلّ حكايةً عنهم:

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

[النساء: ١٦٠، ١٦١]

هكذا يفضحُ الله من كفر منهُم، وأخْذهِم الربا وقد نهاهم الله عنه، ولم يكتفوا بالربا بل أكلوا أموال الناس بالباطل.

وليست هذه الصفات القبيحة في عامة الأُمة اليهودية فحسب؛ بل في علمائهم وأحبارهُم، فيقول الله عزّ وجلّ:

إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

[التوبة: ٣٤]

ولقد عاب على أحبارهم ورهبانهم موالاة من يفعل ذلك، وكما جاء في الحديث الشريف أن علمائهم كانوا يأمرون بالخير، وينهونهم عن الشر، فيُصبحوا

وقد تراهم يأكلون معهم ويشربون، ولا يلقون لذلك بالاً، كأن لم يكن بالأمر شيء. فيقول عزّ من قائل:

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

[المائدة: ٦٢، ٦٣]

ولم يقف ظُلمهم وفسقهم وطُغيانهم وكذا كُفرهم عند هذا الحدّ. بل فضح ربُّ العزة أمرهم كُله، إذ منهم المؤتمن، وكثيرًا منهم خائنين غير مؤتمنين، فقال تعالى:

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

[آل عمران: ٧٥]

والآية هذه تحمل من المعاني العظيمة الكثير، منها:

الأوّل:

قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ والقنطار: المال الكثير، أي: منهم من إذا ائتمنته على المال الكثير أدّاهُ إليك والتزم ذلك؛ وقيل: أن الآية جاءت في حق الصحابي الجليل: عبد الله بن سلام؛ وكان قبل إسلامه من أحبار اليهود وعلماءهم، وهذا المقام مقامُ مدحٍ وثناءٍ عليه.

الثاني:

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: ومنهم من إذا ائتمنته على دينارٍ، وهو بجانب القنطار شيءٌ لا يُذكر، إلاّ إنه مع هونِه لا يُؤدى، لأنهم خائنين؛ وقد قيل في تفسير الجلالين: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ لا تُفارقهُ فمتى فارقته أنكره، ككعب بن الأشرف - وكان من علماء اليهود وأحبارهُم - استودعه قُرشي دينارًا فجحده. (1)

وهذه صفتهم الخبيثة، فما كان منهم حين اغتصبوا أرض فلسطين عام ١٩٤٨، سرقوا الأرض والعِرض والمال، واستولوا على أمتعة الناس، ودنسوا المسجد الأقصى وسرقوا ما به من القناديل الباقية - وهي من ذهب - استولوا على الوثائق التاريخية، وعلى المخطوطات وأحرقوها، حرّقهم الله في جهنم، فلا يُقضى عليهم فيها فيموتوا فيستريحوا، ولا يُغفر لهم فيخرجوا، كُلما سقطت جُلودهم، بدّلُهم الله جُلودًا غيرها، قد أنضجها بقدرته، ويقول: ذوقوا عذاب الحريق.

ولذلك أكذّبهم الله تعالى باعتقادهم الفاسد والذي هو من إفكهم ووضعهم، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إذًا فليس بمستغرب أن يحدُث ذلك وغيره الكثير تجاه العرب.

فماذا يُنتظر من قومٍ آذوا نبيهم، وقالوا على الله تعالى الكبائِر الجِسام بجرأةٍ عليه؛ فهل ننتَظِرُ منهم أن يُوادّونا، او يُسالمونا!؟

ان كان هذا اعتقادُنا فهو اعتقاد خاطئ، وقد يَصِلُ إلى حدّ السفه.

---

(1) تفسير الجلالين [ص ٧٦].

انظر إلى حُكم الله فيهم، والذي أوجبهُ عليهم في الحياة الدُنيا؛ وفي الآخرة عذابٌ مُهين، يقول الله تعالى:

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

[آل عمران: ١١١، ١١٢]

هكذا كان أمر الله فيهم، كتب عليهمُ الذِلة والمهانة والمسكنة، إلّا ما كان من عهدٍ بينهم وبين الله، وعهدًا بين الناس.

وبما أنهم نقضوا عُهود الله، فلم يبقى لهم إلّا عُهود المسلمين في الأرض. وإلّا أُخذِوا وقتّلوا تقتيلا.

ومن ثمّ فقد انقلبوا بغضبٍ من الله إلى يوم يلقونه، وذلك حُكم الله فيهم، لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ومن قبل هذا كفروا بِكُل آيات الله، واستهزءوا بها، وأكدَّ الله تعالى ذلك فيهم بقوله ثانية: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: على أوامرنا لهم، وجعْلهم الحلالِ حرام، والحرام حلالً، وعصوا وتجاوزوا كل حدّ من حُدود الله؛ يقول الإمام الطبري:

فأعلم ربنا جلّ ثناؤه عباده، ما فعل بهؤلاء القوم من أهل الكتاب، من إحلال الذِلة والخزي بهم في عاجلَ الدُنيا، مع ما ادّخرَ لهم في الآجل من العقوبة والنكال، وأليم العذاب، إذ تعدّوا حُدود الله، واستحلوا محارمه، تذكيرًا منه تعالى ذِكرُه لهم، وتنبيهًا على موضع البلاء الذي قِبَله أتوا ليُنيبوا ويذّكروا، وعظةً منه

لأمتنا، أن لا يستنوا بسُنتهُم، ويركبوا منهاجهم، فَيسلُك بهم مسالكهم، ويحلّ بهم من نقم الله ومُثلاته ما أحلَّ بهم؛ ثم ساق الإمام بسنده عن قتادة. قوله في الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ اجتنبوا المعصية والعدوان، فإن بهما أهلك من أهلك مَن قبلكم مِن الناس. (1)

وأمّا قول سيدنا الحبر، عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما: فجحد ذلك فنحاص – عليه لعنة الله وأمثاله؛ ومعنى الجحود: الإنكار مع العلم بالشيء.

هكذا فعل فنحاص قبّحهُ الله، أنكر ما قال أمام النبي ﷺ، وهذه هي سليقتهم النُكران والجُحود؛ إلّا أنّ الله تعالى فضح أمرهُ بنــزول الوحي، ومن ناحية أُخرى تصديقًا لصاحِب رسول الله ﷺ سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة والأهل، وكذا التابعين بإحسانٍ إلى يوم الدين.

ثم جاء الخبر من الله تعالى بنــزول قوله تعالى:

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

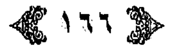
[آل عمران: ١٨٦]

وهذا والله ما نَجِدَهُ ونراه، فإنا نسألُ الله الصبر والتصابُر، فهو العلي القدير، الذي لا يُغلب، ونحن به أعِزاء، ومن دونه أذِلاء مُنكسرين، فقد كتب على نفسه أزلاً؛ وقال وقولهُ الحق:

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

[المنافقون: ٨]

(1) تفسير الطبري [ج٣/ ص-٦٩].



قول اليهود يدُ الله مغلولة غُلت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا

لقد ذكرنا فيما مضى قول اليهود عليهم لعنة الله: مِن أنّ الله فقيرٌ وهُم أغنياء.

هذا قولهم بأفواههم؛ فكيف يُظنُّ بمن يَملكُ خزائنُ السماوات والأرض، بل هو خالق هذه الخزائن، وهو مُوجِدُ العطاء والجُود؛ فكيف يُظنُّ به؟.

أيظنُّ ظانٌّ أنّ الله والعياذُ به، بخيل؛ الإجابة قطعًا وبدون شرح أو أية إيضاحات، أو حتى فلسفيات، الإجابة. لا!

بل هو المُعطي، ومن أسماء صفاته، الوهاب. يَهبُ لمن يشاءُ ما يشاء ويمُنّ عليه.

ومن أسماء صفاته الرزاق. يرزُقُ من يشاءُ بغير حساب ويمُنّ عليه.

وهو المنان ذو المِنّة على عباده، والخلقُ جميعًا عيالُ الله تعالى.

يقول الله تعالى ذِكرُه:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

[المائدة: ٦٤]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وسبب نزول هذه الآية ردًا على قُبح مقالتهم وكُفرهم بها ما أورده الإمام السيوطي في أسباب النـــزول، فقال: أخرج الطبراني عن ابن عباسٍ قال: قال رَجُلٍ من اليهود يُقالُ له: النّباش بن قيس: إن ربك بخيلٌ لا يُنفق. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآية. ثم قال: وأخرج أبو الشيخ من وجهٍ آخر عنه - أي عن ابن عباسٍ - قال: نزلت: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ في فنحاص، رأس يهود قينُقاع. (1)

وقد ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تفسيره، ثم أورد مقالاً آخر في سبب نزول الآية، فيما رواه محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباسٍ قال:

قال رَجُلٍ من اليهود يُقالُ له: شاس بن قيس - أو شأس: إن ربك بخيلٌ لا يُنفق، فأنزلّ الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾. ثم قال الإمام:

وقد ردّ الله عزّ وجلّ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال:

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسدّ والجُبن والذلة أمرٌ عظيم، كما قال تعالى:

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ .. الآية. (2)

[النساء: ٥٣، ٥٤]

---

(1) أسباب النـــزول بذيل تفسير الجلالين [ص ٣٤١].

(2) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٨٨].

فبالنظر والتمحيص فيما ذكرنا، نجدّ أنّ هذا القول صدر عن أُناسٌ عِدة، و لم يصدَّر هُنا من واحدٍ بعينه، وقد قال القُرطبي أيضًا:

قال عِكرمة: إنما قال هذا: فِنحاص بن عازوراء - لعنه الله - وأصحابه، وكان لهم أموالٌ فلما كفروا بُمحمد ﷺ قلّ مَالهم؛ فقالوا: إن الله بخيل، ويدُ الله مقبوضةً عنا فى العطاء؛ فالآية خاصةً في بعضهم، أهـ.

فإن كان قائلُ هذا أُناسٌ معدودة، وليست كل اليهود، فَلما جاء قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كذلك على الجمع في ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، قال القُرطبي:

وقيل: لما قال قومٌ هذا ولم يُنكر الباقون، صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا.[1] وهذا يؤيده ما جاء عن قول بعضهم لبعض في دخول الأرض المقدسة، وكقول بعضهم لمن اعتدوا في السبت:

لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

[الأعراف: ١٦٤]

فمن أجل هذا كانت الوصمة في جبين الأمة اليهودية.

وفي هذا القول تناقُض بيِّن وجلي.

لقد قالت اليهود من قبل: إن الله فقير. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ونحن أغنياء؛ هكذا قالوا.

فإذا سلّمْنا بهذا وعلمنا مقالتهم هذه، من أنهم أغنياء عن الله، والله - والعياذ به - فقيرٌ إليهم.

فكيف يعيب الغني ومن ليس بحاجة. على من هو فقير وبحاجةٍ إلى غيره.

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٣٣١].

فهنا قالوا إن الله يَضِنّ عليهم، سُبحان الله، ألم تقولوا أنكم أغنياء، وأن الله فقير، فلماذا فضحتم أنفسكم بالشِكاية إلى العبادِ من أنكم فقراء وفي حاجة، وأن الله تعالى يَضِنّ عليكم.

يا سُبحان الله. والله إنهم لقومٌ بُهت، وأهل فِرّية وزور، وأهل فِسق، وكفرة.

كيف يعيب المخلوق الضعيف الحقير على خالقه؛ وهذا الضعيف مخلوق من شيء مُهين؛ والله تعالى يسمو بذاته عن كل نقيصة، فهو الذي لا إله إلّا هو، وهو على كُل شيء قدير، وهو خالق السماوات والأرض، وهو الذي يرزُق ويُعطي ويهبّ ويَمُنّ على عباده، وهو الذي يشفي ويُمرِض بقضاءه وقدره، وهو الذي يُحي ويُميت، وهو الذي إليه تُحشرون، وهو الذي يبعثكم إليه ويحاسبكم على ما كسبت أيديكم؛ فيُجازي المُحسن بإحسانه، فهو فضلٌ منه ورحمة.

ويُلقي بالمُسيء منكم والكافرُ به في جهنم، فيهوي فيها مُهانًا، وله عذابٌ مُهين، وله عذابٌ شديد، وله عذابٌ أليم، وكان هذا من الله تعالى عدلاً منه، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ يقول الإمام القُرطبي: أي غُلّت فى الآخرة، ويجوز أن يكون دُعاءً عليهم.

ويقول الإمام الطبري:

يقول أُمْسكت أيديهم عن الخيرات، وقُبِضت عن الانبساط بالعطيات، ولُعِنوا بما قالوا، وأُبعدوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكُفر وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب، والإفك. (١)

---

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٤٠٤].

ثم يقول القُرطبي:

وقيل: المُراد أنهم أبخلُ الخلْق؛ فلا ترى يهوديًا غير لئيم [1]. صدق والله.

وقولهم هذا عليهم لعنة الله ردّ الله به عليهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ قال الطبري: بل يداه مبسوطتان بالبذل والإعطاء وأرزاق عباده وأقوات خلْقه، غير مغلولتين ولا مقبوضتين، أهـ.

وقد يُراد والله تعالى أعلم من التثنية في قوله ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ أنّ فِعْلَهُ على عباده ينحصر في نعمتين اثنين لا ثالث لهُما: النِعم الظاهرة والنِعم الباطنة، ويؤيد الذي قلناه ما جاء في قوله تعالى:

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً

[لقمان: ٢٠]

وقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾

أي: أنّا شاء، ولمن يشاء، يُعطي هذا ويجزلُ العطاء لهذا، ويُقترُ على هذا، ويمنع عن هذا، ويَسلُبُ مِن هذا، وقد جعل الأيام يومان، يومًا لهذا، ويومًا لِذاك، كما قال تعالى: وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ

[آل عمران: ١٤٠]

[فصل]

لقد جاء ذكر اليدِّ فى الآية الكريمة مرةً على الإفراد كما جاء في قول من لعنهم الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وجاء على التثنية في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٣٣٢].

وتفسير اليدِّ هُنا هو إمرارُها كما جاءت، دُون تشبيه، أو تخييل، أو انتساب، وهذا ما عليه الأُمة قاطبةً.

ويدُّ الله تعالى كنايةً عن العطاء والبذلّ والهبة والمِنّة والقُدرة، والقوة والنصر والمنعة، وكذا السلبّ والقتر، فالمُلك مُلكه، ونحن عبيدُه، يفعلُ ما يشاء، ولا يُسئلُ عما يفعل وهم يُسألون.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الحجر الأسود في الأرض يمينُ الله، ثم قال ﷺ: [وكلتا يديه يمين] وهذا الإخبار، حتى لا يتوهم السامع أو المتلقي، أو الذي في قلبه مرض، وينتفي تعاليق الكافر فى الأرض، من أنّ يَدِيهِ تُشبـهُ يدِّ الإنسان يُمنى ويُسرى، حاشاه عزّ وجلّ.

وقد جاء فى القُرآن أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيده، سُبحانه وتعالى.

فالتشبيه في ذات الله مُحالٌ مُحال، وهو لجناب الله خطأٌ جسيم، وذنبٌ عظيم لا تغفره الرحمة ولا العفوية من الله، فإن الله لا يغفرُ أن يُشرك به، ولا أن يُكفر به، ولا أن يُقال في ذاته النقيصة.

فهو الذي :

لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

[الشورى: ١١]

فاليدّ وكما قلنا كنايةً عن العطايا، وهو ما جاء به الحديثُ الشريف، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

[قال الله عزّ وجلّ: أنفق أنفِقُ عليك. وقال: يدُّ الله ملأى لا تغيضُها نفقة، سِحاءُ الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق مُنذ خلق السماء والأرض؟ فإنه لا يَغِض

ما في يده، وكان عرشهُ على الماء، وبيده الميزان يَخفِضُ ويرفع]. [(1)]

شرح مواطن الحديث:

قوله ﷺ: (يدُ الله ملأى) أي مملوءة بالجود والعطاء، وليس من صفته البخل والضين، كما زعمت اليهود لعنهم الله؛ وفي روايةٍ لُمسلم: (يمين الله ملأى).

وقوله ﷺ: (لا تغيضها نفقة)، وفي رواية مُسلم: (لا يغِضُها شيءٌ) أي لا يُنقِصُها، قال الإمام النووي في شرح مُسلم:

يُقال: غاض الماء، وغاضه الله، لازم ومتعدٍّ. قال القاضي - أي عياض: قال الإمام المازري: هذا مما يُتأول. لأن اليمين إذا كانت بمعنى المناسبة للشمال، لا يوصف بها الباري سُبحانه وتعالى؛ لأنها تتضمن إثبات الشمال، وهذا يتضمن التحديد، ويتقدس الله سُبحانه عن التجسيم والحدّ، وإنما خاطبهم رسول الله ﷺ بما يفهمونه، وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقُصهُ الإنفاق، ولا يُمسك خشية الإملاق جلّ الله عن ذلك.

وعبَّر ﷺ عن توالي النعم بسح اليمين؛ لأن الباذِلَ منا يفعل ذلك بيمينه، قال: ويُحتمل أن يُريد بذلك أن قُدرة الله سُبحانه وتعالى على الأشياء على وجهٍ واحد لا يختلِف ضعفًا وقوة، وأن المقدورات تقع بها على جهةٍ واحدة، ولا تختلفُ قوة وضعفًا كما يختِلفُ فِعْلُنا باليمين والشمال، تعالى اللهُ عن صفات المخلوقين ومشابهة المُحدثين.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه [ج٣/ ص ١٦١]، ورواه مُسلم في صحيحه [ج٧/ ص ١١١، ١١٠]، ورواه الترمذي فى السُنن [ج٥/ ص ٩٥]، ورواه ابن ماجة في سُننه [ج١/ ص ١١٣، ١١٤]، والإمام أحمد في مُسنده [ج٢/ ص ٣١٣، ٣١٤] وابن خزيمة في كتاب التوحيد [ص ٦٨، ٦٩]، وذكره السيوطي في الجامع الصغير [ج١/ ص ٣٧٤]، ومحمد المدني في الاتحافات السُنية [ص ٢٣] وفي الأحاديث القدسية [ص ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦].

وقوله: (سحاء) والسح: الصبّ الدائم.

وقوله ﷺ: (وكان عرشُه على الماء، وبيده الميزان يَخفِضُ ويرفع) وفي رواية مُسلم: (وعرشه على الماء، وبيده الأُخرى القبضُ)، وقال الإمام النووي: معناه أنّهُ وإن كانت قُدرته سُبحانه وتعالى واحدة، فإنّهُ يفعل بها المُختلِفات، ولما كان ذلك فينا لا يمكن إلاّ بيدين عبَّر عن قدرته على التصرُف في ذلك باليدين ليُفهِمهم المعنى المُراد بما اعتادوا عليه من الخطاب على سبيل المجاز، وهذا آخر كلام المازري؛ قال الإمام النووي.

وفي قوله ﷺ: [وبيده الأُخرى القبضُ يخفِضُ ويرفع] رواية مُسلم، قال الإمام النووي:

ضبطوه بوجهين؛ أحدهُما: (الفيض) بالفاء والياء المُثناة تحت والثاني: (القبض) بالقاف والباء الموحدة؛ وذكر القاضي: أنّهُ بالقاف وهو الموجود لأكثرِ الرُواة. قال: وهو الأشهر والمعروف، قال: ومعنى (القبض) الموت، وأمّا (الفيض): بالفاء، فالإحسان والعطاء والرزق الواسع.

ثم قال: وجاء في روايةٍ أُخرى: [وبيده الميزان يخفِضُ ويرفع] فقد يكون عبارةً عن الرزق ومقاديرُه، وقد يكون عبارةً عن جُملة المقادير.

ومعنى (يخفِضُ ويرفع) قيل: هو عبارةً عن تقدير الرزق، يُقتِرُهُ على من يشاء، ويُوسِعْهُ على من يشاء، وقد يكونان عبارةً عن تَصَرُف المقادير بالخلق بالعِزّ والذُلّ. والله أعلم، انتهى كلام الإمام النووي. [1]

هذا القول الحق الذي يليقُ بذات الله عزّ وجلّ، ويُناسِبُ جنابه وجلاله على

---

(١) قاله الإمام النووي في شرحه لُمسلم [ج٧/ ص ١١١، ١١٢].

الوجهِ الحقّ، وعلى القول الصِدق؛ لا كما تقول يهود لعنهم الله تعالى دُنيا ودين، اللّهُمّ آمين.

وقد ذكر الإمام ابن خُزيمة في كتابه (كتاب التوحيد) ثلاثة عشر سُنة في ذِكر اليدِّ للهِ تعالى، مُعضضةً ومُؤيدةً بالسُنة النبوية المُطهرة، وقد ذكر معنى اليدِّ قولاً وعملاً عن الله عزّ وجلّ.

وأنها غيرُ مُشبهة، ولا مُمثلة، وكذا بدون تعطيل، وفسرها بالقُرآن والسُنة على معاني عِدة؛ منها: يدِّ القُدرة فى الخلق، والعطاء، والحبس، وبسط الرزق، وبسط اليدِّ بالمغفرة، وكذا القبض، والإحياء والإماتة ... إلخ.

وما إلى ذلك ما كان سبيله الانتساب إلى ذات الله عزّ وجلّ، أهـ.

والله تعالى أعلم ..

وآخر دعوانا أنّ الحمدُ لله ربّ العالمين.

حال اليهود مع ملائكةُ الله تعالى

موقف اليهود من ميكائيل المَلَك عليه السلام



إذا ما تعددت مواقف الخزي والعار من اليهود تجاه جناب الله تعالى، فلا ريب من أن سوء أدبهم مع غير ذات الله أهون؛ إلّا أنّ كل هذا كُفرٌ بالله، لأنّهُ ليس للمَلَك - أي مَلَك بعينه - من الأمر من شيء، بل هم عبادٌ مكرمون، لا يسبِقونهُ القول وهم بأمره يعملون، ومن خشيته مشفقون.

الملائكة خلقٌ من نور، مجبُولون على الطاعة والتسبيح، وهُم مُكلفون من قِبل ذات الله تعالى بأعمال هم بها قائمون، وأعلاهم مرتبة سفير الوحى - وهو جبريل المَلك عليه السلام، ثم يَليهُ ميكال المَلَك عليه السلام الموكل بالخصب والنماء والقطر، وله أعوانٌ من الملائكة، ثم يَليهُ إسرافيل المَلَك، الموُكل بالنفخ فى الصور يوم أن يشاء اللهُ ربُّ العالمين، وله أعوانٌ من الملائكة، ثم يَلَيهُ مَلَك الموت - عِزرائيل - الموكل بقبض أرواح الخلق من بني آدم وما شاء الله، وله أعوانٌ من الملائكة.

ثم بعد ذلك حملة العرش، والملائكة المقُربون، وغير هؤلاء كُلٌ له أعمال هو بها قائم.

ومنهم القائمين لله أبدًا، ومنهم الراكعين له أبدًا، ومنهم الساجدين له أبدًا، لا يفترون عن ذكر الله تعالى ولا يملّون؛ فإذا كان يوم القيامة قالوا خشية غضب الله الواحد القهار: سُبحانك ما عبدناك حق عِبادتك.

اللّهُمّ لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

يقول الإمام البخاري في صحيحه:

وقل عِكرمة: جَبْرَ وَميك وَسَرَافِ: عَبْدٌ؛ إيل: الله. [1]

ويقول الإمام أبو جعفر:

والملائكة جمع مَلَك [2]، غير أن واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر في كلام العرب منه بالهمز، وذلك أنهم يقولون في واحدهم مَلَك من الملائكة، فيحذِفون الهمز منه، ويُحرّكون اللاّم التي كانت مُسْكِنةً لو همز الاسم.

وإنما يُحركونها بالفتح، لأنهم ينقلُون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف الساكنِ قبلها، فإذا جمعوا واحدهم ردّوا الجمع إلى الأصل وَهمّزُوا، فقالوا: ملائكة.

وقد تفعل العرب نحو ذلك كثيرًا في كلامهم، فتترُك الهمز في الكلمة التي هي مهموزة فيجري كلامهم بهمز رأيت، ثم قالوا: نرى، وترى، ويرى؛ فجرى كلامهم في يفعل ونظائرها بترك الهمز، حتى صار الهمز معها شاذًا مع كون الهمز فيها أصلاً.

فكذلك ذلك في مَلَك وملائكة، جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم، وبالهمز في جميعهم؛ وربما جاء الواحد مهموزًا كما قال الشاعر:

فلستَ لإنسيٍ ولكن لملأك ... تحدّر من جوّ السماء يصُوبُ

(١) صحيح البخاري [ج١/ ص ١١١].

(٢) يقول مُحقق التفسير: ولعَلّ الأنسب أن يكون (ملأك) لقوله بعده: غير أن واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر في كلام العرب ... إلخ.

وقد يُقال في واحدهم مألك. [1]

وقولٌ آخر:

الملائكة واحِدُها ملك؛ قال ابن كياس وغيره: وزن مَلَك فعلٌ مِن الـمُلك.

وقال أبو عبيدة: هو مُفعل من لاك. إذا أُرسل، والألوكة والمألكة: الرسالة؛ قال لبيد:

وغــــلامٌ أرســــلته أمّــــهُ ... بـــألوك فبذلـــنا مـــا ســـأل [2]

ومنه أيضًا قولهم: ألكني - أي أرسلني؛ قال الشاعر:

ألكـــني إلـــيها وخـــيرُ الرســـول ... أعـــلمهم بـــنواحي الخـــبر [3]

فأصله على هذا مألك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا: ملأك. ثم سهلوه فقالوا: ملك.

وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق للملك عند العرب. والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصلادمة والصلادم: الخيل الشداد، وَاحِدُها: صلّدم.

وقيل: هي للمبالغة، كعلاّمة ونسّابة، أهـ [4].

نَعُد إلى ما قد بدأنا به من أنَّ الملائكة خلقٌ ممن خلق الله عزّ وجلّ، ولذلك عاب الله تعالى على الذين قالوا فيهم: إنهم إناث، وقال فيهم:

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾

[الصافات: ١٥٠]

---

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٢٨٥، ٢٨٦].

(٢) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٣٠٦، ٣٠٧].

(٣) الموضح في التفسير [ص ٨٧].

(٤) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٣٠٧].

لأن الملائكة أوّل من خلقهم الله قبل الإنس والجن، فهل يحكُم الغائب على ما غاب عنه ولم يُشاهده؟

قطعًا لا يُمكنه أن يحكُم عليه، لأنّهُ وُجِدَ قبل إيجاده هو.

كذلك فعلت اليهود، وكذلك فعل مُشركي العرب، من قولهم في حق الملائكة من أنهم إناث، ومن أنهم بناتُ الله، والعياذ بالله.

أمّا هُنا ادّعت اليهود أنهم يُحبون ميكائيل المَلَك، ويُفضلونه عن جبريل الملَك عليهما السلام.

ولا لهذا ذنبٌ في أنّ اليهود تُبغِضُ هذا، ولا لذاك في أن تُحِبُ هذا.

وهذه مقولة خُبث، الخُبث الذي عَهِدناه فيهم.

فهل يفرح ميكائيل المَلَك، من أنّ اليهود تُحِبُه وتُفضِلُه على نظيرَهُ وهو جبريل الملَك؟

لا!

وهل جبريل الملك، يُبغض ميكائيل الملَك نظير حُب اليهود له، وكُرههم له؟

بالطبع لا!

ما هُم إلّا سفلة، سُفهاء، جُهلاء، فسقة، خُبثاء النفس، خُبثاء السريرة، شيطانيين في علانيتهم، بل فاقوا الشياطين كونهم بشر.

ولذلك كانت دعواهم في هذا وحجتهم أنهم يُسالمون ميكائيل لأنّهُ ملَك السلْم والقطر والخصب والنماء.

يا سُبحان الله. يتكلمون عن السلام، وهم سفّاكون للدماء، متعطشين لها،

لا تروي أنفُسهم الدنيئة إلّا دماء الأبرياء من البشر، ولا تهدأ لهم ثورةً إلّا إذا سعوا فى الأرض فسادًا، وجاثوا فيها.

وهذا ما يحدُثُ منهم في عصرنا الحاضر مع شعب فلسطين والإسلام والمسلمين. عليهم لعنة الله إلى يوم الدين.

فالقلم يعجز عن أن يجد وصفًا دقيقًا لهؤلاء القِردة والخنازير، قبح الله وجوههم.

ولذلك فَطِنَ سيدنا عُمر بن الخطاب لمقالة اليهود حينما ردّوا عليه بقولهم في أمر ميكائيل وجبريل.

ولذلك أيضًا وصفهم الله بالكافرين لجحودهم ما أنزل الله مع من اصطفاه الله، على ما اصطفاه من البشر، وهو خِيرة خلق الله، سيد الأوّلين والآخرين محمداً بن عبد الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه، والذين اختارهم الله له ليكونوا أهلَهُ وعشيرته وأصحابه وخاصته، رضي الله تعالى عنهم أجمعين إلى يوم الدين آمين.

موقف اليهود من جبريل الملك عليه السلام



يقول الله تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

[البقرة: ٩٧، ٩٨]

وقد وردَّ من الآثار ما يبين ويوضح لنا سبب نزول هاتين الآيتين وهو ما رواه القاسم بن أبي بزة:

أن يهود سألوا النبي ﷺ مَن صاحِبهُ الذي ينزلُّ عليه بالوحي، فقال: [جبريل]. قالوا: فإنّهُ لنا عدّو ولا يأتي إلاّ بالحرب والشدة والقتال، فنزلّ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية. (١)

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أقبلت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم. نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اتبعناك؛ أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة، فإنّهُ ليس نبي إلاّ يأتيه مَلَك من عند ربّهِ عزّ وجلّ بالرسالة وبالوحي، فمَن صاحِبُك. قال: [جبريل] قالوا: ذاك الذي ينــزِلُ بالحرب وبالقتال، ذاك عدوّنا. لو

(١) تفسير الطبري [ج١/ ص ٦٠٨].

قُلت ميكائيل الذي ينزلُ بالمطر والرحمة اتبعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ - إلى قوله: فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.[1]

هذه الآثار وغيرها مما لم نذكُره تُفيد بأن الحوار والموقف بين اليهود قبحهم الله، وبين رسول الله ﷺ، وقد كان يطمع في إسلامهم لله تعالى، ولكنهم أهل جحود، وأهل كُفر.

وهناك أثرٌ آخر وموقف مُغاير لهذا بين اليهود وسيدنا عُمر بن الخطاب ﷺ، والجمع بينهما مفاده: أن الآية قد نزلت على رسول الله ﷺ ردًّا على موقف اليهود مِن المَلَك جبريل الطَّيِّلا، وانتصارًا له.

ثم ما لبث الزمن إلاّ وأن تكرر الموقف مع سيدنا عُمر واليهود، فردّ سيدنا عُمر على اليهود بلسان المؤمن الواثِقُ في دينه وشرعه وأركانه وعقيدته، ثم أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله عزّ وجلّ قد أنزلّ في ذلك قُرآنًا يُتلى، ولم يكن لدى سيدنا عُمر عِلم بنــزول قول الله عزّ وجلّ؛ وذلك ما جاء عن ابن عباسٍ ﷺ، أنّهُ قال:

حضرت عِصابة [2] من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم. حدثنا عن خِلالٌ [3] نسألك عنهُن لا يعلمهن إلاّ نبي! فقال رسول الله ﷺ: [سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقُوبُ على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتُتابِعُنّي على الإسلام]. فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: [سلوني عما شئتم!]. فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهُن!

---

(١) أسباب النــزول للواحدي [ص ٣٦].

(٢) قوله: عصابة: أي جماعة.

(٣) قوله: خلال: أي صفات.

أخبرنا أيُّ الطعام حرّم إسرائيلُ (١) على نفسه من قبلِ أن تُنـــزّلّ التوراة؟

وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟

وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومَن وليّه الملائكة؟

فقال رسول الله ﷺ: [عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتُكُم لتُتابِعُنّي!] فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: [نشدتُكُم بالذي أنزلّ التوراة على موسى؛ هل تعلمُون أن إسرائيل مَرِضَ مَرَضًا شديدًا فطال سقمُه منه، فنذر نذرًا لئن عافاه الله من سقمه ليُحرّمنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل؟] - قال أبو جعفر: فيما أُري (٢): [وأحبّ الشراب إليه ألبانُها] - فقالوا: اللّهُمّ نعم. فقال رسول الله ﷺ [أُشهد الله عليكم وأُنشدُكُم بالله الذي لا إله إلّا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أنّ ماء الرجُل أبيض غليظ، وأنّ ماء المرأة أصفرٌ رقيقٌ، فأيُّهما علا كان لهُ الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماءُ الرجُلِ ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماءُ المرأة ماء الرجُل كان الولد أُنثى بإذن الله (٣)؟] قالوا: اللّهُمّ نعم! قال [اللّهُمّ اشهد]. قال: [وأُنشدُكم بالذي أنزلّ التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأُمي تنام عيناهُ ولا ينام قلبُه؟] قالوا: اللّهُمّ نعم! قال: [اللّهُمّ اشهد] قالوا: أنت الآن تُحدثُنا مَن وَليُك من الملائكة؟ فعندها نُتابِعُك أو نُفارِقُك. قال: [فإن وليّ جبريلُ، ولم يبعث الله نبيًا قطُّ إلّا وهو وليُّهُ]. قالوا: فعندها نُفارقُك، لو كان وليُك سواهُ من الملائكة تابعناك وصدّقناك. قال [فما يمنعُكم أن تُصدّقوه؟]. قالوا: إنّهُ عدوّنا. فأنزل الله عزّ وجلّ:

---

(١) قوله: إسرائيلُ: هو نبي الله يعقوب عليه السلام.

(٢) قال محقق التفسير: والصواب: فيما أروي. قُلت: وهذه المُداخلة ليست بشيء، ولا تحتاج النصر لها.

(٣) هذه الحقائق العلمية قد أثبتها الإسلام على لسان نبينا ﷺ منذ ما يُقارب الألف والنصف من الألف من السنين، ولم يهتدي لها عُلماء الطب إلا من وقتٍ قريب.

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

إلى قوله: كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

[البقرة: ٩٧ : ١٠١]

فعندها باءوا بغضبٍ على غضب. [١]

روايةٌ أُخرى:

فعن الشعبيّ قال: قال عُمر بن الخطاب ﷺ: كُنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة القُرآن التوراة، وموافقة التوراة القُرآن، فقالوا:

يا عُمر. ما أحد أحبُّ إلينا منك؛ قُلت: وَلِمَ. قالوا: لأنك تأتينا وتغشانا؛ قُلت: إنما أجيءُ لأعجب من تصديق كتاب الله بعضُه بعضًا، وموافقة التوراة القُرآن، وموافقة القُرآن التوراة؛ فبينما أنا عندهم ذات يوم إذ مرَّ رسول الله ﷺ خلف ظهري، فقالوا: إنّ هذا صاحبُك فقُم إليه، فالتفتُ إليه، فإذا رسول الله ﷺ قد دخل خوخة من المدينة، فأقبلتَ عليهم فقُلت: أُنشدكم بالله وما أنزلَ عليكم من كتاب؛ أتعلمون أنّهُ رسول الله، فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبرّوه. فقالوا: أنت سيدُنا فأخبره، فقال سيدهم: أنّا نعلمُ أنّهُ رسول الله. قال: فقُلت: فأنت أهلكهم. إن كُنتم تعلمون أنّهُ رسول الله ﷺ ثم لم تتبعوه؛ قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكة، وسلمًا من الملائكة؛ فقلتُ: من عدوّكم ومن سَلِمَكُم؟

قالوا: عدوّنا جبريل. وهو مَلِك الفظاظة والغِلظة والإعسار [٢] والتشديد؛ قُلت: ومن سَلِمكُم؟

---

(١) رواه الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٦٠٦، ٦٠٧]، وأحمد في مُسنده [ج١/ ص ٢٧٨] وكذا غيرهما بسند منقطع، ورواه الواحدي في أسباب النــزول متصلاً وإسناده حسن مُختصراً [ص ٣٢].

(٢) قولهُ: والإعسار: هذا هو الصحيح وقد نقلته نصًا من تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٥٧]، وتفسير الطبري [ج١/ ص ٦٠٩]، وما ورد فى المطبوع قوله: والإصار. وهو خطأ وما أوردناه أصح ولله الحمد وهو أعلم.

قالوا: ميكائيل. وهو مَلك الرأفة واللين والتيسير؛ قلت: فإني أُشهدكم. ما يحِلُّ لجبريل أن يُعادي سَلِم ميكائيل، وما يَحِلُّ لميكائيل أن يُسالم عدوّ جبريل، وإنهما جميعًا ومن معهما أعداءٌ لمن عادوّا، وسَلِمَ لمن سالموا؛ ثم قُمت ودخلت الخوخة التي دخلها رسول الله ﷺ، فاستقبلني فقال: [يا ابن الخطاب. ألا أُقرؤك آيات نزلت عليّ قبل] قُلتُ: بلى. فقرأ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ﴾ – الآية حتى بلغ: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قُلتُ: والذي بعثك بالحق. ما جئتُ إلاّ لأُخبرك بقول اليهود، فإذا اللطيف الخبير قد سبقني بالخبر. قال عُمر: فلقد رأيتني أشدّ في دين الله من حجر، أهـ.

ثم ذكر الواحدي بعد ذِكرهُ حديث عُمر وبسنده حديثًا آخر عَقِبْه، فقال: وقال ابن عباسٍ: أن حبرًا من أحبار اليهود من فدك يُقال له: عبد الله بن صوريا.

حاج [1] النبي ﷺ فسأله عن أشياء، فلما اتجهت الحُجة عليه قال:

أيُّ ملك يأتيك من السماء؟

قال: [جبريل. ولم يبعث الله نبيًا إلاّ وهو وليّهُ] قال: ذاك عدوّنا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنا بك، إن جبريل نزل بالعذاب والقتال والشدّة فإنه عادانا مِرارًا كثيرة، وكان أشدّ ذلك علينا أنّ الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيُخرّب على يدٌ رجُل يُقالُ له: بختنصر، وأخبرنا بالحين [2] الذي يُخرّب فيه، فلما كان وقتُه بعثنا رجُلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلب بختنصر ليقتُلهُ، فانطلق يطلبُه حتى لَقيَهُ ببابل غُلامٌ مِسكينًا ليست له قوة فأخذه صاحبُنا ليقتُله، فدفع عنه جبريل وقال لصاحبُنا:

(١) قوله: حاج: أي جادله وخاصمه.

(٢) قوله: الحين: أي: الزمن أو الوقت أو المدة أو الدهر.

إن كان ربكم الذي أذنَ في هلاككم فلا تُسلط عليه، وإن لم يكن هذا فعلى أيِّ حق تقتُله؛ فصّدقُه صاحبُنا ورجع إلينا، وكَبِرَ بختنصر وقويَّ وغزانا وخرّب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدوًّا، فأنزلّ الله هذه الآية. أهـ.

صورةً أُخرى لافتراءاتهم وادعاءاتهم الهزيلة، وحججهم الواهية.

قال الواحدي: قال مُقاتل:

قالت اليهود: كان جبريل عدوّنا؛ أُمِرَ أن يجعل النبوة فينا، فجعلها في غيرنا، فأنزلّ الله هذه الآية، أهـ [1].

وإليك أخا الإسلام نسوق بعض ما قالوه، ونفنده في صورة شرح مُستعينين بالله وحده، فنقول:

أوّل ما نبدأ به من أقوالهم الوَهِينة الهذيلة، قولهم حينما أتوا رسول الله ﷺ وسألوه عن بعض الصفات.

لقد كان اليهود يجيئون إلى رسول الله ﷺ، وكذلك إلى المسلمين من صحابته، وما مجيئهم إلاّ سُخريةً واستهزاءً، واستعلاءً على الرسول وصحابته، لأجل أنهم أهل كتاب، ومعنى هذا أنهم أهل علم، وبطبيعة الحال الرسول ﷺ وصحابته، بل والعرب أُميون.

فمن هنا كانت المزية التي كانت يتباهون بها، عليهم؛ وهذا جهل. لأن الذي أنزل على نبيهم التوراة، هو الذي أرسل محمدًا ﷺ، وأنزل عليه الكتاب، وعلّمهُ

(١) روى ذلك الواحدي في أسباب النـزول [ص ٣٦، ٣٧، ٣٨]، وكذا الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٦٠٨، ٦٠٩]، وبمثله قال ابن إسحاق في سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٢٥، ١٢٦] عن شهر بن حوشب الأشعري.

الحكمة، وآتاه فصل الخطاب، وجوامع الكلم (صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا)؛ وجعل صحابته، بل وأمته شُهداء على الناس، بل على الأمم الغابرة، فأي عِلمٍ عَلِمتهُ اليهود، فإذا علمنا ذلك انتفت مزيتهم واضمحلت، قبحهم الله.

وإذا ما عَلِمنا ذلك، لم نجد من القول ما يوضح موقفهم من الرسول وأمته، إلّا أن نقول:

هذا جهلٌ منهم، وكُفر بالرسول ورسالته، وقد أُمروا أن يؤمنوا به ويتبعوه لموافقته ما عندهم، وقد جاءهم صفته فى التوراة.

ننتقل إلى موقفٌ آخر:

لقد أخذ رسول الله ﷺ عليهم من العهود والمواثيق، مِن أنهم إذا عَلِموا بجواب سُؤلهم، يتبعوه، ويؤمنوا به، ويُسلِمُوا لله تعالى.

قالوا: نعم.

فإذا برسول الله ﷺ يسترسل فى الجواب، وإذا ما أحسوا بذكر جبريل عليه السلام، استوقفوا رسول الله ﷺ، وجدّدوا عهدهم بحيثُ إذا نقضوه يكن الأمر طبيعي بُمخالفة ما يُلقي على مسامعهم هواهم ورغبتهم.

ولكن لا غرابة في هذا؛ فهل هُناك أيّ شيء أكبر من عهد الله وميثاقه؟

الإجابة: لا!

لقد نقضوا ميثاقهم مع ربهم، وخانوا عهده ونقضوه، فليس إذًا بمستغرب، وليس ثمة شيء يدعونا للتعجب إذًا.

فهذه جبلتهم القبيحة الخبيثة.

موقفٌ آخر:

لقد عَلِموا صفة النبي الأُمي، والتي هي في توراهم قبل التحريف والتبديل، وهي: تنام عيناه ولا ينام قلبه.

ومع ذلك لم يؤمنوا؛ يا سُبحان الله.

موقفٌ آخر:

لقد أقروا بلسان حالهم، وبنطق اللسان، وبإقرار الجوارح، بأن جبريل عدوّهم، وميكائيل سَلِمَهُم.

يقول الإمام الطبري:

وهذا خبرٌ من الله جلّ ثناؤه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ من عاداه وعادى جميع ملائكته ورُسله، وإعلامٌ منه: أنّ مَن عادى جبريل فقد عاداه وعادى ميكائيل وعادى جميع ملائكته ورُسله.

لأن الذين سمّاهم الله في هذه الآية هُم أولياء الله وأهلُ طاعته، ومن عادى لله وليًا فقد عادى الله وبارزه بالمُحاربة، ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته.

لأن العدوّ لله عدوّ لأوليائه، والعدوّ لأولياء الله عدوٌ له.

فكذلك قال لليهود الذين قالوا: أن جبريل عدوّنا من الملائكة، وميكائيل وليّنا منهم.

ثم قال الإمام:

فإن قال قائل أوَ ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل: بلى.

فإن قال: فما معنى تكرير ذكرهُما بأسمائهما، وقد مضى ذِكرهُما في الآية في جملة أسماء الملائكة؟

قيل: معنى إفراد ذِكرهُما أن اليهود لما قالت: جبريل عدّونا وميكائيل وليُّنا، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجلِّ أنّ جبريل صاحب محمد ﷺ، أعلّمهُم الله أنّ من كان لجبريل عدوًّا فإن الله له عدوّ، وأنّهُ من الكافرين.

فنصّ عليه باسمه وعلة ميكائيل باسمه، لِئلا يقول منهم قائل: إنما قال الله: من كان عدوًّا لله وملائكته ورُسله: ولسنا لله وملائكته ورُسله أعداء؛ لأن الملائكة اسم عام مُحتمل خاصًّا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه.

وكذلك قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ فلست يا مُحمد داخلاً فيهم.

فنصّ الله تعالى على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعينهم ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويههم أمورهم على المنافقين.

وأمّا إظهار اسم الله في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وتكريره فيه، وقد ابتدأ أوّل الخبر بذكره فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ فلِئلا يلتبس – لو ظهر ذلك بكناية، فقيل: فإنّهُ عدوًّا للكافرين – على سامعه مَن الـمَعْنّي بالهاء التي في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أالله أم رُسُلِ الله جلّ ثناؤه، أم جبريل أم ميكائيل؟

إذ لو جاء ذلك كنايةً على ما وصفت، فإنه يلتبس معنى ذلك على من لم يوقف على المعنى بذلكِ لاحتمال الكلام ما وصفت. (1)

لما تُحب اليهود ميكائيل المَلَك الْعَلِيْهِ؟

(1) قاله الطبري في تفسيره [ج1/ ص ٦١٦، ٦١٧] مع بعض التصرف.

فالجواب في قولهم هُم مِنْ أنّهُ: ملَك القطر والخِصب، وأنّهُ ينـــزل بالغيث والرحمة؛ يا سُبحان الله.

قولهم هذا يحمل معنيين:

الأوّل:

أنهم يعلموا غيب السماوات والأرض، ومن موكل إليه عملٌ ما، ومن هو دون ذلك، والأفعال والمقادير مُختلِفة ومُتغايرة باختلاف الأزمنة والدهور، وتعاقب الأُمم، وتغير أحوالهم.

ولو عَلِمنا مقالتهم لَعلِمنا كذبهم وافترائهم على الله تعالى وملائكته.

الثاني:

رميهم ملائكةُ اللهِ بما ليس فيهم، فجبريل هذا هو سفير الملائكة، وهو مأمورٌ من قِبل الله تعالى بأمور، كما كُلِفَ ميكائيل وسائر الملائكة.

وإذا كان هذا كما زعمتم ينـــزل بالغيث والقطر والرحمة والخصب، وذاك ينـــزلٌ بالعذاب والشدة والنقمة، فهل ينـــزلّ كُلٌّ منهم أو غيره بأمرٍ من عنده، أم هو بعلم الله وأمره وقدره!؟

فإذا قلنا كلٌ من عند الله وبأمره، ويصدق هذا قوله تعالى:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

[مريم: ٦٤]

فبهذا ينتفي كذبكم وافتراءاتكم على الله وملائكته.

أو ليس جبريل هذا هو الذي ساعد نبيكم على الظهور على فرعون لعنه الله، وبذا أنجاكم من عدوكم وأغرقه وجنوده.

انظر إلى ما رواه ابن عباس ﷺ، أن النبي ﷺ قال:

[إن جبريل كان يدُس في فَمِ فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله].(١)

وعن أبي هريرة ﷺ، قال النبي ﷺ:

[قال لي جبرائيلُ: يا مُحمدُ لو رأيتني وأنا أغُطّهُ وأدُسُّ من حمئه في فِيهِ مخافة أن تَدْرِكهُ رحمةُ الله فيغفِرُ له] يعني فرعون. (٢)

فرعون هذا عدوّ الله، وعدوّ نبيه، وعدوّكم يا بني يهود، استحيا نسائكم، وذبّح أبنائكم، وسخرّكم في أرذلّ الأعمال وأخسها، وأهانكم.

فجعل جبريل يفعل فيه ذلك، حتى لا ينطق بلا إله إلاّ الله، فيغفر الله له لأنّهُ هو الغفور الرحيم، الحليم اللطيف.

وما كان فِعل جبريل إلاّ انتصارًا لله، وغضبًا لله، ليس لمصالح ذاتية، ولا لُمشاحنات ولا لأموالٍ بينهم، وإنما هو الانتصار لله وحده.

فهل جزاءهُ أن تِنسبُوا له ما ليس فيه، وما ليس منه، قبحكم الله، ولعنكم الله إلى يوم الدين.

---

(١) رواه أحمد في مُسنده [ج١/ ص ٢٤٠]، ورواه الحاكم في مُستدركه [ج٢، ص ٣٧٠]، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه، إلاّ [أن] أكثر أصحاب شعبة، أحد رواته - أوقفوه على ابن عباسٍ، وله عند الترمذي [ج٥/ ص ١٣٢] بطريق أُخرى، وقال: هذا حديثٌ حسن، وذكره الإمام السيوطي في جمع الجوامع [العدد الثالث من [ج٢/ ص ٣٨١٧] وفي الجامع الصغير [ج٢/ ص ٣٧٨] وعزاه لأحمد والحاكم، وسكت عنه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره بطرق عِدة [ج٧/ ص ٢١١].

ثمة شيءٌ آخر يؤخذ من حُبهم، أو ادعائهم محبة ميكائيل، ومن بغضهم لجبريل عليه السلام.

فميكائيل مُوكلٌ بالقطر والغيث، وبهما تكون الحياة على وجه الأرض، فَيدلُّ هذا على أنهم يُحبونه ليس حُبًّا لله وفى الله، بل يُحبونه لأن الله وَكلَّ له سوق السحاب لسوق المطر، وبه تحيا الأرض ومَن عليها مِن كائنات، فحُبهم له حُبهم فى الحياة، لا حُبًّا فيه.

وكذا بغضهم لجبريل عليه السلام - بغضَهم الله، وكُل كائنٍ حي - لم يكن بُغضًا لله وفى الله، وإنما بغضهم له لأنه ينتصر لله بأمر الله من كل ظالم متكبر فى الأرض، ولأنهم أهل ظُلم وكِبر يخافون بطشه، ولأن جبريل سلّطه الله على كل طاغي سفّاك للدماء، مُعاند للحق، مُخالف لتعاليم مَن فى السماء، عاصيًا لرُسُله؛ فهم يُبغضُونه لأنهم طُغاة، ولأنهم سفّاكون للدماء، ولأنهم غير أُمناء، ولأنهم غير متصفين بالعدل والعدالة، فهم يخافونه أن يبطُش بهم كما فعل بأسلافهم وبكل من شاكلهم لعنهم الله تعالى .

ولذلك أتعجب من حكام المسلمين، كيف يسمحون لأنفسهم، وهم أوسط الأُمم وهم أهلُ الدينِ الخاتم، وهم أتباع خير رسول وخاتم النبيين، وهم حملة كتاب الله القُرآن الكريم؟

كيف يسمحون لأنفسهم بأن تحكمهم المؤسسات اليهودية، وتتحكم فيهم كما يتحكم السيدُ فى العبد؟ هل تسير عجلة الزمان عكس مسيرها؟

هل هانت علينا كرامتُنا الإسلامية، فأصبحنا لا نُبالي ولا نعبء بأيٍّ من هذه الأمور الجسيمة؟

نسأل الله العفو والعافية فى الدين والدُنيا، آمين.

موقفٌ آخر:

قولهم لعنهم الله تعالى لسيدنا عُمر: يا عُمر. ما أحد أحبُ إلينا منك؛ قال لهم سيدنا عُمر مستوضحًا السبب: قُلت: وَلِمَ. قالوا: لأنك تأتينا وتغشانا.

يا سُبحان الله. هُم أهل جُبن وخُبث ومكرٌ سيئ، فهم لا يقولون هذا حُبًا في سيدُنا عُمر لذاته وَلِشخصه؛ بل لأنهم يعلمون أن بطشه وسطوته للحق وفى الحق، ولا يخشى فى الله لومة لائم ما ليس له بمانع، ولا منعة.

وما كان مجيء سيدُنا عُمر وتَغْشَيتهُ إياهُم حُبًا فيهم، بل على العكس من ذلك، فهو يُبغضهم لله وفى الله، يُبغِضهُم بُغضه للشر، والباطل، وما كان مجيئه لهم إلاّ لِسببٍ هو أبان عنه وأعلنه صراحةً، وهو: تعْجُّبِه مِن موافقة التوارة ما جاء في القُرآنِ، وموافقة القُرآن والذي هو يحفظه ويعلم ما معهم من التوراة، وذلك حين يسمعه منهم؛ وكان هذا هو السبب الرئيسي والأساسي والوحيد.

موقفٌ آخر:

يقول سيدُنا عُمر: فأقبلت عليهم فقُلت: أُنشدكم بالله وما أنزلَّ عليكم من كتاب؛ أتعلمون أنّهُ رسول الله، فقال سيدهم، قد نشدكم الله فأخبرّوه. فقالوا: أنت سيدُنا فأخبرّه، فقال سيدهم: أنّا نعلم أنّهُ رسول الله.

انظر إلى المعاني الدفينة والتي هي وراء حوارهم بعضهم لبعض مخافة أن يقولوا كلمة الحق.

لقد استحلفهم سيدُنا عُمر بأغلظ أيمانهم، مُستنطقًا إياهم كلمة الحق، وشهادة صِدق، على أنّ مُحمدًا ﷺ رسول الله ﷺ.

انظر إلى فعلهم وردّهم.

قال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبرّوه.

من المفترض أن سيدهم هذا هو عالمهم وحبرهم وكبيرهم، فإذا ما قال بشيءً هو عندهم خبر يقين، فلا شك ولا ريبة في كلامه، ونُطقه حق؛ إلّا أنّ الواضح من كلام سيدهم؛ أنّهُ أبى أن ينطق بكلمة حق، وردّ الجواب لهم، وترك حُرية الجواب، أو الرفض؛ يا سُبحان الله.

وكذلك فعلوا هُم؛ قالوا: أنت سيدُنا فأخبرّه.

أيضًا مِثله فعلوا، لم يُجيبوا عن سُؤال سيدنا عُمر، وأبوا أن يقولوا كلمة حق، فهذه ليست من طبيعتهم، ولا الصدق صفتهم، فهم أهلُ مِراء، وفرية، وكذا أهل فِسق وضلال، وأهلُ كَذِب وخيانة.

ففي هذه الحالة ظلّت كلمة الحق المُنتظرة من جوابهم حائرة بين القوم وبين عالمهم.

وما أن نطق بكلمة الحق كارهًا، مخافة أن يرميه سيدُنا عُمر بالكذب، ومخافة أن لا يجيئهم ثانيةً، وهو بالنسبة لهم مجيء أمن وحصانة؛ قال بالحق مِن أن نبينا محمدًا ﷺ رسول الله ﷺ.

ومع ذلك يقولون الحق، ولا يفعلون به، يقولون الحق ويخالفون أيضًا.

هكذا تفعل بَذرتهم، تلك البَذرة الخبيثة العَكِرة، انظر إلى ما يفعلوه مع المسلمين ومع العرب؛ بل مع النصارى، أو حتى مع أهل الملل الأُخرى.

يُقتّلون المسلمين، ويؤُذونهم أشدّ الأذى، وتراهم يبكون بُكاء الخِنزير؛ -

يفعلون ما يفعلون وراء كلمات وعبارات وصّافة، ويقولون: أنهم يدافعون عن حقوقهم، وهم فى الأصل لصوص سارقون، ليس لهم أيُّ ذرة حق.

يقولون: أنهم أهلُ عدالة، وهم فى الحق ظلّمة، ليس من صفتهم العدل، وهذا بشهادة تاريخهم الأسود القاتم القبيح، سواءً مع أنبيائهم، أو مع من عاصروه من البشر، أو حتى مع أنفسهم ذاتِها.

ماذا نقول ثانية؟.

فهم أتوا بكل شر، وقد أتوا بكل سيئ، وقد أتوا بكل قبيح، بل قد أتوا بكل شيء قولٍ كان أو فعل هو كُفر.

فالأمر لله وحده، هو فعّالٌ لما يُريد، وما ندري أشرٌ أُريد بنا، وهو من جرّاء ما كسبت أيدينا، أم أراد بنا ربُّنا رشدا.

فلا حوّل ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

أخيرًا وليس آخرًا:

قالت يهود:

(كان جبريل عدوّنا؛ أُمِرَ أن يجعْلَ النُبوة فينا، فجعلها في غيرنا).

هذا القول وغيره، يُبين مدى جهلهم، ومع ذلك يدّعون العلم والمعرفة، فأيُّ بجاحة على الخالق، وأيُّ وقاحة مع العباد ينتهجون طريقها.

فإني أتسائل: **هل يُعقل** أن يؤمر جبريل الملك عليه السلام من قِبل الله تعالى، أن يحمل وحي الرسالة وبلاغ الله إلى خلقه، إلى أي إنسان غير الذي اختاره الله واصطفاه؟

اللهُمّ إن هذا إلاّ قول سُفهاء فاسقين.

ولا يُصدق أو حتى يكون مجالاً لبعض الريبة لأشياء عِدة:

منها:

أنّ الذي يصطفي ما يشاءُ من عباده هو الله تعالى، يقول تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾

[الحج: ٧٥]

إذن فلا جبريل أو أي مخلوق قد خلّقهُ الله في هذا الكون له أيٌّ من الكلمتين: الكونية أو الشرعية.

فلا أحد يملُك أنْ يَحول دون ما قضى الله، أو يُغير ما أراد الله تعالى، فكُل شيء تحت قهره وتصرفه، والكُل تحت بصره، والكُل في قبضت قدره، فأيُّ سماء غير السماء تَظلُ البشر، وأيّ أرضٍ غير الأرض تَقلُ البشر؛ إذن فالكُل في قبضت يمينه، والكُل مخلُوقٍ له، مربوبٍ له، سُبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

ثانياً:

ما معنى أن النُبوة قد أُمِرَ بها جبريل بأن تكون في بني إسرائيل، ثم يخالف هذا الأمر ويجعلها فى العرب.

معنى هذا أنّ الإله والعياذُ بالله قد غَفِل عما فعل جبريل عبده، وهذا مُحال على الله تعالى.

ثالثاً:

أنّ الله قد عَلِمَ بما قد فُرِضَ عليه مِن جرّاء تصرُف جبريل المَلَك، فَضعُف

الإله أن يقضي ما أراد في مُلكه، وفي مخلوقاته، وهذا أيضًا مُحالٌ على الله تعالى والعياذُ بالله.

رابعًا:

القُرآن. وهو كتاب أهل المِلة الـحَنيفية السمحة، وهو نهجُنا المستقيم، لم ينــزلّ على رسولنا ﷺ جُملة واحدة، بل نزلَّ مُنجمًا متفرقًا، حسبما تقتضيه الظروف والمواقف، وحسبما أراد الله تعالى، لكي يُرسّخ دِينُه في الأرض، ويُقيم دِينُه ولو كَرِه الكافرون، أمثال هؤلاء.

فهل غاب عن الله عزّ وجلّ، وهو يُنــزِّلُ على عبده الكتاب مُنجمًا؛ هل غاب عنه أن الرسالة تحولت عن بني إسرائيل، فصارت في سُلالة أخو جدهم، وابن جدهم الأكبر، إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، أخو إسحاق الأصغر عليه السلام!؟

هذا مُحالٌ أيضًا والعياذُ بالله.

خامسًا:

لقد جاء على لسان نبيهم ذِكر اسم نبي هذه الأُمة، وأعلّمهم به، وأمرهم باتباعه، وكذا كل نبي غير سيدنا موسى عليه السلام.

انظر إلى قول الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ

﴿ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾

[آل عمران: ٨١: ٨٣]

فكيف يُساغ إذا ما عَلِمنا أن جميع الأنبياء من لدُن آدم إلى عيسى عليهما وعلى جميع أنبياء الله ورُسُله أفضل الصلاة وأتم السلام؛ فإذا ما عَلِمنا أن الله تعالى أخذ على أنبياءه ورسُله العهد والميثاق، مِن أنهم متى عَلِمُوا، أو أدركوا، أو عاصروا نبيه محمد ﷺ، وَجِبَ عليهم الإيمان به أولاً، ثم العمل على نُصرته؛ وقد فعلوا.

فهل يجيء جاهل من عامة الناس، بل من أقلِهم قدرًا وشأنًا، فيُنكر ما جاء به رسول الله ﷺ، وما قد أنزلَهُ ربُّ العزّة سُبحانه، مُحالٌ أن يُوجد مِثل هذا السفيه.

إلّا أنّ اليهود فعلوا ذلك، فأيُّ سفاهةٍ هذه، وأي فسوق، وأيِّ كُفرٍ هذا الذي حثهم ودفعهم إلى ذلك، وهوى بهم في مهالك جهنم وبئس المصير.

ألا لعنة الله على القوم الكافرين.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلاةً وسلامًا على أشرف المرسلين

والله تعالى أعلى وأعلم

حال اليهود مع كتب الله عزّ وجلّ



حال اليهود مع كتاب الله

التـــوراة

إذا ما أراد الله تعالى بقومٍ خيرًا، نظر إليهم بعين الرحمة واللطف، ومن تمام نعمته عليهم أن يُرسِلَ لهم رسولاً، يُبلّغهم ما أُنزِلَ إليهم، فيُبيين الله لهم الخير والشر، والحلال والحرام، والطريق السوي الذي يسلكُونهُ إليه، ويتُوبون له، ويستغفرونه من الذنوب، والخطايا، ويُقروا بالندم على ما قدموا من آثام، إلى أن تُدرِكُهم رحمة الله.

ومن لطيف حِكم الله في خلقه، أن الرسُول من جنس المُرسلُ إليهم؛ وأن لسانُه من جنس لسانهُم، فيَعْرفوا عنه، ويسمعوا منه، وبذا يُبين لهم ما نُزّلَ عليهم.

وكذلك ما من رسولٍ إلاّ كان من عشيرته، ومن أهله، ومن قبيلته، فلا هو غريبٌ عنهم، ولا هو دخيلٌ عليهم، فينفِرُوا منه، ويُعرضوا عنه.

فهو عليمٌ بعلل عقيدتهم فيُعالجُها، وهو عليمٌ بطبائعهم، فيُقرَّ الطيب، ويُنبذ الخبيث ويدرأهُ عنهم، وهو مُخالط القوم فيعرف لشريفهم قدره، وحسيبهم نسبه، ومن هو دون ذلك قدره.

فمن أجل ذلك كان الرسول في قومه ومنهم.

ولتمام النعمة على عباده في إرادته هدايتهم يُنـــزِّلّ لهم كتابًا، ليكون لهم منهاجًا يسيرون عليه.

فيُحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بأوامره، ويجتنبون نواهيه، وجعل لهم صورًا من ألوان العبادة، ليقوموا بها، ويعكفوا عليها.

فإن هُموا أقاموا على ذلك، كان الفضل من الله والمِنة عليهم، ورضاءه وجناته ثوابه، وإن هُموا خالفوا، كان العقاب؛ إلّا أنّ رحمة ربك قريبة، وعفوه أقرب من العقوبة، ولا يزال باب التوبة مفتوح، والرجوع إليه مطلوب، والإنابة إليه مرغوبة.

فنسأل الله العفو والعافية.

ومن الـــمُلاحظ عند استقراء حال الأممِ الغابرة، أنّ الأُمة التي أراد الله لها خيرًا، والتي أعلى لها قدرًا، والتي جعل لها ذِكرًا، فى الأوّلين والآخرين؛ هي الأُمة التي جعل لها منهاجًا يُتلى بلسانه عزّ وجلّ.

انظُر إلى اليهود، فهُم أهلُ كتاب، وكتابهم التوراة.

وانظر إلى النصارى، فهُم أهلُ كتاب أيضًا، وكتابهم الإنجيل، إلّا أنّ الله تعالى أسبغ عليهم نعمه، فآتاهم التوراة معها.

ونسخ بالإنجيل بعض ما جعله الله فى التوراة.

وانظر كذلك إلى خير أُمة، والتي رسولها خير رسول، وأعظم مَن أنبتت الأرض، فهو عَطيةُ ربُّ السماء لأهل الأرض، فمنهم من قَبِلَ من الله عَطيته، ومنهم من ردّها، فأرّداهُ الله في جهنم.

وكان كتاب هذه الأُمة – أُمة الإسلام لله عزّ وجلّ – هو القُرآن الكريم، هَدية ربُّ السماء إلى أهل الأرض، فهو النور، المُنـــزّلّ على النور، المُتزّلّ من قِبلَ النور عزّ وجلّ.

وقد تعهد الله بحفظه إلى قيام الساعة، فيقول عزّ من قائل:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

[الحجر: ٩].

ومقابل ذلك فقد ضلّت أُمة اليهود وأضلّت، وحادت عن الصراط المُستقيم، ولم يكتفوا بذلك رحمةً بأنفسهم بل كان لهم مع كتاب الله – التوراة – شأنٌ مُخزي، وحالٌ يُرثى له.

بدّلوا فيه؛ حرّفوا فيه؛ كتبوه بأيديهم؛ اشتروا به ثمنًا قليلاً.

يا سُبحان الله. كتاب الله والمُنـــزّل عليهم بلسانه، لم يعرفوا لهُ قدره، فهُم مع ذلك جهلة، بدّلوا فيه؛ وحرّفوه فهُم كفرة؛ وكتبوا التوراة بأيديهم؛ لأنهُم جُرّآء على الله تعالى، فلا يخشونه؛ وتبجحوا، فلا يخافوا عِقابه، واشتروا به ثمنًا قليلاً بخسٍ، فهُم سُفهاء؛ فاستحقوا بذلك اللّعن والغضب والضلالة فى الأرض، وأن يكون منهم مسخ القِردة والخنازير واللّعن، لعنهم الله، قبحهم الله.

فما هو التوراة؟

هو كتابٌ مُنـــزّلٌ على نبي الله تعالى، موسى عليه السلام، ليكون لبني إسرائيل كتاب هِداية، وسعادة فى الدارين لمن تمسك به، وعَمِلَ بما فيه.

وفى التوراة، يقول الله تعالى بلسان القُرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

[آل عمران: ١: ٤]

هكذا هُنا أجمل الله تعالى في ذِكر كُتبه المُطهرة، وخصّ بالذكر القُرآن الكريم.

وأنّ القُرآن الكريم مُصدقًا لما بين دافتي كُلاً من التوراة والإنجيل فهو يُصدق ما جاء فيهما، وهما مُصدِقا لما بين يدي القُرآن، ولا ريب في ذلك فكُلاً من عند الله تعالى.

ونحنُ مُطالبون بالإيمان بجميعهم، بل بكل ما أنزلَ الله تعالى، بل وأوجب علينا الدين الحنيف ذلك، فالحمد لله.

ثم سماه الله تعالى – أي التوراة هُدىً ونور، فيقول عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[المائدة: ٤٤]

هكذا هُنا يُخبر العليم الخبير. أنّهُ أنزلّ التوراة، فجعله الله هُدىً ونورًا.

هُدى لبني إسرائيل من الضلال، ونورًا تستنيرُ به الأحكام، فيُميزوا الحلال من الحرام، والصالح من الطالح، وقد أمر بذلك أنبياء بني إسرائيل، بأن يحكموا لليهود وعلماءهم وفقهاءهم، بما استودعهم من الكتاب، وكانوا عليه شُهداء من أنّهُ الحقُ من عند الله تعالى.

ثم يُعلنُ ربّ العالمين أنّهُ قد جعل التوراة هُدىً لبني إسرائيل.

يقول تعالى:

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

[الإسراء: ٢]

يُبينُ الله تعالى لنا أنّهُ قد أتى موسى نبيه ﷺ الكتاب وهو التوراة، وجعله هُدىً كما وقد سبق أن ذكرنا، ومن جملة ما استودع من آداب وأحكام، ألاّ يتخذوا من دونه عزّ وجلّ وكيلاً، ومع ذلك اتخذوا من دونه وكيلاً، وهذا من باب الشرك بالله، واتخاذ الأنداد معه سُبحانه.

وهنا نكتة:

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وكأن الله تعالى، والله أعلم بمراده؛ كأن الله تعالى حينما قضى في عِلّمه أن الكتاب - التوراة - سيكون هُدىً لبني إسرائيل، لم يكن التوراة كذلك، ثم جَعْلَهُ الله هُدىً.

ولّما كان هذا الكلام من السفّه، واستحال أن ننسُبَ إليه ذلك، عُلِمَ أنّ الكتاب، كان حينما أنزلّه الله عزّ وجلّ هُدىً لما فيه من بيان الأحكام، وعند دخول أيديهم بالتحريف، والتبديل، ولم يكن للكتاب توقيرهُ المطلق، ولم تكن له الجلالة والإعظام التام لأحكامه وآدابه وتشريعاته، لماذا؟

لأن أيدي البشر من عُلماء وفقهاء اليهود، بدّلوا فيه حسب الهوى، واتباعًا لشياطينهم، لعنهم الله، أهـ.

فانتفت الثقة التامة فيما فيه من تشريعات، اللّهُمّ إلاّ ما كان عنده من نُسخٍ مُطهرة من تدنيس أيدي الكفرة الفسقة، والله تعالى أعلم.

ولانتفاء الشك في رسالة الله عزّ وجلّ، بيّن الله تعالى أن التوراة لم تقتصر على الدعوة إليه، وندب اليهود للعمل به، ولم تقتصر على موسى وحده عليه السلام.

فقد عُلّمْنا أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام، ثم أمتّن عليه وجعل معه أخاه هارون رسولاً.

يقول الله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

[الأنبياء: ٤٨، ٤٩]

وهنا أيضًا سمى الله التوراة بثلاثة أوصاف:

الأوّلى: الفُرقان؛ وذلك كونه قد فرق الله تعالى بأحكامه وتشريعاته بين الحق والباطل.

الثانية: ضياءً؛ وهو أيضًا صفة مبالغة للنور، والتي قد سبق ذكرها.

الثالثة: ذِكر؛ أي هو ذِكرًا لبني إسرائيل، فهو فيه ذِكرٌ من الأمم، بعض الأمم، وفيه ذِكرٌ من التاريخ الغابر، وفيه بعض أحداث الأُمم السالفة.

وقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فقد جاء نعتهم في الآية المُعقبة للفظ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

ثم أتمّ الله تعالى نعمته على عبده موسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ١٥٤]

يقول الإمام ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ قال:

معناه: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمنا عنده على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا؛ لأن ذلك أظهر معانيه في الكلام، وأن إيتاء موسى الكتاب نعمةً من الله عليه ومِنّةٌ عظيمة.

فأخبر جلّ ثناؤه أنّهُ أنعم بذلك عليه لِما سلف لـه من صالح عمل وحُسن طاعة.

وأمّا قوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فإنّهُ يعني: وتبيينًا لكل شيء من أمر الدين الذي أُمروا به.

فتأويل الكلام إذن: ثم آتينا موسى التوراة تمامًا لنعمنا عنده وأيادينا قِبَله، تتمّ به كرامتنا عليه على إحسانهُ، وطاعتُه ربَّه وقيامه بما كلّفهُ من شرائع دينه، وتبيانًا لكُلّ ما لقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذِكرُه:

آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلاً لكل شيء وهدىً. يعني بقوله: ﴿وَهُدًى﴾: تقويمًا لهم على الطريق المستقيم، وبيانًا لهم سُبل الرشاد لِئلا يضلوا.

ورحمةً يقول: ورحمةً مِنا بهم، ورأفةً، لِنُنجيهم من الضلالة وعمى الحيرة.

وأمّا قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنّهُ يعني:

إيتائي موسى الكتاب تمامًا لكرامة الله موسى على إحسان موسى، وتفصيلاً لشرائعِ دينه، وهُدىً لمن اتبعه، ورحمةً لمن كان منهم ضالاً، ليُنجيه الله به من الضلالة، وليؤمن بلقاء ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عمّا هو عليه مُقيم من الكُفر به، وبلقائه بعد مماته، فَـيُطيع به، ويُصدّق بما جاءهُ به نبيهُ موسى ﷺ؛ أهـ [1].

وفي التوراة يقول الدكتور/ محمد محمود سعيد:

التوراة عِند أهلها:

التوراةُ لدى أهلها. هي الخمسة الأسفار [2] الأولى من العهد القديم وهي:

سفر التكوين.

وسفر الخُروج.

وسفر اللاويين.

وسفر العدد.

وسفر التثنية.

---

(١) تفسير الطبري [ج٥/ ص ١٢١، ١٢٢]، مع بعض التصرف.

(٢) قوله: هي الخمسة الأسفار: فَذِكرهُ لفظة (الأسفار) مُعْرفةً بالألف واللام خطأ، فهي ثقيلة لورودها فيما قبلها على التعريف أيضًا؛ وهو هكذا شاذ؛ والأسفار: جمع السِّفْرُ؛ والسِّفْرُ: الكتاب الكبيرُ، أو جُزء من أجزاءِ التوراة. القاموس المحيط [ص ٣٦٨ - مادة: س ف ر].

والكلمة: التوراة [1]. عبرية؛ معناها: التعليم أو الشريعة.

وبهذه الأسفار الخمسة يبدأ القسم الأوّل من العهد القديم، ويرى أهلُ التوراة أنّ هذه الأسفار كتبها موسى عليه السلام.

ثم قال الدكتور مُعلِقًا على هذا في ذيل الكتاب: هذا الرأي محل نظر لأسباب كثيرة، ليس هذا مجال عرضها، ونكتفي بذكر سببين منها؛ حاصل **أولهما**: أنّ المتحدث فى التوراة يستعمل ضمير الغائب فيقول: قال موسى...، ولو كان كاتبها موسى لاستعمل ضمير المتكلم.

وحاصل **ثانيها**: أن كاتبها يروي ويقُص حكاية موت موسى، ولا يُتصور عقلاً أن يكون موسى هو راوي قصة موته، انتهى تعليقه.

قلت:

قد كان يُغنيه سياق أدلة القُرآن الكريم في أنّ الله تعالى هو الذي أنزلّ التوراة على موسى، وهو ما قد سبق وأن ذكرناه، فهو الحقُ مِن الحق؛ أهـ.

نعُد إلى سياق الكلام للدكتور/ محمد محمود سعيد؛ ثم قال بعد ذكره ادعاء اليهود مِن أنّ موسى هو الذي كتب التوراة بيده، فقال:

وتتضمن - أي التوراة - أحكام الشريعة فيها - فضلاً عن الوصايا العشر - ما يُعرف (بالطقوس)، وهي مجموعة مبادئ الدين وتكريس هارون وسِبطه اللاويين لِخدمة الدين، وما يُعرف (بشرائع ونُظم الذبائح والقرابين، وسُنن الأعياد، وأحكام الدين السياسية، وقواعد وإجراءات المُحاكمات، وتحديد الجرائم والجزاءات والعُقوبات، وأحكام الزواج، وتحديد الآداب العامة أو قواعد الأخلاق.

---

(١) قوله: التوراة: هو الكتاب المُنـــزّل على موسى عليه السلام، وعند اليهود الأسفار الخمسة.

أمّا غير الشريعة مما تحتويه أسفار التوراة، فهو رواية خلق الكون، وما كان من شأن الخلْق والأنبياء حتى دخول بني إسرائيل فلسطين - أو بمعنى أدق - حتى موسى قبل دخول فلسطين.

ثم يقول:

ونظرًا لأن هذه الأسفار قد عرضت قصة الخلق والأنبياء وجعلتها إطارًا عرضت من خلاله وفي نطاقه أحكام الحياة الاجتماعية والدينية لبني إسرائيل، أو الشعب اليهودي، فقد أُطلِقَ على هذه الأسفار اسم (الناموس).

ويواصل د/ محمد محمود سعيد - استرساله في تعريف ما حوته الأسفار، فيقول: ويشتمل العهد القديم في مجموعه - علاوةً على أسفار موسى - كُتبًا أُخرى أو أسفارًا، منها ما يُعرف بالأسفار التاريخية، ومرجع تسميتها بهذا الاسم أنّها - في أغلب نصوصها - تتناول تاريخ بني إسرائيل، أو الشعب اليهودي مُنذُ دخُولهم فلسطين إلى النفي في بابل فى القرن السادس قبل الميلاد، وإن كانت تجمع إلى ذلك الفكر الديني أو اللاّهوتي فكأنّها تكتب التاريخ انبثاقًا من اللاّهوت، ومنها ما يُعرف بكتب الشعر والحكمة وتضم مزامير داوُد، وموضوعها الغالب مدح الله والتضرُّع إليه والتأمل في خلقه وإبداع ما خلق، كما تَضُم كتاب أيوب أو: كتاب الحكمة والبـــر، والمراثي (**على سقوط القُدس**) ونشيد الأنشاد:

وهي أناشيد رمزية تَنْصب على الحُب الإلهي فى المقام الأساسي، وسفر الأمثال الذي يضُم مجموعة من أقوال سُليمان ﷺ، وأقوال حكماء آخرين، وسفر الجامعة الذي يتحدث عن السعادة الدُنيوية والحكمة.

ويُمكن القول: أنّهُ ينتظم [1] هذه الأسفار قسم من قسمين يُشكلان أسفار

(١) نُشير هنا إلى أن هذا الكلام غيرُ مساغ فهمًا.



العهد القديم الزائدة على أسفار موسى.

أمّا القسم الثاني فيُعرف باسم (الكُتب النبوية)، ويضُم في جانب منه وصايا العديد من أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم، وكُتب الأنبياء ذوي المكانة العُليا منفصلة عن كُتب غيرهم وهي: كُتب صمويل.

قُلت:

وإن كان شأنُهم هذا تفريقهم كتب أنبياءهم، وجعْلِهم كُتبهم درجات، الأدنى فالأدنى، فهُم أهل كُفر، وبذلك يكونا قد نسبوا إلى الله تعالى وإلى أنبيائه وكُتبه ما لم يأذن به الله، أهـ.

ثم يقول الدكتور مُكمْلاً ما سلف:

وإلّيا، واليشع، وعاموس، وهوشع، وأشعياء، وميخا، وصفنيا، وأرميا، وناحوم، وحبقوق، وأرميا، وحزقيال.

وتبدوا أهمية كتب هؤلاء – وأخصهم كتاب أشعياء – في أنها تضُم نبوءات بأحداث مُستقبلة يُؤمنُ بنو إسرائيل بحتمية تحققها، ويدفعهم إيمانُهم هذا إلى رسم سياستهم على النهج الذي يؤدي إلى تحققها، كما يُشكل سلوكهم كأفراد ومجموع [(١)]، انتهى قوله.

ولا تعليق على سياستهم، ورسمهم نهج حياتهم، فهُم كفرة فسقة، ولا ينبغي أن نُضيْع الأحبار والورق والوقت في تمحيص ما هو بيّن وجلي، فالحوّل والقوة بالله وحده، أهـ.

(١) الإسلام في صُحف الأوّلين وكُتب المرسلين [ص ٨٣، ٨٤].

فعل اليهود بكتاب الله تعالى
التـــــوراة

فالأمر وكما قُلنا سلفًا، مِن أنّ لليهود مع توراتهم شانٌ مُخزي، ولهو عارٌ في جبين الزمان، إلى أن يلقوا حتفهم، ويكون هلاكهم في جهنم سرمديًا، وسيعلمُ الذين ظلموا أي مُنقلب ينقلبون.

فلقد وُصِمُو بأربع صفات، وصمهم الله بها، وهي: التبديل في كتاب الله؛ والتحريف، وكتْبِهمُ الكتاب بأيديهم، وقولهم فيه: أنّهُ من عند الله؛ وشراءهم به ثمنًا قليلاً؛ لعنهم الله؛ فإليك أخا الإسلام بيان ذلك.

الأمر الأوّل: التبديل

فأُولى ما سنذكُرُه لك تبديلهم، وكان التبديل حاصلٌ منهم لكلام الله، المسموع منه والمتلوا؛ فالأمر وكما ذكرنا سلفًا من تبديلهم قول الله حينما أمرهم بدخول الأرض المقدسة سُجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وبدلاً من أن يقولوا كما أمرهم الله: حُط عنَّا ربنا خطايانا، قالوا: حبة في شعرة، ومنهم من قال: حنطة في شعرة؛ استهزاءً وسخريةً، سَخِرَ الله منهم.

وفي هذا وكما سبق يقول الله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ

ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾

[البقرة: ٥٨، ٥٩] و [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]

وأمّا تبديلهم في كتاب الله، فهو من غير استدلال فبيّن، إذ كل حرف أسقطوه، وكل لفظ حذفوه، وكل عبارة محوها وأتوا بغيرها فهو تبديل، إذ التبديل في اللغة: الإتيان بشئ مكان شئ آخر، ومنه: جعْلُهُ بدله.

هكذا فعلت علماء اليهود، بدلوا مكان آي التوراة حسب الهوى، وحسبما تميل إليه نفوسهم الخبيثة، يبتغون بذلك عرض الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: التحريف

يقول الله تعالى:

۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾

[البقرة: ٧٥]

ويقول عزّ مِنْ قائل:

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾

[النساء: ٤٦]

فالتحريف في اللغة وكما جاء في المعجم الوسيط؛ قوله: حَرَّفَ الكلام: غيَّرَهُ وصرّفه عن معانيه. وفي التنــزيل: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.(١)

وفي آية البقرة والتي ذكرنا جاء التحريف عند سماع كلام الله تعالى؛ وهو ما قد سبق وأن ذكرنا في سماع السبعين رجُلاً، والذي قد اختارهم موسى ﷺ، وما أنّ سَمِعُوا كلام الله تعالى لموسى، والذي هو أمرٌ إليه وتعاليم لهم، وما أن لبثوا حتى أتوا قومهم، فمنهم من حرَّف الذي سمعه، وبدّله، حتى كان أمر الله فيهم، وعاقبهم بالصاعقة.

أمّا آيةُ النساء المذكورة فهي تُبين تحريف اليهود لكلام الله (التوراة).

وفي قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يقول الإمام ابن كثير:

أي يتأولونه على غير تأويله، ويفسرُونه بغير مُراد الله عزَّ وجلّ قصدًا منهم وافتراءً.(٢)

وبقية الآية تحملُ من المعنى ما فيه من إساءة الأدب مع سيدنا محمد ﷺ؛ فاليهود قومٌ ملعونون بما يقولون؛ يقول القُرآن: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وفيه يقول الإمام الطبري:

يعني بذلك جلّ ثناؤه: من الذين هادوا يقولون: سمعنا يا مُحمد قولك، وعصينا أمرك؛ وقال بسنده عن مُجاهد، قالت اليهود: سمعنا ما تقول، ولا نطيعك.

يا سُبحان الله، لا سَمِعَت يهود، ولا أطاعت؛ فإن وبال ذلك عليهم إن شاء الله، وسيكون رفيقهم إلى جهنم وساءت مصيرا.

---

(١) المُعجم الوسيط [ج١/ ص ١٧٤ - مادة حَرَفَ].

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٥٧٥].

وفي قوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يقول الإمام.

وهذا خبرٌ من الله جلّ ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حَوالَيّ مَهاجَر رسول الله ﷺ في عصره، وأنّهم كانوا يسبُون رسول الله ﷺ، ويُؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مُسمعٍ، كقول القائل للرجُلِ يسبُّه: اسمع لا أسمعك الله.

ثم ذكر قوله في هذه الآية بسنده؛ الأوّل عن ابن زيدٍ قال:

هذا قولُ أهلِ الكتاب يهود، كهيئة ما يقول الإنسان: اسمع لا سمعت، أذىً لرسوله ﷺ، وشتمًا له واستهزاءً.

جعلهم الله سُبّةً مدى الدهر، وهزّأهُم الله، وسَخِرَ منهم الله، وسَخِرَ منهم ما فى الكون إلى أن يشاء الله.

أمّا القول الثاني: فعن ابن عباسٍ، قال:

يقولون لك: واسمع لا سمعت. (١)

لعنهم الله أينما كانوا، وحينما وُجُدوا.

وفي قوله: ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ يقول الإمام ابن كثير:

أي: يوهمون أنّهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: راعنا، وإنما يُريدون الرعونة بسبّهُم النبي. (٢)

وقد كان من المؤمنين من يتشبه باليهود في مثل هذه الأقوال، ظنًا منهم أنّها لا شيء، وفي ذلك قوله:

---

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ١٦٦].
(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٥٧٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾

[البقرة: ١٠٤]

وفيه يقول ابن كثير أيضًا:

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفِعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يَعانون من الكلام ما فيه توريةً لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا؛ يقولوا راعنا، ويورُّون بالرعونة.

ثم قال:

و- كانوا إذا سلّمُوا إنما يقولون: السام عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أُمرنا أن نَرُدّ عليهم (وعليكم) وإنما يُستجاب لنا فيهم، ولا يُستجاب لهم فينا؛ والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مُشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. [1]

ومن ثمَّ عاب الله عليهم مقالهم، ولفت النظر إلى الخير من القول، لو أنّهُم آتوه، فقال تعالى فى الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾.

يقول الإمام الطبري: يقول: وأعدّل وأصوّب فى القول. [2]

ولما عدّلوا عن الصواب، وحادوا عن الصراط، لعنهم الله، وقال فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي بقولهم الذي أنزلهم إلى مرتبة الكُفر، فكُفِرُوا بما قالوا.

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٧٦].

(٢) تفسير الطبري [ج٤/ ص ١٦٨].

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلا يُصدِّقون بمحمد ﷺ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: منهم، لعنهم الله.

وقد كان. فما آمن منهم إلاّ أُناسٌ معدودة، منهم الصحابي (عبد الله بن سلام) رضي الله عنه وسائر الصحبْ.

وفي أسباب نزول آية النساء ما رواه ابن إسحاق فى السيرة قوله:

وكان رِفاعة بن زيد بن التابوت من عُظماء يهود، إذا كلّم رسول الله ﷺ لَوّى لِسانه، وقال: أرعِنا سَمْعك يا مُحمد حتى نُفْهِمْك، ثم طعن فى الإسلام وعابه. فأنزلّ الله فيه:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾، (أي راعنا سمعك)، ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [1]

[النساء: ٤٤: ٤٦]

ولنعرض عليك أخا الإسلام موقفًا عملياً، قد تم بالفعل بين اليهود عليهم لعائن الله، وبين رسول الله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٤١].

الموقف هو مواريتهم عقوبة الزاني، وهي الرجم، أرادوا بذلك إنقاذ الشريف فيهم، وإقامة ذلك على ضعيفهم، يبتغون بذلك الحياة الدُنيا، ولا يُريدون ابتغاء مرضاة الله، وإقامة حدوده فى الأرض.

والحق أقول:

إني والله أخشى أن يصل حالُنا نحن المسلمين في بلدنا هذِه، إلى الدرجة التي أحلوا يهود بها عقاب الله؛ فيحلّ علينا نقمة الله وعذابه، إن عذاب الله وغضبه ليس بمأمون، والله على ما أقول شهيد.

أمّا الموقف الذي بين اليهود، وبين رسول الله ﷺ، ما رواه نافعٍ؛ أن عبد الله بن عُمر أخبره؛ أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا. فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود. فقال:

[ما تجدون فى التوراة على من زنى؟] قالوا: نُسوِّدُ وجُوهَهُمَا ونُحمِّلُهُما ونُخالفُ بين وُجُوهِهِما. ويُطاف بهما. قال:

[فَأتُوا بالتوراة. إن كنتم صادقين] فجاءوا بها فقرءوها. حتى إذا مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى، الذي يقرأ، يدهُ على آية الرجم. وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدُ الله بنُ سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مُرهُ فليرفع يده. فرفعها، فإذا تحتها آيةُ الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ. فَرُجمَا. قال عبد الله بن عُمر: كنت فيمن رجمهُما. فلقد رأيتهُ يقيها من الحجارة بنفسه. (1)

(1) رواه مسلم في صحيحه [ج١١/ ص ٢٩٦، ٢٩٧]، ورواه البخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٣١٧]، ورواه ابن ماجة [ج٢/ ص ٤١٦]، ورواه أحمد فى المُسند [ج٢/ ص ٥]، ورواه البيهقي فى السُنن الكبرى [ج٨/ ص ٢٤]، ورواه أبو داود في سننه [ج١٢/ ص ٨٥]، ورواه الترمذي في سننه [ج٣/ ص ٤٦١]، والدرامي في سننه [ج٢/ ص ٢٨]، ومالك فى الموطأ [ج٢/ ص ٨١٩]، ورواه الربيع بن حبيب فى الجامع الصحيح [ص ٢٣٨، ٢٣٩]، والنسائي في السنن الكُبرى [ج٤/ ص ٢٩٤].

انظر أخا الإسلام إلى فعلهم الخبيث، يُريدون أن يُغيروا دين الله، وقد غيروه بالفعل، إذ أنا لا نثق في كتاب الله التوراة، والذي هو موجود بين أيديهم، لأنّهُم حرّفوه، وغيروا أحكامه، والتي من صورها آية الرجم هذه.

وإليك أخا الإسلام موقفٌ آخر:

فعن البراء بن عازبٍ ﷺ قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحمَّمًا [1] مجلودًا. فدعاهُم ﷺ فقال:

[هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟] قالوا: نعم. فدعا رجُلاً من عُلمائهم. فقال: [أُنشُدُك بالله الذي أنزلّ التوراة على موسى! أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكُم؟] قال: لا. ولولا أنك نشدتني بهذا لم أُخبرك، نجدُهُ الرجم، ولكنّهُ كثُر في أشرافنا، فكُنا، إذا أخذنا الشريف تركناهُ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ. قُلنا: تعالوا فلنجتمع على شيءٍ نُقيمُه على الشريف والوضيع [2]، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ:

[اللّهُمَّ! إني أوَّلُ من أحيا أمرك إذ أماتُوهُ] فأمر به فَرُجِمَ. فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [المائدة: ٤١]

إلى قوله:

﴿ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ [المائدة: ٤١]

---

(١) قوله: مُحممًا: أي محمومًا.

(٢) قوله: الوضيع: أي الدنيء من الناس.

يقول: ائتوا مُحمدًا ﷺ. فإن أمركم بالتحميم والجلد فخُذُوهُ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

[المائدة: ٤٤]

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

[المائدة: ٤٥]

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

[المائدة: ٤٧]

فى الكُفارِ كُلُّها [١].

هكذا كان فعلهم لعنهم الله، فرقوا بين الشريف والضعيف في حدود الله؛ وهذا يُذكّرُنا بموقفٍ وقفهُ رسول الله ﷺ حينما سرقت المرأة المخزومية، ولأنها في قومها وهي الشريفة، لا ينبغي أن تُقطع يدها، ولكن النبي وهو المُبلّغ عن الله عزّ وجلّ ما كان ينبغي أن يسير على حسب هواهم فيما أرادوا، ثم ما كان منه إلّا أن قام خطيبًا فى الناس، يُحذّرِهُم ويُذكّرهُم، فكان أوّل من طبق هذا على أهل بيته لو وقع مثل هذا فيهم، فقال ﷺ:

[وأيّمُ الله. لو أن فاطمة بنت محمدًا سرقت، لقطع محمدًا يدها]، والحديث في الصحاح وكتب السنن وغيرها؛ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

---

(١) رواه مُسلم في صحيحه [ج١١/ ص ٢٩٨، ٢٩٩]، وأبو داود في سننه [ج١٢/ ص٧٨، ٨٨، ٨٩]، والنسائي فى السنن الكُبرى [ج٤/ ص ٢٩٤، ٢٩٥].

هاهو ذا قد تبين لنا أنهم سفلة، لم يُرعوا فى الله تعالى حقًا ولا ذمةً، وحرّفوا فى التوراة.

وهناك شيئًا يجب أن يعلمه الجميع، وأن لا يغيب علينا، وهو أن جريمة الزنا هذه لم تكن وليدة وقتها في بني إسرائيل فحسب ثم وُءِدت، بل شابت مع مرور الوقت وتعاقُب الأزمان حتى شاخت، ووَرِثها الأحفاد مسخ القِردة والخنازير، فأخيرًا قد نُشر تقريرًا في دُويلة إسرائيل أُعلن فيه الآتي:

أن نسبة التحرش الجنسي في إسرائيل بلغت ٣٧٥٪، وهذا نقلاً عن وسائل الإعلام المرئية؛ نقلاً عن صُحف إسرائيلية، أهـــ.

هذه هي قذارتهم، هذه هي فضائحهم قديمًا وحديثًا؛ ولم يكن للأمر أن ينتهي إلى هذا الحدَّ فحسب؛ بل وصل إلى أن ترى الفتيان اليهوديات يَسيرنّ في الشوراع والطُرُقات عارضات أنفُسِهنّ للبغاء.

اضف إلى ذلك. تفشِ جريمة الزنا والتحرش الجنسي بين صفوف الجيش الإسرائيلي الأسطورة؛ بل امتدت أذرعه حتى فشىَّ بين قادة الجيش.

واضف أيضًا إلى معلوماتك أيها الأخ المُسلم الطاهر، حفظنا الله وإياك من كل شر وسوء؛ أضف إلى ذلك تحرش القادة السياسيين بالفتيات، ومنهم رؤساء الوزراء اليهود الإسرائيليين والوزراء أيضًا.

بل وقادة الدولة اليهودية الأمريكية مثل رئيسها السابق: بل كلينتون.

هذه هي حقائقهم المُخزية القذرة، والتي قد تغيبُ عن بعضنا، إلاّ أن الحق لابد وأن يُعلم، ولابد أن يعرف كُلٍ منا قدره ومكانته؛ كما يجب أن يعلم كُلٌ منا من الطاهر ومن النجس، أهـ.

الأمر الثالث: كتبهُم الكتاب بأيديهم

بدايةً نعلم ما في قوله تعالى، والذي يُبين لنا ما خفيّ، ففضحه الله، وعرّفنا ما الأمر الذي ساعدهم على نشر ما كتبوا بأيديهم، غُلّت أيديهم.

يقول الله تعالى فى الآية التي تسبق آية كتب التوراة:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

[البقرة: ٧٨]

لقد كانت يهود يتباهون على رسول الإسلام ﷺ وعلى صحابته، والسبب هو العلم الذي آتاهُمُ الله، والذي هو مُستنبط ومُستوحى مِن التوراة .

إلاّ أنّ الله تعالى وهو خالقهم وهو أعلمُ بهم، قد فضح أمرهم، مِن أنّ فيهم أُميّون وجَهَلة.

والغريب أنّهُم قالوا استعلاءً على العرب وجحوداً، وكذا على رسولهم؛ والذي حكاه القُرآن، وهو ما جاء فى قوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[آل عمران: ٧٥]

يا سُبحان الله. لقد تبين أنّهُم أُميّون وجُهّال.

وإذا ما عُلِمَ أنّ فى اليهود أُميّون، وُجبَ علينا أن نّعلم أيضاً أنّ عُلماءهم قد استغلوا جَهلهُم وأُميَّتهُم، فكتبوا التوراة بأيديهم في مادات عِدةٍ، فباعوها لقومَهُم، ولأميّتَهُم وجَهَلِهِم، اشتروا الكُتب على ما فيها من تبديلٍ وتحريف، وهم عُمي لا يرون ما فيها، وهم جُهلاء لا يُفرقون بين أصوله وبين دخيله.

ولذلك جاء قوله:

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

[البقرة: ٧٩]

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الفاء هُنا استئناف لما قبله، والويل: وعيدٌ من الله لهم؛ وقيل هو وادٍ في جهنم، فيه صديدُ أهلِ النار يسيل منه.

وإن من أعظم ما يأتيه المرء من الذنوب والآثام والخطايا، والتي تُرديه في جهنم، أن يفعل مِثل هذه الأفعال الشنيعة المُشينة.

فهل يُعقل؛ أن يكتب عبدٌ حقيرٌ كتاب الله بيده، بعدما حرّفه، وبدّله، ثم يقول: هو من عند الله!؟

ليس بمُصدق!

ولكن في حق هؤلاء اليهود الكفرة ليس بمستغرب، ولا بمُستبعد.

والعِلّة في كتْبهُمُ الكتاب بأيديهم ليتها شيءٌ مستحق، أو يُماثل الجُرم لو قيس بالعذاب الذي ينتظرهم.

بل على العكس، باعوه، وشروه بثمنٍ بخس.

والمصيبة العُظمى فيما تلفظوا به حينما قالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، والعِلّة كما قُلنا في قوله: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ولذلك حذر نسلهم الخبيث على عهد رسول الله ﷺ، حينما قال تعالى:

وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

[البقرة: ٤١]

وفي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول الإمام ابن كثير:

إن آياته: كتابه الذي أنزلهُ إليهم، وإن الثمن القليل الدُنيا وشهواتها.

ثم ساق أقوالاً في معنى الآية، فعن السُدّى قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعًا قليلاً، ولا تكتموا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن.

وعن أبي العالية؛ يقول: لا تأخذوا عليه أجرًا، وقال: وهو مكتوبٌ عِندهم فى الكتاب؛ **الأوّل**: يا ابن آدم. علّمْ مجانًا كما عُلّمت مجانًا.

وقوله: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أنّهُ تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه. (١)

ولذلك فضح أمرهم مرةً ثانية، فقال تعالى:

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

[آل عمران: ٧٨]

فهنا أمران معلومان، وآخران مُضادان لهُما:

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٠٤، ١٠٥].

فالأوّل: يُحرفون - أي علماء اليهود - الكتاب، ليحسَبُهُ جُهلائهم وأُمييّهم من الكتاب.

ومضاده: وما هو من الكتاب.

الثاني: على الأوّل يجرى الكلام بطبيعة الحال، أنّ هذا من عند الله.

ومضاده: وما هو من عند الله.

ثم فصل الله تعالى في هذا الأمر، ووصفهم بأنّهم إنما يقولون على الله الكذب، ولا يُفلح الكاذبُون؛ إلّا أنّ عامة الناس من اليهود، لا يعلمون ذلك.

ولهذا يقول: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا وعيدٌ لهم على ما كتبت أيديهم كُلُه وما يُناسبه من العقاب، قال الله تعالى فيهم، وقضى ذلك بحكمه؛ وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وعِيدًا آخر، ولقد تكرر لفظ - الويل - فى المعنيين وتعددت العِلّة، لماذا؟

لأن العقاب واحد؛ ولكن الجُرم متنوعٍ منهم، إلّا أنّهُ شديد يُناسب ما اقترفته أيديهم من هذا وذاك، وكذلك غيرهم.

وقوله: ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يُحتمل فيها معنيان، والعِلمُ عند الله؛ أمّا **الأوّل**: فلّعل المُراد بما ﴿يَكْسِبُونَ﴾ أي من الإثم جرّاء ما كسبت أيديهم.

والثاني: قد يكون المراد بما ﴿يَكْسِبُونَ﴾ أي بما هو حاصل نظير بيعهم كُتب الله بثمنٍ بخسٍ نتيجة تحريفهم له؛ ألا لعنهم الله، ألا قبحهم الله.

الأمر الرابع: شراءهم به ثمناً قليلاً

مما قد ذُكِرَ فى الأمر الثالث، قد يُتوهم أنّهُ مكرر، أو أنّهُ مُتمم، بل هو شيءٌ منفصل تمامًا، لماذا؟

لأن الشيء الذي دفعهم إلى أن يُبدلّوا كلام الله، ثم يحرّفونه، ثم يُبيعونه، ما هو إلاّ للحصول على المال، وما أخسّه، إذ اشتروا بالذهب تبرًا.

فإن مع ما في الكتاب من مُخالفات، وتحريف وتبديل الشيء الذي أفقده قيمته الإلهية المحضة، وما كان ذلك إلاّ ليخدعوا قومهم الأُميّين، ويرغبوهم بالنصوص المُحرّفة فى الحياة الدنيا، وبذا يبيعوا كثيرًا من نُسخه، هذا مع رُخص ثمنه، فبذا يحصدوا الكثير من القليل. فهذه سياسة اليهود.

وليتنا نتعلم مما في تاريخهم الأسود القاتم، المليء بالأوجاع والآلام مما قد صدر منهم تجاه خالقهم، وتجاه ملائكته وكُتبه ورُسُله، ألاّ لعنة الله على الكافرين.

وقبل أن ننتقل إلى موضوعٍ آخر فلننظُر إلى المثل الذي ضربه الله تعالى لليهود وهُم أهلُ كتاب.

يقول الله تعالى:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

[الجُمُعة: ٥]

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: ذامًا لليهود الذي أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمُل أسفارًا، أي: كمثل الحمار إذا حَمِلَ كُتُبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملُها حملاً حِسيًا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملِهم الكتاب الذي أُوتوه حفظوه لفظًا، ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل

أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه، فهُم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهُوم لم يستعملوها. [(١)]

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثم لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد ﷺ، وقد أُمروا بالإيمان به فيها، واتباعه والتصديق به ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كُتبًا، والكتاب بالنبطية يُسمى: سِفْرًا؛ ضرب الله مثلاً للذين أُعطوا التوراة ثم كفروا، قاله الضحاك [(٢)]. قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿بِئْسَ﴾ فعل جامد للذمّ ضدّ نِعْمَ فى المد [(٣)]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والله لا يوفّق القوم الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بآيات ربهم. [(٤)]

هؤلاء هُم اليهود، وهذه بعضُ صفاتهم القبيحة، فإن تاريخهم لا يخلوا من كُلِ شر وسوء، قبحهم الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) تفسير ابن كثير [ج٤/ ص ٤٠٠].
(٢) تفسير الطبري [ج١٤/ ص ١٢٤، ١٢٥].
(٣) المُعجم الوسيط [ج١/ ص ٣٨ - مادة: بِئس].
(٤) تفسير الطبري [ج١٤/ ص ١٢٥].

حال اليهود مع كتاب الله تعالى
القـرآن الكـريـم

لأنهم أهلُ تبديل وتحريف، ولأنهم أهلُ تضليل وإضلال، ولأنهم فسقه، لم يأمنهم رسول الله ﷺ على دينه، وخاصةً القُرآن الكريم من التبديل والتحريف، والتزييف؛ ولنا في قصة سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنهما وأرضاهما، فلنا في قصته العظة والعبرة.

فعن خارجة – يعني بن زيد بن ثابت – قال: قال زيدُ بن ثابت رضي الله عنهما: أمرني رسول اللّٰه ﷺ فتعلمتُ لهُ كتاب يهُود، وقال: [إني والله ما آمن يهُودً على كتابي] فتعلمتُهُ. فلم يمرَّ بي إلاَّ نِصفُ شهر حتَّى حذقتُهُ، فكُنتُ أكتبُ لهُ إذا كتب، وأقرأ لهُ إذا كُتِبَ إليه. (١)

شرح بعض مواطن الحديث:

قوله: [فتعلمت له كتاب يهُود] فالمراد بالكتاب هنا، هو تعلم كتابة اليهود، والتي يُراسلون رسول الله ﷺ بها، لكي يُفهم عنهم، ما يكتبون، ولكي يُعلم عنهم ما يُضمرون، لما قد جاء عنه ﷺ: [من تعلم لغة قومٍ أمِنَ مكرهم].

واللّٰه كافيه شرهم وآذاهم، وكافيه مكرهم وخبثهم، واللّٰه يعصمه من الناس كافة.

وإن لم يُرد من قوله: [فتعلمت له كتاب يهُود] ما قلناه، وكان المقصود منهُ تعلُّمْ كتابهم التوراة، فلا معنى إذًا لذلك، وإذ هو أعلم بكتابهم التوراة من أنفسهم به، والذي علّمهُ ربه.

---

(١) رواه أبو داود في سننه [ج١٠/ ص ٥٦]، والترمذي في سننه [ج٤/ ص ٤٨٨] وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، ورواه أحمد في مُسنده [ج٥/ ص ١٨٢، ١٨٦].

ويؤيد ما أشرنا إليه سلفًا قوله فيما بعد: (فكُنتُ أكتبُ لهُ إذا كتب، وأقرأ لهُ إذا كُتِبَ إليه).

وقوله: (حتى حذقتُهُ) حتى: هي لبلوغ الغاية. وقوله (حذقته) وهي من الحذاقة، وهي صفة للمبالغة لما وصل إليه بفضل الله في هذا الفن، وقد قيل في شرح سُنن أبي داود – عون المعبود: (حتى حذقته) بذال مُعجمة وقاف أي: عرفتُه وأتقنته وعلِمتُه. (1)

وأمّا قوله ﷺ: [إني والله ما آمن يهُود على كتابي] فهذه أيمانٌ من رسول الله ﷺ لتوجسه، ومخافةً منه ﷺ، وما ذلك إلاّ لمعرفته بحقيقة يهود الحْقة، والتي لا لبس فيها، مِن أنهم أهلُ تحريف وتبديل وتزييف للحقائق، وما ذلك إلاّ لاتباع الهوى.

وقوله: (على كتابي) يشمل كل شيء نص عليه كتابه، من رسالة بلاغ ودعوة، ومن لفظ حديث، ومن نص قُرآني سواءً كان على سبيل الاستئناس، أو على سبيل الاستشهاد، أو على سبيل البيان والإيضاح، أو الاستهلال.

فكُل هذا يَندرِجُ تحت ما عناه من قوله: (كتابي) صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين، أهــ.

يقول الله سُبحانه وتعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

[البقرة: ٩١]

(1) عون المعبود شرح سُنن أبي داود [ج١٠/ ص ٥٦].

يُخبرنا الحق جلّ وعلا عن أنباء هؤلاء اليهود المقبوحين؛ من أنهم إذا قيل لهم آمنوا بهذا القُرآن، تراهم كعادتهم، يُعلنون التذمر والرفض.

وهذا الإخبار وقتما كانوا مُعاصرين للرسول ﷺ، وحينما قيل لهم آمنوا به قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الإيمان قولٌ وعمل، وأنتم حينما تقولون نؤمن بما أُنزلَ علينا وهو التوراة، فقد كذبتم!

لأنكم رددتم بعض ما جاء فيه، وكفرتم ببعضه، وحرّفتم فيه، وبدّلتم منه بغيره، إذًا فهذا كذبٌ منكم، وهذا ليس بجديد.

ثم أنتم بعد ذلك لم تؤمنوا بما أُنزِلَ على قومكم أيضًا من بني إسرائيل، فقد كفرتم بالإنجيل الذي أُنزِلَ على عيسى عليه السلام.

ثم أنتم هؤلاء تكفرون بالقُرآن وهو الحق، ومصدقًا بالذي معكم، وليس بمخالفٍ له.

ولقد ذكرنا فيما قد مضى ذِكره في تعرضنا لشراء بني إسرائيل بالتوراة ثمنًا بخسٍ، في قول الحق جلّ وعلا:

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

[البقرة: ٤١]

فما زادتكم دعوة الإيمان واتباع الهُدى إلّا طُغيانًا وكُفرًا.

ثم يفضحُ الله تعالى أمرهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ هو خطابٌ للنبي ﷺ، وموجهًا له، كي يبلّغ هؤلاء اليهود الكفرة، فإذا كنتم قد آمنتم بالذي أُنزِلَ عليكم، فهذه شهادة منكم بأنكم كذّبة أفّاكون، لأن الله تعالى ما مِن نبي بعثه، ولا رسولٍ أرسله إلّا أمره باتباع نبيه وعبده محمد ﷺ، وما من كتابٍ أنزلّهُ إلّا وفيه ذِكرُه وذكر أُمته؛ وكذلك كتابكم فيه خَبَرُ هذا النبي وأُمته؛ فَلِمَ كفرتم به، وأعلنتم ذلك!؟

إذًا أنتم كذّبة، ضالون، ومُضِلون!

شيءٌ آخر والذي سيجيء ذِكرُه مُفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى، والذي قد أثبت أيضًا كذبكم وكفركم؛ من أن الكتاب الذي أُنزل عليكم، والذي تدّعون إيمانكم به، هل أمركم فيه بقتل الأنبياء كما قد فعلتم بقتلكم نبيه يحيي عليه السلام، وشرُعكم وتآمركم على قتل عيسى عليه السلام، وكذلك جعل السُمْ في اللحم الذي دُعيَّ إليه رسوله محمد ﷺ من أشباهكم حتى تتخلصوا منه خلصتُم إلى جهنم آمين!؟ وسيأتي.

فهل أمركم الله بهذا في كتابكم الذي تدّعون الإيمان به؟

كلا!

لم يأمركم ربكم بهذا، ولكنه الإضلال والضلال، والإصرار على الكُفر.

موقِفٌ آخر:

لقد كان لليهود مع قبيلتي الأوس والخروج في حزيرة العرب وقبل بعثة سيدنا رسول الله محمد ﷺ شأنٌ عظيم؛ فما من تلاحم قتالٍ بين اليهود وبينهما إلّا وكانت تُهزِماهم، فلما قَرُبَّ موعد إشراقة الحق على أهل الأرض ليُزيل به غشاوة الكُفر، وعتامة الكون، كانوا يتوسلون إلى الله بنبينا أن يهزموا هاتين القبيلتين، فكانوا يُهزِماهُم.

فلما أن بُعثَ رسول الله ﷺ من العرب كفروا به، وجحدوا نبوته، وحسدوه على ما آتاه الله عزّ وجلّ من فضله.

يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

[البقرة: ٨٩]

ومن قوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون به على العرب.

يقول الإمام الطبري، بسنده عن ابن عباس:

أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه؛ فقال لهم مُعاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة:

يا معشر يهود. اتقوا الله وأسلموا!

فقد كُنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحنُ أهل شرك، وتُخبرونا أنّهُ مبعوث، وتصفونه لنا بصفته.

فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كُنا نذكُرُ لكم! فأنزل الله جلّ ثناؤه في ذلك من قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [1]

---

(١) رواه الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٥٧٨]، وذكره ابن كثير في تفسيره [ج١/ ص ١٥٠]، وذكره السيوطي في أسباب النـزول بذيل تفسير الجلالين [ص ٢٢/ ٢٣] وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿فَلَمَّا﴾ وفي رواية أُخرى له:

كان يهود خيبر تُقاتل غطفان، فكُلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدُعاء وقالت: اللّهُمّ أنا نسألك بحق النبي الأُمي الذي وعدتنا أن تُخرجهُ لنا آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدُعاء فهزموا غطفان، فلما بُعثَ النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا - أي: بك يا مُحمد، إلى قوله: جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. (١)

وفي لفظٍ آخر لابن إسحاق؛ عن قتادة عن أشياخ من قومه، قال: قالوا:

فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة، كُنا قد علوناهم ظَهْرًا فى الجاهلية ونحنُ أهل شرك وهُمْ أهلُ كتاب، فكانوا: يقولون لنا:

إن نبينا يُبعث الآن نتبعهُ قد أظلّ زمانُه، نُقْتّلكم معه قتل عاد وإرَم. فلما بعث الله رسوله ﷺ من قُريش فاتبعناه كفروا به، يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ - إلى قوله: فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. (٢)

هكذا هُم عليهم لعائن الله إلى يوم الدين، كانوا يتوعدون مُشركي العرب بالعلو عليهم، والنصر منهم، وكان عمدتهم في هذا أن نبي آخر الزمان حسب اعتقادهم وما أَلفوه سيكون من بني إسرائيل، إلاّ أن الله تعالى أعلمُ حيث يجعلُ رسالته.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النـزول [ص ٣٥]، وذكره السيوطي في أسباب النـزول بذيل تفسير الجلالين [ص ٢١، ٢٢] وعزاه للحاكم في المستدرك وللبيهقي فى الدلائل وقال: بسنده ضعف، ورواه الحاكم فى المستدرك [ج٢/ ص ٢٨٩]. وقيل عنه فى التلخيص: فعبد الملك - أحد رجال رواته: متروك هالك.

(٢) رواه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٢٣، ١٢٤]؛ وذكره ابن كثير في تفسيره [ج١ / ص ١٤٩، ١٥٠]؛ ورواه الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٥٧٧، ٥٧٨].

فبعث خاتم النبيين من العرب؛ فجحدوا ذلك استكبارًا وعلوًا، وغيروا صفته في التوراة عندهم، وأنكروا ذكره وأمته حسدًا من أنفسهم.

ولذلك يفضحُ الله تعالى أمرهم المخزي حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافق للذي بين أيديهم، إذ نورهما من مشكاة واحدة، وهي عقيدة التوحيد، وما تدعوا إليه وله.

ثم يقول تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو ما ذكرناه من أنهم كانوا يستفتحون، أي: يستنصرون على كُفار قريش: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: فلما جاءهم رسول آخر الزمان، وهم يعرفونه بصفته التي هي مكتوبة عندهم في التوراة، جحدوا ذلك حسدًا، و﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ فما كان من الجليل جلّ وعلا إلا أن حكم عليهم بالكفر فقال فيهم نظير ما صدر منهم تجاه ذلك: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالفاء في قوله: ﴿فَلَعْنَةُ﴾ قيل[1]: هي رابطة، أي رابطة ما قبله، متصلة لما بعده؛ وهي أيضًا تُفيد سرعة البيان للحال، إذ ما نتج عن جحودهم وإنكارهم يستوجب ذلك، فلا تؤدة في الحكم، إذ حالهم جلي واضح.

ألا لعنهم الله بكفرهم، آمين.

نُطق القُرآن بالحق:

يقول الله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

[النمل: ٧٦]

١) معجم إعراب ألفاظ القُرآن الكريم [ص ١٧].



يقول الإمام القُرطبي:

وذلك أنهم اختلفوا في كثيرٍ من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضًا فنـزلت، والمعنى: أن هذا القُرآن يُبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به، وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. [1]

وإنهم قد اختلفوا في أمور أنبيائهم، واختلفوا في مريم، واختلفوا في المسيح عيسى عليه السلام.

وغيروا الأحكام كالرجم للزاني كما سبق وأن ذكرنا، واختلافهم في صفة نبينا ﷺ، فقد اعترف به من آمن وأقر بذلك على ما معهم، وكفر وجحد به كثيرٌ منهم لعنهم الله بكُفرهم.

ثم بعد ذِكر أهل المقْت والسوء، وجاء ذِكرُ أهل الإيمان ومدحهم، وكذا مَن آمن مِن اليهود، فيقول تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

[النمل: ٧٧]

هنا صدق الله العظيم. ولربنا الحمد والشكر، وله المِنة علينا وله أيادي الفضل والجود والعطاء علينا، سُبحانه وتعالى عما يصفون.

فإذا ما علمنا أن القُرآن قد جاء بالحق، ونطق بالصدق، وأنّهُ مُصدقٌ لما مع اليهود من كتاب ومهيمنٌ عليه، فلا مِنة لهم على المسلمين والعرب، إذا ما ادعوا أنهم أهلُ كتاب وعِلم. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

(١) تفسير القُرطبي [ج٦/ ص ٥٠٩٠].

بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

[البقرة: ٧٦]

هنا وفي هذه الاية الكريمة يُبين لنا الله تعالى أن اليهود منافقون، يحبون الحياة، ويحرصون عليها، ولذلك إذا ما التقوا والمؤمنين قالوا: آمنا.

ينطقون بها حتى لا يفسد ما بينهم والمسلمين من تعاملات وعلاقات، وهذا دأب أحفادهم، وهذا مبدأهم الذي يُعاملوننا به الآن.

فهم يتلونون كالحرباءة، مع كل موقف بوجه، ومع كل أزمة بوجه، ومع مصالحهم بوجه، أعاذنا الله من شرور نفوسهم الخبيثة.

ولقد صدق الله إذ يقول:

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾

[الحشر: ١٣]

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ الآية.

هذا مبدأ يُعاملون به المسلمين، ويَتْبَعَهُم عليه أحفادهم، وترى هذا في بروتوكلاتهم السياسية والاقتصادية.

ففي المجال الاقتصادي، تراهم يستأثرون بكل ما هو نفيس وجيد، وعلى مستوى عالي من التكنولوجيا، وتراهم أيضًا يمسكون بمفاتيح صنعتهم، ولا يُبيحون بها، ونحنُ سُذج.

حتى على المستوى العسكري، يُصدرون ما أمكن الأسلحة الدفاعية ولا يُصدرون الأسلحة الهجومية.

وعلى المستوى الاقتصادي، جعلوا لأنفسهم تكتُلات إقتصادية، وتستروا وراء فكرة العولمة، وما سواهم جعلوه في قوقعة.

أمّا نحن ما زلنا نغني أمجاد يا عرب، والعرب ليس بمسلمين الإسلام الحق المُهاب، كُلاً في وادي، وقد آثروا الحياة الدُنيا.

والحق. أن القادة قد خذلوا الإسلام والمسلمين، والله على ما أقول شهيد. والشي المدعى للسُخرية، أن شهادة الجودة العالمية، والتي تُسمى بـــ(الآيزو) ما هي إلّا سبيل ومدخل فى الكيانات الاقتصادية في دول العالم الــ...، حتى ليعلموا ما مدى تطوراتهم، وما مدى تأثيرهم على الأسواق العالمية، وما مدى جودة منتجاتهم، وبذلك يستبين لهم الأسرار الصناعية؛ وربنا يسلمْ، أهـ.

ثم يُخبرنا عزّ وجلّ بمقالهم بعضهم لبعض حيث قالوا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يا سُبحان الله. وصفوا أنفسهم بمن لا يعقل لمجرد أن بعضهم يُحدِّث بعض المسلمين بالعلم الذي عندهم.

وهكذا هم الآن، بلّ أشد ضراوة، لأن الوضع الآن مختلف اختلافًا كُلي وجزئ، وذلك يرجع إلى التكنولوجيا رفيعة المستوى، والتقنيات العالية والتي قد غزت العالم إن لم يكُن كُله، أهـ.

ثم يُخبرنا الله عزّ وجلّ ويُعلمهم بشيء وهو في قوله:

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

[البقرة: ٧٧]

فالحمد لله الذي لم يكلّنا لهم، إذ لو كان ذلك وعلى أوضاعنا الحالية لما كان لنا كيان أو وجود، شكلي أو فعلي.

ثم انظر أخا الإسلام إلى فضح الله لهم إذ فيهم أُميّون جُهلاء، وهو ما قد سبق بيانه، وذلك في قوله تعالى:

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

[البقرة: ٧٨]

ومعنى هذا أن ليس جميعهم أهلُ عِلم، ويظهر هذا في آخر إحصائيات في أمريكا، من أن طلبة المرحلة الثانوية والجامعية بذات مستوى رديء وسيئ في اللغة الإنجليزية، وهي لكنتهم.

وشيءٌ آخر. هو إن ٩٠٪ إن لم يكن جميعهم عُلماء، وفي المستويات المختلفة، ما هي إلاّ قوة بشرية مُهاجرة، وليست من أرضهم، فما هُم إلاّ أيدلوجية مُقحمة دخيلة عليهم، وقد استقطبوهم، وقد استولوا على كيانتهم وعقولهم.

ومنهم من رضي بهذه الأرض وطنًا، وقد تنكّر لبلده ومنهم مصريون، وما ذاك إلاّ من أجل المال، ولكن المقابل غالي ونفيس، ومن العسير بل المستحيل تعويضه.

نسأل الله العفو والعافية.

وأمّا ما يُعانيه الإسلام الآن من ألّسنة اليهود ومن والاهم لَشيءٌ جدُّ عصيب، وليس بالهين على المرء المؤمن أن يقبله.

خرجوا علينا بألّسنةٍ حِدادٍ من قائل: إن الإسلام دينُ إرهاب.

وأن الغرب هم أهلُ حضارة، وأهلُ فضلٍ على الدين الإسلامي.

وأن العرب والمسلمين ما هُم إلاّ عصابات.

قالوا ما قالوا وهم يعلمون أنهم كاذبون، أفّاكون، فَسقة، يُحرفون الكلم عن مواضعه الصحيحة.

وإذا ما أردنا أن ننتصر للإسلام وليس للعرب، فلا شيء يُقال، لأن القائل بمثابة المتهم الذي يُدافع عن أصُوله وكيانه.

ولكن الحق جليّ وواضح، ولا نَرُدّ عليهم بشيء، لأنهم أحقر من أن يُوضعوا موضع المُستبرأ.

وأن الإسلام أسمى من أن يوضع في كِفة الانتصار؛ لأن الإسلام هو الوجود كُله، لأن الدين عند الله الإسلام.

ولأن العِلم هو الإسلام.

ولأن الحضارة الفكرية وليدة الكيان الإسلامي.

وإذا قُلنا بخذلان المسلمين للإسلام، فلا ذنب للإسلام في ذلك، أهـ .

نبرأ إلى الله تعالى من كُل حول وقوة، إلاّ من حولِه وقوته، فهو نعم المولى ونعم النصير.

حال اليهود مع رُسل الله

حال اليهود مع نبيهم موسى ﷺ



ليس من شك أن اليهود ضعفاء الإيمان بالله عن لم يكونوا قد عَدِموه، وهذا بيِّن من تاريخهم العقائدي المُخزي.

ومما قد سبق ذكره في تعرضنا لدعوة سيدنا موسى عليه السلام، قد علمنا مدى المعاناة التي قاساها من هؤلاء النوعية من البشر، ولأنه رسولٌ من قِبل الله عزّ وجلّ، فقد حُلْيَّ بالصبر والأخلاق الحميدة، وكذا مكارم الأخلاق، ولولا جِبلّتهُ هذه وسجّيتهُ الطيبة الذكية لما قَدِرَ على تحمُلِ أذى اليهود.

ومن جملة مواقفهم معه ما نعلمه من الآية الكريمة والتي جاء فيها قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

[الأحزاب: ٦٩]

لقد جاءت هذه الآية ردًا على قول قائلٍ لرسول الله ﷺ، وكان فيها من الأذى ما فيها، فنـــزلت هذه الآية.

وأمّـــا الذيـــن آذوا موســـى عليه السلام فكـــثير. ومما ينطق به الحديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

[كانت بنوا إسرائيل يغتسلُون عُراةً ينظرُ بعضُهُم إلى بعضٍ، وكان موسى

ﷺ يغتسل وحدُه فقالوا: واللهِ ما يمنعُ موسى أن يغتسل معنا إلّا أنّهُ آدَرُ [1]، فذهب مرَّةً يغتسلُ، فوضع ثوبُه على حجرٍ، ففرَّ الحجرُ بثوبه فخرج مُوسى في أثره يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأسٍ، وأخذ ثوبهُ فطفق [2] بالحجر ضربًا]. فقال أبو هُريرة:

والله أنّهُ لندبٌ بالحجر ستّةٌ أو سبعةٌ ضربًا بالحجر. [3]

وزاد مسلمٌ في صحيحه من قول أبي هُريرة: ستةٌ أو سبعةٌ. ضرْبُ مُوسى بالحجر. [4]

وفي رواية للبخاري وغيره، تُفيدُ أنْ زيادة الحديث من قول رسول الله ﷺ لا من قول أبي هريرة ﷺ، فجاء قوله: [وقام الحجرُ فأخذ ثوبه فَلَبِسَهُ وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاهُ، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ وبلفظه رواه النسائي. [5]

---

(١) قوله: آدَرُ: هو عظيم الخصيتين. قال الإمام النووي في شرح صحيح مُسلم؛ وهو مرض يصيب الإنسان؛ وقيل: انتفاخ في الخصيتين.

(٢) قوله: فطفق: هو بكسر الفاء وفتحها لغتان، معناه: جعل، وأقبل، وصار ملتزمًا لذلك، قاله الإمام النووي.

(٣) رواه البخاري في صحيحه [ج١/ ص ٥٩]، وأحمد في مُسنده [ج٢/ ص ٣١٥].

(٤) رواه الإمام مُسلم [ج٤/ ص ٤٣/ ٤٤].

(٥) ورواه البخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٢٧٤]، والنسائي في السُنن الكُبرى [ج٦/ ص ٤٣٧]، والترمذي في سُننه [ج٥/ ص ٢٠٠، ٢٠١] عن أبي هُريرة، وللترمذي فيه عن أنس، وله عند البزار بلفظه، وذكره ابن كثير في تفسيره [ج٣/ ص ٥٧٠]، ورواه الطبري في تفسيره [ج١٢/ ص ٦٤] عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس موقوفًا [ج٢/ ص ٤٥٧]، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه بهذه السياقة؛ وعنه أخرجه الطبري بلفظه [ج١٢/ ص ٦٤، ٦٥].

بدايةً وقبل أن ننتقل إلى ما نهدِفُ إليه، نودُّ أن نُشير إلى ما قاله الإمام ابن كثير في تفسيره عن الحديث؛ فبعد أن ساق الحديث مستشهدًا به في تفسير آية الأحزاب، ولفظه للبخاري، قال:

وهذا سياقٌ حسنٌ مطول. وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مُسلم، انتهى ما أشار إليه.

قُلت:

وهذه كبوةٌ منه، إذ الحديث في صحيح مُسلم، وهو بشرح النووي [ج٤/ ص ٤٣، ٤٤ - كتاب: الحيض، (١٨) باب: جواز الاغتسال عُريانًا في الخلوة]، فهذا استدراكي، والله أعلم بمراد الإمام رحمه الله ورضي عنه، أهـ.

أمّا في سبب قول الله عزّ وجلّ في تبرأت نبيه موسى عليه السلام، وهو كما علمنا جاء تعدد اللفظ الضمني، وأمّا المُراد منه، وهو تبرأته.

فمن ألفاظه ما قد سبق.

وهذا الأثر الذي ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره، معزوًا لابن أبي حاتم؛ بسنده عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباسٍ، عن على بن أبي طالب رضي الله عنه. [1]

وذكره الإمام ابن حجر في فتح الباري، وعزاه إلى أحمد بن منيع في مُسنده والطبري وابن أبي حاتم؛ وقال إشارة إلى قوة سنده: بإسنادٍ قوي. [2]

فعن ابن عباسٍ، عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في قول الله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ - واللفظ للطبري - الآية، قال:

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره [ج٣/ ص ٥٧١].

(٢) قاله الإمام ابن حجر في فتح الباري [ج٨/ ص ٣٩٥].

صَعِد موسى وهارون الجبل، فمات هارون فقالت بنو إسرائيل: أنت قَتلّتهُ، وكان أشدّ حُبًا لنا منك، وألينُ لنا منك، فآذوه بذلك فأمر الله الملائكة فحملتُه حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلَّمت الملائكة بموته، حتى عرفت بنو إسرائيل أنّهُ قد مات، فبرأه الله من ذلك، فانطلقوا به فدفنوه، فلم يطلع على قبره أحد من الخلق إلاّ الرخم، فجعله اللهُ أصم وأبكم. (١)

ثم قال الإمام الطبري:

وأولى الأقوال، في ذلك بالصواب أن يُقال: إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يُؤذى به، فبرأهُ الله مما آذوه به.

وجائزٌ أن يكون ذلك قيلهم أنّهُ أبرص، وجائزٌ أن يكون ادّعاءهم عليه قتل أخيه هارون؛ وجائزُ أن يكون كُل ذلك، لأنّهُ قد ذُكِرَ كُلّ ذلك أنهم قد آذوه به ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله أنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا.

وبالمعنى قال الإمام ابن كثير.

وبه قال الإمام ابن حجر، فجاء قوله: قُلتُ:

وما في الصحيح أصح من هذا، لكن لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة، أهـ.

انظر أخا الإسلام إلى جراءة هؤلاء اليهود والتي وصلت إلى حدّ التبجح على الله تعالى، وعلى رَسُوله موسى عليه السلام، والتي أيضًا قد أدخلتهم إلى دائرة الكُفر والحمدُ لله على عدّل الله فيهم.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره بلفظه [ج١٢/ ص ٦٤، ٦٥].

ولنا هنا ثلاث جُمل نُريد أن نتعرض لهم بالقول والإيضاح.

فأمّا الأوّلى:

قولهم لعنهم الله في موسى: (والله ما يمنعُ موسى أن يغتسل معنا إلا أنّهُ آدَرُ) ومعنى: آدَرُ - كما ذكرنا هو: عِظم بالخصيتين، أي انتفاخ بهما، وهو لتسرب سائل في غلافهما كما قيل.

عليهم لعنة الله؛ هل يجوز أن يُقال هذا في حق الأنبياء وهم صفوة خلق الله من البشر، وهم خيرهم، بل وفيمن!؟ إنّهُ نبيهم الذي تحمل منهم الكثير والكثير! وقد جاء على لسانهم خَرِصه الله أيضًا في لفظ آخر للبخاري والنسائي واللفظ له: [ما استتر هذا السَّتر إلاّ من شيء بجلده، إمّا برصٌ، وإمّا أُدرةٌ، أو آفةٌ].

يا سُبحان الله. رموه بأشياء يستحيل على العقل أن يُصدِقَهُ ويؤمِنُ به؛ وما هذا إلاّ لفسقهم، وإفكهم، وضلالهم، وسفاهة عقولهم الوَهِنة الخَرِبة.

فرسولهم هذا هو الذي أنقذهم من السُخرة من تحت يدٍ فرعون لعنه الله، وكان ذلك بفضل الله ورحمته، وبه أيضًا أنقذهم، أو بعضهم ممن آمن وظلْ على إيمانهُ؛ فهو الذي أنقذهم من النار باتباعهم له، وأدخلهم الجنة على إيمان من آمن.

الثانية:

رميهم سيدنا موسى عليه السلام بالإفك مِن أنّهُ هو الذي قتل أخيه هارون عليه السلام، فجاء قولهم: (أنت قتلته).

فهل يعقل أن يقتُل أخاه، وإن جاز ذلك، ففي حقه لا يجوز، لأنّهُ مأمورٌ بأمر الله، ومنهيًا بنواهيه، فإن كان قد قتله، فقد قتله بأمرٍ من اللهِ تعالى؛ وهل يَأمُرُ الله تعالى بالفحشاء؟

هل يأمُرُ بقتل نفسٍ ذكيةً عُدوانًا وظُلمًا والعياذُ بالله؟

قطعًا لا يُتخيل ولا يُقال بذلك!

ما قالوا ذلك إلّا لسفاهة عقولهم، ولكفرهم، ولُخبثِ نفوسهم اللعينة.

الثالثة:

قولهم له ﷺ: (وكان أشدّ حُبًا لنا مِنك، وألينُ لنا مِنك) وهذا مكرٌ ودهاءٌ خبيث.

فما هذا بقول حق في مقام مدح؛ فما هو بِمُرضي لهارون أن يسمعه، ولا هو بذمّ في حق موسى وانتقاصٍ منه والعياذ بالله.

فهذه جبلّتهم اللّعينة، يضربون بعض الأشخاص في بعض، أو جماعات في بعض، أو بعض الدول في بعض، حتى يخرجوا بنتيجة واحدة، ولصالحهم.

وقد تدفعهم المضاربةُ هذه أن يقتلوا حتى وإن كان الشخص عزيزًا عندهم ذا وجاهة، فلا يهُم، المُهم أن تحدُث فتنة، وتكون الوقيعة، ويقفوا موقف المتفرج، لعلّهم يفوزوا بما سيتبقى من جرّاء هذا التناحر؛ عليهم لعنة الله.

فهلا اتعظنا، وأخذنا من ذلك العبرة، وأخذنا منهم حِذرنا، ولا نوالي منهم، ولا نثِقُ فيهم، ولا نأمن لهم مكرًا، أهـ.

ولقد قالوا ما قالوا لنبيهم، حتى يثيروا حفيظة البعض، فتكون فتنة، وكذلك ليقلبوا بعضهم عليه. يا سُبحان الله.

إلاّ أنّ الله ناصرُ أنبياءه ورُسُلَهُ، وناجزَ وعَدهُ عِبادُه المؤمنين، شريطة أن ينصُروه، ولَيَنْصُرنّ اللهُ من ينصُرُه.

والذي ذكرناه هذا من سوءٍ قد نسبته اليهود إلى نبيهم، ما كان يحق لهم ولا يجوز أن ينسبوه له، فقد قالها لهم موسى صراحةً، وهو ما حكاه القُرآن الكريم، فجاء قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

[الصف: ٥]

فهكذا ودائمًا وأبدًا يصفهم خالقهم بالفسق، وما يصفهم بها ويُكررُها إلاّ لأنهم استحقوها، ولن تنفك عنهم إلاّ ما هدى الله.

وأمّا هارون هذا والذي قالوا في حقه ما قالوا ومدحوه به، انظر إلى ما قالوا فيه مِن أنّهُ هو الذي قد صنع العجل ليعبدوه من دون الله، فانظر إلى هذا العنوان: هارون يصنع عِجل الذهب (**الإصحاح الثاني والثلاثون**)[1] (وهو من نص التوراة).

ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل، اجتمعوا حول هارون، وقالوا له: (هيا: اصنع لنا إلهًا يتقدمُنا في مسيرنا [2]، لأننا لا ندري ماذا أصاب هذا الرجُلِ موسى الذي أخرجنا من ديار مصر). فأجابهم هارون: (انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبنيكم، وأعطوني إياها).

فنـــزعوها من آذانهم، وجاءوا بها إليه. فأخذها منهم وصَهَرها وصاغ عِجلاً.

(١) التوراة والقُرآن مقارنة نصية (الجزء الأوّل – قصة الخلق والخروج من الجنة وقصص الأنبياء – ص ١٩١].

(٢) قولهم: مسيرنا: أي: مسيرهم إلى جبل طور سيناء بصحبة نبي الله هارون لملاقاة موسى عليه السلام هُناك لمناجاة الله عزّ وجلّ، وقد سبق ذِكرُ ذلك، وما حدث منهم ولهم.

عندئذٍ قالوا: (هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أخرجتك من ديار مصر). وعندما شاهد هارون ذلك شيّدَ مذبحًا أمام العِجل وأعلن: (غدًا هو عيدُ الربّ). فبكّرً فأكلوا وشربوا ومن ثمّ قاموا للهو والمجون، أهـ.

هذا النص وهو منقول من التوراة فيه كذب وافتراء، وهو أيضًا بيِّن التحريف، لقد رموا سيدنا هارون بالشرك والنقيصة والعياذ بالله من ذلك؛ ونسبوا إليه ضُعف الإيمان وسفه العقل والإرادة، لعنهم الله من أفّاكين وكذّابين.

لقد سبق في ذكرنا لاتخاذ قوم موسى العجل، مِن أهم هُمْ الذين فعلوا هذا بمحض إرادهم، وكاد نبي الله هارون أن يُهلك شفقة عليهم، ومخافةً من الله؛ وإليك أخا الإسلام الكريم تفنيد مزاعمهم وفسقهم.

لقد جاء نقلاً عن نص التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثون – قولهم:

(هيا، اصنع لنا إلهًا يتقدمُنا في مسيرنا).

قولهم هذا يُبين أنّ المُتكلم على صلة وثيقة بالسامع الحاضر، وكذلك من الثقة المُطلقة والتي بين ثنايا الكلام، وهذا كذب، فليس من اليسير أن يكون الحوار بين هؤلاء الفسقة، وبين نبي الله هارون عليه السلام بهذه السهولة والطمأنينة، هذا شيء.

والشيء الآخر تجده في نص القُرآن والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّهُ تنــزلُ العزيزِ الحميد، وأنّهُ محفوظ ومُصان بعناية الله تعالى إلى يوم الدين، فنص القُرآن الكريم قد أبان بأن من اتخذ العجل هُم قوم موسى.

وفي ذلك يقول تعالى:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ

خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

[الأعراف: ١٤٨]

فهذه الآية تُبين كَذِبَهُم وافترائهم على نبي الله هارون، لا كما زعموا مِن أنّهُ هو الذي صنع العجل؛ بل هُمْ الذين طلبوا ذلك وشرعوا فيه.

ثم يأتي نص التوراة – بقولهم:

فأجابهم هارون:

(انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتِكم وبَنيكم، وأعطوني إياها) فهذا النص يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن هارون هو القائلُ هذا.

وما في القُرآن يخالف الباطل لما فيه من الحق، وأنّهُ كما ذكرنا يقُصُ على بني إسرائيل كثيرًا مما كانوا فيه يختلفون، يقول الله تعالى:

قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

[طه: ٨٧]

أي أن الطالب لهذا، والعارض على القوم أن يفعلوا هذا، والـمُنفّذَ لذلك هو السامري قبحه الله، لا كما يزعمون أن هارون هو القائلُ بهذا.

ثم يأتي نص التوراة مُعلنًا أن هارون عقد أمره، وشدّ أزره، وشمْرّ عن ساعده فصنع لهم العجل، فجاء قوله:

(فنــزعوها من آذانهم، وجاءوا بها إليه. فأخذها منهم وصَهَرها وصاغ عِجلاً).

وما في القُرآن يُدحضُ مقالتهم، ويكشف عن وجههم القبيح، ولسانهم الزائف الفاجر، والذي لا يَكُف عن قول الزور ورمي الآخرين بالإفك، والخوض في الباطل؛ وفي ذلك يقول تعالى:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝﴾

[طه: ٩٥، ٩٦]

فهذه براءةٌ لنبي الله هارون عليه السلام فيما ينسبُوه له.

ولِننتقل إلى مشهد سفاهة العقول ظاهرةً فيه، وجليِّة، وهو قولهم:

عندئذٍ قالوا: (هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أخرجتك من ديار مصر).

ففي هذا القول عِدة أشياء تُبين لنا مدى سفاهة عقولهم، وعدم إدراكهم بواقعهم، وأنهم فاقِدوا الوعي بالحاضر:

منها:

قولهم: (هذه آلهتُك) هكذا بصيغة الجمع، في حين المصنوع واحد وهو العجل، فكيف نطقوا هذا، الله أعلم.

الثاني:

قولهم: (هذه آلهتُك يا إسرائيل) وإسرائيل هو: نبي الله يعقوب عليه السلام، وبينه وبين موسى أمدٌ، فكيف يُخاطبون من قد وافته منيته، وصار بجوار ربه، وهو غائب عنهم وليس بحاضر، وثمة شيءٌ آخر: ما صلة يعقوب بملة موسى عليه السلام، وكذا رسالته.



الثالث:

قولهم: (التي أخرجتك من ديار مصر) هل العجل له فعل؟ قطعًا لا!

فما المقصود من قولهم: (أخرجتك من ديار مصر)، فإن كانوا يُريدون أنفسهم فما شأنهم ويعقوب، وإن كانوا يُريدون يعقوب فإنّهُ لم يخرج من أرض مصر، بل لقد دعاه ابنه يوسف عليه السلام لدخولها هو وأمه وإخوته مصر إن شاء الله آمنين.

فماذا يقصدون بقولهم هذا؟

فالله أعلم!

الرابع:

قولهم: وعندما شاهد هارون ذلك شيّد مذبحًا أمام العِجل وأعلن: (غدًا هو عيدُ الربّ).

هذا القول يُبين أنّ هارون عليه السلام موافق لكل هذه الأعمال، ومؤيدًا لها، وتابعٌ لفعلها، وهذا كذبٌ وافتراء.

ويُبين أيضًا أن هارون بقوله هذا عند رؤيته لِفعالهم مبتهج، ومُنشرح الصدر، وهذا ليس بصحيح.

ثُمْ ماذا؟

(شيّد مذبحًا أمام العجل) هذا أفرى الفِرى، وهذا عينُ الشرك، وصُنع العِجل شِرك، وهذا مُحالٌ مُحالٌ مُحال، والعياذُ بالله.

هل يُعقل أن يُصاغ في حق الأنبياء أن يتخذوا غير اللهِ أصنامًا آلهةً. بل ويشيّدوا عندها المذابح ليُذبح لها من دون الله؟

ثم ماذا؟

وأعلن: (غدًا عيدُ الربّ) أيُّ عيدًا هذا لأي ربّ؟

يقول القرآن حكايةً عن نبيه هارون وتبرأةً له؛ يقول تعالى:

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

[الأعراف: ١٤٩: ١٥١]

ويقول تعالى:

وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾

[طه: ٩٠: ٩٤]

صدق الله العظيم، وإنّا نحن المسلمين على ذلك من الشاهدين.

الخامس:

قولهم: (فبكرَّ الشعب فى اليوم الثاني وأصعدوا محرقات وقدموا قرابين سلام).
قولهم: (فبكرَّ الشعب فى اليوم الثاني) هذا يدلُّ عن شأنهم في ليلهم يومئذ، فإنهم قد باتوا منشغلين بإلههم الجديد، ولم يُفكر من كان ذا عقل في فعلهم هذا، بل لم يفكروا جميعًا في صنيعهم هذا، أيُرضي ربهم أمّ سيُسخطهُ، أمّ سيأتي بالسُخط عليهم.

فكان ما أمرهم على لسان نبيه موسى عليه السلام أن يُقَتّلوا أنفُسَهُم بأيديهم، وفي ذلك كان المشقة والذُلّ والمهانة. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

[البقرة: ٥٤]

يا سُبحان الله. بهذا افتُضح كذبهم وفِسقهُم وافتراءهم، ومع هذا فقد تاب على سلفهم وغَفِرَ للقاتل والمقتول كما وقد سبق أن ذكرنا، إنّهُ هو التواب الرحيم، سُبحانُه وتعالى.

ومع ذلك تسمع من تبجحهم أنهم سيدخلون جهنم أربعين يومًا مُدة عبادتهم العِجل.

يا سُبحان الله. هل علموا الغيب؟

وما الخير الذي قدموه لأنفسهم وللبشرية حتى يُغفر لهم، لم يُوجد لهم خيرٌ قط.

ومع ذلك جاء افتضاح أمرهم مِن أنّهُم كذبة وفسقة وأفّاكون.

يقول تعالى:

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

[البقرة: ٨٠]

يتوالى الردُّ من الله تعالى على دحض ادّعاء هؤلاء اليهود، وعلى كذبهم، وعلى افتراءهم، وعلى إضلالهم الناس، وعلى تحويرهم الحق وقلّبَهُ إلى باطل، وعلى زيف الحقائق.

إلّا أنّ قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوة، ولا تنجع معهم نصيحة أو هداية.

وقولهم: (وأصعدوا المحرقات) أي أن ما أحرقوا زُلفًا لهذا العجل قد صعد لهيبه إلى السماء.

وقولهم: (وقدموا قرابين سلام) أولاً: قدموا القرابين للعجل من دون الله ومع أنّهُ شِرك؛ إلّا أنّهُ يُبين ما مدى سفاهة عقولهم.

ثُمَّ أيُّ سلام؟

إنهم مُدّعون، فإنهم لا سلام لهم، ولا سلام عليهم، فهُم سفّاكون للدماء، يعشقون القتل، وترتاح نفوسهم الشيطانية الخبيثة لذلك، فقد ملئوا الأرض سفكًا من دماء المسلمين الطاهرة الذكية، وكذا دِماء الأبرياء من البشر، فلا ريب مِن أنّ مصيرهم المحتوم جهنم وبئس المصير.

السادس:

قولهم: (ثم احتفلوا فأكلوا وشربوا، ومن ثَمَّ قاموا للهو والمُجون).

هذا يُبين ماديتهم، ومادية نفوسهم، فلا شيء يُشغِلّهُم عن الدُنيا وما يساعد على بقاء أبدانهم؛ ومن ثَمَّ اتخذوا الأعياد للأكل والشرب، مثل عيد الأُم، وعيد العُمال، ونحن أتخذنا عيد المولد النبوي للأكل والشرب، وغير ذلك كثير؛ نسأل الله العفو والعافية.

وقولهم: (ومن ثَمَّ قاموا للهو والمُجون) هكذا حياقم، وهذه معايشهم، ولا نغتر بثورتهم العلمية والتكنولوجية، فإن هذا أمرٌ قد قضاهُ اللهُ أذلاً.

وإنهم أيضًا يستعملون هذا؛ إمّا فى الحرب والخراب والدمار!

وإمّا لضمان البقاء على الأرض والترفيه والعيش الرغِد؛ أهـ.

لعلّنا قد وفقنَا فيما أردنا أن نُبينه فى رميهم نبي الله هارون بأشياء هو منها برآء، وهذا قليلٌ من كثير، ونكتفي بهذا القدر، ولله الحمد ومنه المِنّة، وعليه التُكلان، فهو حسبُنا ونِعم الوكيل.

حال اليهود مع خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام



حينما نتكلم على وضع اليهود مع أنبياء الله تعالى، فإن الكلام مُؤلم، وجدٌّ خطير، فكما يُقال عِنده الخط الأحمر المُلتهب.

وهنا وبكتابتنا هذه السطور، فلن يكون الكلام بالأسلوب القصصي المعهود، كلا.

فإني سأتكلم فقط من خلال بعض الآيات القُرآنية، والتي سجلت لنا بعض مواقف اليهود بشكل عام مع أنبياء الله تعالى، بل سنتكلّمُ على بعض أنبياءه والذين كان لهم مع اليهود شأنٌ عظيم، أمثال نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام، داوُد عليه السلام، سُليمان عليه السلام، زكريا عليه السلام، يحيى عليه السلام، عيسى عليه السلام، وأخيرًا خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى إخوانهُ مِن الأنبياء والمرسلين.

وبدايةً سيكون الحوار مع سيدنا إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم نبي الله تعالى، وهو أبو الأنبياء، ولقد سُمْيَّ بأبو الأنبياء لأن رُسُل الله تعالى وأنبياء بني إسرائيل من نسلِه الطاهر الزكي.

فلقد منَّ الله تعالى عليه وبعد ما بلغ من الكِبر عتيًا، بإسماعيل وإسحاق، وكانت جميع أنبياء بني إسرائيل من نسل إسحاق نبي الله تعالى، ابن نبي الله إبراهيم عليه السلام، إلاّ أنّ الله تعالى قد منَّ علينا نحن المسلمين بأن جعلنا ورثة المِلة الحنيفية السمحة، وكانت من حظ خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وهو الوحيد كذلك الذي انحدر من نسل ذبيح الله تعالى، إسماعيل عليه السلام، ابن إبراهيم عليه السلام.

فمن خلال سياق تلك السطور قد عَلِمنا أنّ إبراهيم أبو الأنبياء، وهذا يُبين

أنّ موسى وعيسى قد جيئوا من بعده، وأنّ موسى أُنزِلَ عليه التوراة، ومِلّتهُ اليهودية وأن عيسى أُنزِلَ عليه الإنجيل ومِلّتهُ النصرانية.

إذن فلا عِلاقة لإبراهيم نبي الله تعالى باليهودية والنصرانية.

فمن هو إبراهيم عليه السلام؟

يقول الله تعالى:

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾

[مريم: ٤١]

أي: أنّهُ كان صدوقًا شديد الصدق، وهي صفة مبالغة.

ويقول تعالى:

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

[الأنبياء: ٥١]

أي: آتيناه هُداه قبل بلوغه، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنّهُ أهلٌ لذلك الفضل ولتلك المِنّة.

ويقول فيه عزّ وجلّ:

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

[النحل: ١٢٠: ١٢٢]

يقول الإمام ابن كثير:

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحُنفاء ووالد الأنبياء، ويُبرئه من المُشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾، فأمّا الأُمة: فهو الإمام الذي يُقتدى به.

والقانت: هو الخاشع المُطيع.

والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ثم قال:

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى:

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ [النجم: ٣٧]

أي: قام بجميع ما أمرُه الله تعالى به.

وقوله: و﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه.

ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرعٍ مُرضي.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدُنيا في جميع ما يحتاجُ المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أهـ[1].

ولقد نفى الله تعالى عن نبيه الخليلُ إبراهيم عليه السلام ما رمته به اليهود والنصارى، سواء كان من ناحية الشريعة، فلم تنــزل عليه لا الإنجيل ولا التوراة، وكذلك لم تكن مِلّتُه اليهودية ولا النصرانية.

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٦٥١] بتصرف.

ففي الأولى يقول تعالى:

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾

[آل عمران: ٦٥]

أي: يا أهل الكتاب. لِمَ تُجادلون في إبراهيم، أيهوديًا أم نصرانيًا؟

فالجواب: لم يكن يهوديًا، لأن موسى وهو نبي اليهودية من نسل إبراهيم، فهل يُعقل أن ننسبَ لمن سبق ما هو كائن، لا يجُوزُ شرعًا وعقلاً.

وأيضًا. لقد نزلت التوراة بعد وفاة إبراهيم، وهو وقتئذ لم يكن حاضرًا ولا شاهدًا لذلك، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ما تنسبوه إليه، وما تقولونه عليه من سفاهات.

أمّا من ناحية المِلّة، فجاء قوله تعالى:

أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

[البقرة: ١٤٠]

قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ الاية، يقول الإمام الطبري.

أم تزعمون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن سمى الله كانوا هودًا أو نصارى على مِلّتكم، فيصح للناس بَهْتكم وكذبكم؛ لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الذين سمّاهم الله من أنبيائه.

ثم قال الإمام:

يقول الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ: قُل يا مُحمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتُحاجّوننا فى الله، وتزعمُون أن دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هُدى ونحن على ضلالة ببرهان من الله تعالى ذِكرُه فتدعوننا إلى دينكم؟

فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه! أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى على دينكم؟

فهاتوا على دعواكم ما ادّعيتُم من ذلك برهانًا فنُصدّقكم! فإن الله قد جعلهم أئمة يُقتدى بهم. (1)

وقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، قيل فى الآية:

تقرير وتوبيخ فى ادّعائهم أنهم كانوا هودًا أو نصارى؛ فردّ الله عليهم بأنّهُ أعلم بهم منكم، أي لم يكونوا هودًا أو نصارى. (2)

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصري:

كانوا يقرؤون كتاب الله الذي آتاهم: أنّ الدين الإسلام، وأنّ محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا بُرآء من اليهودية والنصرانية، فَشهدُوا لله بذلك وأقرّوا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك. (3)

وأمّا قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمانكم الحق فيما ألزمكم في كتابه وبيانهُ للناس، ومن أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في أمر

(1) تفسير الطبري [ج1/ ص ٧٩٦، ٧٩٧] بتصرف.
(2) تفسير القُرطبي [ج1/ ص ٦٣٧].
(3) تفسير ابن كثير [ج1/ ص ٢٢٠].

الإسلام، وأنهم كانوا مُسلمين، وأن الحنيفية المُسلمة دين الله الذي - أوجب [1] - على جميع الخلق الدينُونة به دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من المِلل.

ولا هو ساهٍ عن عقابكم على فِعلكم ذلك، بل هو مُحصٍ عليكم حتى يُجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهلٌ في عاجل الدُنيا وفي آجِلَ الآخرة.

فجازاهم عاجلاً فى الدُنيا بقتل بعضهم وإجلائه عن وطنه وداره [2]، وهو مجازيهم فى الآخرة العذاب المُهين. [3]

وهُنا يطرحُ سؤالاً نفسه:

لماذا خصت اليهود هؤلاء الأنبياء بأسمائهم وصفاتهم والنصارى، من أنهم كانوا هودًا - أي على اليهودية، أو: نصارى - أي على النصرانية؟

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وإسماعيل ابنه الأكبر عليه السلام، وهو جدُّ العرب، ومن نسله نبينا محمد ﷺ.

وهو ذبيح الله، والذي فداه الله تعالى بكبشٍ عظيم، واجتباه وهداه وجعله نبيًا من الصالحين.

وإسحاق عليه السلام ابن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو جدُّ اليهود، ويعقوب عليه السلام هو أبو الأسباط الاثنى عشر، والذين تاب الله عليهم وهداهم واجتباهم وجعلهم أنبياء من الصالحين.

فإذا كان هذا شأنهم فمن الفخر أن تحاول اليهود أن ينسبوا هؤلاء إلى اليهودية، وما هُم كذلك؛ فما أُنزلت التوراة إلّا من بعد هؤلاء بآمادٍ بعيدة، وقُرُونٍ مديدة.

---

(١) قوله: أوجب: لم تكن موجودة فى المطبوع، ولكن أوردناها ليستقيم المعنى.
(٢) يُريد بقوله هذا: أن الله تعالى أجلّي اليهود من أرض مكة على يدِّ نبيه محمد ﷺ.
(٣) تفسير الطبري [ج١/ ص ٧٩٩].

فمن السفه أن يُنسبّ إليهم مثلُ ذلك.

ثم انظر إلى قول الحق جلّ وعلا:

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

[آل عمران: ٦٥: ٦٧]

روى الإمام الطبري بسنده، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال:

اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيمُ إلّا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيمُ إلّا نصرانيًا. فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ قالت النصارى: كان نصرانيًا وقالت اليهود: كان يهوديًا، فأخبرهُم الله أن التوراة و الإنجيل ما أُنزِلا إلّا من بعده، وبَعدَهُ كانت اليهودية والنصرانية. (١)

هذا دأب اليهود تزييف الحقائق، وفي تغيير معالم التاريخ كما يفعلون

(١) رواه الطبري في تفسيره [ج٣/ ص ٤١٤]، وابن إسحاق في سيرة ابن هشام [ج٢/ ص ١٣٤]، وذكره السيوطي في أسباب النزول في تنوير المقباس من تفسير ابن عباس [ص ٥٨، ٥٩]، وذكره مُذيلاً في تفسير الجلالين [ص ١٦٢، ١٦٣]، وقال: أخرجه البيهقي في الدلائل.

بالأراضي العربية، والتي قد احتلوها غصبًا وسرقةً، وزيفوا وحرفوا التاريخ المرتبط بأرض فلسطين، حتى تكون لهم يدٌ على الأرض، إلّا أن الحق جليٌّ، أهـ.

وفي الآية تجد قوله تعالى: ﴿يَا﴾ وهو حرفُ نداء، وقوله: ﴿تُحَآجُّونَ﴾ أي تُجادلون وتختصمون، ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في شأنّهُ، أيهوديًا كان أم نصرانيًا؟

إلّا أن الله عزّ وجلّ فضح ادّعائهم، وكشف مُحاولة تزييفهم للحقائق الثابتة والمعلومة، فقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ لمن قال أنّهُ يهوديًا ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾ لمن قال أنّهُ كان نصرانيًا، فما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا عليكم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ثم أنزلهم الله تعالى إلى مرتبة من لا يعقل ولا يفقه، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فقوله: ﴿هَا﴾ وهو حرفُ تنبيه، وقوله: ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: من شأن دينكم، وفي أمر نبيكم موسى عليه السلام، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: فَلِمَ تُجادلون في أمر إبراهيم عليه السلام، وليس عندكم علمٌ من الغيب الذي قد مضى مع وقته وعصره، وأن الغيب عند الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ من شأن إبراهيم عليه السلام لا غيره.

ثم حسم الله تعالى القضية والتي أثاروها، وبرأ إبراهيم عليه السلام مما نسبوه إليه سفهًا بغير علم وزورًا من القول ليس إلّا.

فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الأديان كُلها إلى الدين القيّم ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: مُوحدًا [1]، وقيل خاشعًا لله بقلبه، ومُتذلّلاً له بجوارحه، مُذعنًا لما فُرضَ عليه وألزمه من أحكامه [2]. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله عزّ وجلّ، وهذا مقام مدحٍ وثناء على خليله إبراهيم عليه السلام، أهـ.

---

(١) تفسير الجلالين [ص ٧٥].

(٢) تفسير الطبري [ج٣/ ص ٤١٦].

ثم أجزلَ اللهُ علينا عطاءه، وأفاض علينا من فضله، وأتمّ علينا مِن نعمه، وزادنا شرفًا بمحمد ﷺ على شرف بحنيفية إبراهيم عليه السلام. فقال تعالى:

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

[آل عمران: ٦٨]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أحق الناس ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه ووقته وآمنوا به وصدقوه، وأسلموا لله وحده ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أي: سيدنا ونبينا خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

وقد نطق رسول الله ﷺ بهذا الفضل، فجاء قوله والذي رواه عبد الله (هو ابن مسعود) رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

[إن لكُل نبي وُلاةً من النبيين، وإن وليي أبي وخليلُ ربي، ثم قرأ:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾]. (١)

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بنبينا محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو وليّ رُسُله، ووليُّ من آمن وممن اتبع رُسُله.

(١) رواه الترمذي [ج٥/ ص ٦٨، ٦٩]، ورواه الحاكم في المستدرك [ج٢/ ص ٣٢٠]، ورواه الإمام أحمد في مُسنده [ج١/ ص ٤٠٠، ٤٠١]، والطبري في تفسيره [ج٣/ ص ٤١٨] جميعًا من رواية: أبي الضُحى، عن مسروق، وعن عبد الله ... به، وللإمام الترمذي وأحمد، من طريق: سفيان (هو ابن سعيد)، عن أبيه، عن أبي الضُحى، عن عبد الله ... به، ثم قال الإمام الترمذي: قال أبو عيسى: هذا أصحُ من حديث أبي الضُحى، عن مسروق، أهـ.

حال اليهود مع نبي الله تعالى حزقيل عليه السلام



إن الأنبياء الذين قد بعثهم الله تعالى في بني إسرائيل لا يعلمُ عِدّتهم إلّا الله تعالى، ولا يُحصيهم سواه.

بيد أنَّ القُرآن ذكر لنا أخبارًا عن البعض منهم وجاءت السُنة بشيء من ذلك أيضًا، وقد تعرض علماؤنا للقول في أخبارهم وقصصهم.

والأمر كما ذكرنا سلفًا مِن أنَّ ذِكرنا أنبياء بني إسرائيل، لم يجيء على سبيل الحصر، ولم يأت بالأسلوب القصصي الصرف؛ بل نأتي ببعض ما أشار إليه القُرآن الكريم اختصارًا، وتفنيد مواقف شعب إسرائيل مع أنبياءهم، وقتلّهم الأنبياء بغير حق، وخُذلانهم لأنبيائهم، وإعلانهم المستمر للضجر والتذمّر، ودأبهم فى العصيان لله تعالى.

وهنا بدء ذي بدء نقول وبالله التوفيق:

أوّل ما نبدأ به حديثنا، ما أشارت إليه الآية الكريمة، وهو في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

[البقرة: ٢٤٣]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ، وهو إعلام وبيان وعِلم، وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية. فقد جاء في بيان تلك الآية، أنّ بني إسرائيل أو بعضهم قد خرجوا من دُورِهم، وقد جاوزوا العشرة آلاف أو يزيدوا قليلاً.

وكان سبب خروجهم من ديارهم، والذي جاء فيه قولان:

الأول: أنّهُ كان بأرضهم والتي كانوا يعيشون فيها طاعون، فخرجوا أو بعضهم هربًا وفرارًا من تلك الأوبئة حذر الموت، وهذا أمرٌ واجبٌ شرعي لا غُبار عليه.

أمّا الثاني: فقيل: أنهم خرجوا من ديارهم فِرار من الجهاد، وخوفًا من ملاقاة جبابرة زمانهم، والذي أُمروا أن يُقاتلوهم.

وفي هذا جاءت الآثار ناطقةً به، وذكره كُلاً من : الإمام ابن العربي في كتابه (أحكام القُرآن) وتَبِعهُ الإمام القُرطبي، وذكر ذلك الإمام ابن كثير في ثُلاثيته [1]، وكذا الإمام أبي إسحاق الثعلبي في كتابه (قصصُ الأنبياء).

وفي ذلك يقول الإمام ابن العربي:

الأصحُّ والأشهر أنَّ خروجهم، إنما كان فرارًا من الطاعون، وهذا حُكمٌ باقٍ في مِلّتنا لم يتغير. [2]

وسواء كان خروجهم من ديارهم فِرارًا من الطاعون، أو فِرارًا من القتال ألاّ يُقاتلوا، فإن مضمون الحدث هو الإماتة مِن قِبلِّ الله عزّ وجلّ لهم، ثم إحيائهم على لسان نبيهم.

وقد سمّاه محمد بن إسحاق فقال: حزقيل بن بوذي – وهو ابن العجوز.[3]

وقال الثعلبي:

حزقيل بن بوري – ويُلقب بابن العجوز؛ وإنما لُقِبَ بابن العجوز لأن أُمهُ

---

(١) قوله: ثلاثيته: إشارة إلى تصانيفه الثلاثة: تفسير القُرآن العظيم، البداية والنهاية، قصصُ الأنبياء.

(٢) أحكام القُرآن لابن العربي [ج١/ ص ٢٢٨].

(٣) البداية النهاية [ج٢ / ص ٣].

سألت الله تعالى الولد وهي عجوز، وقد كَبُرت وعقمت عن الولد، فوهبهُ الله تعالى لها. [١]

وفي قصته مع بني إسرائيل، والحدث الذي من أجله، جاءت الآية ناطقةً بالخبر ما رواه الطبري في تفسيره بسنده، عن محمد بن إسحاق، قال:

بلغني أنّهُ كان من حديثهم أنهم خرجوا فِرارًا من بعض الأوباء من الطاعون، أو من: سَقم كان يُصيب الناس، حذرًا من الموت، وهُم ألوف، حتى إذا نزلوا بصعيد[٢] من البلاد، ثم قال لَهم الله: موتوا! فماتوا جميعًا، فعمد أهلُ تلك البلاد فحظروا[٣] عليهم حظيرة دون السباع، ثم تركوهم فيها، وذلك أنهم كثروا عن أن يغيبوا.

فمرّت بهم الأزمان والدُهور، حتى صاروا عِظامًا نخِرةً، فمرَّ بهم حزقيل بن بوزي، فوقف عليهم، فتعْجبٌ لأمرهم، ودخلُه - أي الحُظر - رحمةً لهم، فقيل له:

أتُحِبّ أن يحييهم الله؟

فقال: نعم.

فقيل له: نادِهم! فقال: أيُّها العظام الرميم التي قد رمَّت وبَلِيَت، ليرجع كُل عظمٍ إلى صاحبه، فناداهم بذلك.

فنظر إلى العظام تُواثب يأخُذُ بعضُها بعضًا؛ ثم قيل له: قُل. أيُّها اللّحم والعصب والجلد اكسِ العظام بإذن ربك! قال فنظر إليها والعصب يأخُذ العِظام ثم اللّحم والجِلد والأشعار، حتى استووا خلْقًا ليست فيهم الأرواح، ثم دعا لهم

(١) قصصُ الأنبياء لأبي إسحاق الثعلبي [ص ١٤٠].

(٢) قوله: بصعيد: الصَّعيدُ: الموضعُ الواسع، المُعجم الوسيط [ج١/ ص ٥٢٤ - مادة: صَعدَ].

(٣) قوله: فحظروا: الحَظيرة: المُوضع يُحاط عليه لتأوي إليه الماشية يقيها البرد والريح، المُعجم الوسيط [ج١/ ص ١٩٠ - مادة: حظر].

بالحياة، فتغشَّاهم من السماء كَدية [1] حتى غُشيَّ عليه منه؛ ثم أفاق والقوم جلُوس يقولون: سُبحان الله، سُبحان الله! قد أحياهم الله. [2]

وإذا ما حومنا حول النص نجد بعض الأمور، والتي تحتاج إلى إيضاحات، أو شروح.

فنجد قوله: (خرجوا فرارًا من بعض الأوباء من الطاعون).

فإنهم لم يخرجوا رغبةً في الله، وعملاً بشرعه، بل خرجوا فِرارًا من الموت إلى الحياة، ويؤكد هذا: أن الله تعالى عاملهم بعكس مُرادهم؛ فجاء قوله: (قال لهم الله: موتوا. فماتوا جميعًا).

وإذا كانوا قد خرجوا رغبةً إلى الله لَما أماتهم، إلاّ أنّهُ عزّ وجلّ قابل عملهم بخلاف ما تمنوا وخرجوا له.

وبقية الأثر فيه آية من آيات الله تعالى، وهو النشأة الأُخرى، وإعادة البِنيّة الخلّقية للإنسان، وكان ذلك على الله يسيرًا.

إلاّ أنّ في الأثر شيءٌ يلفتُنا للانتباه إليه، وهو قوله: (حتى غُشيَّ عليه منه)، وهنا كأن الله تعالى أخفى على نبيه حزقيل عليه السلام لحظة اندماج الروح بالبدن وكأن فيها ما تَميلُ له الأبدان، وما تقشعِر منه الجلُود، وما يشيب له الوليد؛ وما ذلك إلاّ رحمةً به.

فسُبحان الله العلي العظيم، القوي المتين، الخالق المُبدِئ المُعيد، الفعّالُ لِما يُريد، أهـ.

وقبل أن ننتقل إلى حوارٍ آخر، يجب علينا أن نعلم ما مدى حرص هؤلاء البشرية على الحياة، والفِرار من الموت، بل الفرار من كل مُقدماته؛ إلاّ أنّ الله تعالى يقول:

---

[1] قوله: كدية: يقول مُحقق تفسير الطبري: ولعلّها السحابة الثقيلة معها بردٌ شديد (انظر اللسان: كدي).

[2] تفسير الطبري [ج١/ ص ٧٩٦].

أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

[البقرة: ١٤٨]

أي: أنّ الله تعالى لا يَعجِزُهُ أحدٌ فى الأرض، فأيُّ أرضٍ تغيب عن الله عزّ وجلّ حتى يتوارى الإنسان فيها، فإن عين الله تعالى ترى ما تحت الثرى، فما بالُنا ونحن على سطحها، أفيخفى أمرُنا عن الله تعالى!؟

ثُمَّ انظر إلى قوله تعالى أيضًا:

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ

[النساء: ٧٨]

فهل عَلمت يهود أنّ الموت لا فِرار منه؟

ولِمَا لا يخافون الموت، وهُم قد علموا أين مآلهم، وكيف حتفهم، فإن جهنم مثوىً لهم.

انظر إلى قول العلي القدير:

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

[الجُمُعة: ٦: ٨]

صدق الله العظيم، اللّهُمّ آمين، فلله الحمد ربُّ العالمين.

وأمّا حال هؤلاء بعد بعثهم من بعد موتهم ما كان لينتهي عند هذا الحدّ، لأنّ آجالهم لم تَحِن بعد، فعاشوا سنين، بل تناسلوا، وصاروا أحياءً بين الناس، إلاّ أن كان لهم سمت مُعين، يُعرفون به.

يقول قتادة:

مقْتهم الله على فرارهم من الموت، وتقصيرهم فى الجهاد - هذا القول على تأويل من قال: أنهم خرجوا فِرارًا من الجهاد في سبيل الله - فأماتهم الله عقوبة لهم، ثم بعثهم لبقية آجالهم ليوفوها، ولو كانت آجال القوم قد جاءت، ما بُعِثُوا بعد موتهم، فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد، قال: [1]

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٤﴾

[البقرة: ٢٤٤]

لا شك مِن أن إسهامات العلم الحديث في كشف حقائق من كانوا قبلنا، لم تكن معلومة لنا، وقد أفادتنا.

ولقد ساعدتنا كثيرًا في معرفة ديننا، وجعلتنا أكثر تمسُكًا به، وزادت قُلُبنا رسوخًا.

فمن تلك العلوم التي نرمُوا إليها فى الحديث، هو عِلم الهندسة الوراثية، ذلك العلم الذي أثبت أن الإنسان أسير السُلالة السالفة فى الصفات الجينية، أو قد يأخُذُ بعضها.

فإذا ما طبقنا هذا بشكل عملي على هؤلاء اليهود، نجد أنّ الرائحة الكريهة والتي تنبعِثُ منهم، ما هي إلاّ شيءٌ متوارث عن أسلافهم مسخ القِردة والخنازير وعبدة العِجل والطاغوت. وكذا أهلُ الكتاب من النصارى.

---

(١) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ١٤١]، وقد رواه مختصرًا الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٧٩٨].

يقول الإمام ابن عباس رضي الله عنهما:

كانوا أربعين ألفًا أو [1] ثمانية آلاف حظر عليهمُ الحظائر، وقد أروحت [2] أجسادهم وأنتنوا، فإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح، وهُم ألوف فِرارًا من الجهادُ في سبيل الله، ثُم أحياهم، فأمرهم بالجهاد، فذلك قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ... الآية. [3]

فوالله الذي لا إله إلّا هو؛ لو تطهروا بكل ما في الأرض من عطور ومُزيلات، ما أُزيلت عنهم تلك الرائحة الكريهة، والتي جعلها العليُّ القدير فيهم إلى يوم القيامة، ثم لا يكون لهم إلّا رائحة جهنم الكريهة، والتي هي جزاءً وفاقًا.

وما ذاك إلّا وصمة عار في جبين الأُمة اليهودية، والذين يتشدقون بالسامية، وهُم أبعد ما يكونوا عنها، وهُم دخلاء على هذه الصفة مُقمِحُون، فهل ثُوِبَ الكُفار ما كانوا يفعلون.

فالحمد لله ربّ العالمين

(١) قوله: أو: لعلّه في الأصل حرف (و) وهو لعطف البيان، والخطأ من النسخ.

(٢) قوله: أروحت : أي تغيرت أجسادهم وأنتنت وصارت لها رائحة.

(٣) رواه الطبري في تفسيره [ج١/ ص ٧٩٥، ٧٩٦]، وذكره الثعلبي في كتابه (قصصُ الأنبياء) [ص ١٤١] عن ابن عباسٍ مختصرًا.

حال اليهود مع نبي الله تعالى شمويل عليه السلام



يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

[البقرة: ٢٤٦]

يقصُّ علينا القُرآن الكريم خبرًا آخر لبني إسرائيل مع نبيٍ لهم، وتُبين الآية الكريمة لنا حوارًا دار بين بني إسرائيل وبين نبيهم.

وهو: شمويل. ويُقالُ له: أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموما بن عزريا.

قال مُقاتل: وهو من ورثة هارون.

وقال مُجاهد: هو شمويل. ويُقال له: أشمويل بن هلفاقا؛(١) ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا؛ فالله أعلم.

وقيل:

شمويل بن بالي بن علقمة بن يَرُحام بن أليَهُوَ بن تُهُوَ بن صُوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا بن صَفية بن علقمة بن أبي ياسق بن قارون بن يَصهر بن

---

(١) البداية والنهاية [ج٢/ ص ٥].

قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم [1] – عليهم الصلاة والسلام.

قُلت:

ويلتقي في نسبه بموسى بن عمران عليه السلام: بابن قاهث بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

إلّا أنّ في نسب شمويل: بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام إلى بقية النسب، واللهُ تعالى أعلم.

وقيل:

هو: شمويل بن بال بن علقمة، ويُعرف بابن العجوز.

ويُقالُ فيه: شمعون، قاله السُدّي. إنما قيل: ابن العجوز لأن أُمّهُ كانت عجوزًا، فسألت الله الولد، وقد كُبرت وعقمت، فوهبهُ الله تعالى لها.

ويُقال له: سمعون، لأنها دعت الله – أي أُمه – أن يرزُقها الولد، فسمِعَ دُعاءها، فولدت غُلامًا فسمته (سمعون)، تقول: سمع اللهُ دُعائي، والسين تصيرُ شينًا بلغة العبرانية، وهو من ولد يعقوب. [2]

وفي رواية الطبري، عن السُدّي: شمعون بالشين – بدل: سمعون [3]. واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) تفسير الطبري: [ج٢/ ص ٨٠٦]، وقال محقق التفسير في ذيل الكتاب: في سفر صمويل الأوّل: ١:١: أن أبا شامويل هو : القانة بن يروحام بن أليهو بن توحو بن صَوف، ولم يُذكر ما بعد ذلك من النسب.

) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ١١٥٥].

تفسير الطبري [ج٢/ ص ٨٠٧].

أمّا ما وردّ في شأن هذا الخبر، والحوار الذي دار بين نبي بني إسرائيل ما ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره قال: قال وهب بن منّبه وغيرُه:

كان بنو إسرائيل من بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مُدةً من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبدً بعضهم الأصنام، ولم يزلّ بين أظهُرِهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكر، ويُقيمهم على منهج التوراة، إلى أنّ فعلوا ما فعلوا، فسلّط الله عليهم أعدائهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرًا، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، ولم يكن أحد يُقاتلهم إلّا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديـم الزمان، وكان موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام؛ فلم يزلّ بهم تماديهم على الضلال حتى استلّبهُ منهم الملوك في بعض الحروب، وأخذوا التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلّا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوى الذي يكون فيه الأنبياء إلّا امرأةً حامِل مِن بعلها قد قُتل.

فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعلّ الله يَرزُقها غُلامًا يكون نبيًا لهم، ولم تَزلّ المرأة تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزُقها غُلامًا.

فَسمِعَ الله لها ووهبها غُلامًا فسمته: شمويل. أي: سَمِعَ اللهُ دُعائي.

ومنهم من يقول شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغُلام ونشأ فيهم، وأنبتهُ الله نباتًا حسنًا؛ فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يُقيم لهم مَلِكًا يُقاتلون معه أعداءهم.

وكان المُلك أيضًا قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم مَلكًا ألا تُقاتلوا وتَفُوا بما التزمتم من القتال معه؟ ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ أي: وقد أُخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَـالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليمٌ بهم، أهـ [1].

فهنا أيضًا تترا [2] المواقف المُخزية، وينفضح أمر هؤلاء القوم، الذين كفروا بما أنزل الله، و لم يتبعوا سبيله.

وتقاعسوا عن الجهاد وقد طلبوه بألسنتهم.

قبل أن نرى ما فعلت يهود مع نبيهم، فلننظر إلى مقالة الإمام وهب بن منّبه، حيث قال: ثم أحدثوا الأحداث.

وهذا معناه: أنهم أدخلوا في دين الله ما لم يأذن به، وكذلك جعْلّهم ما حرّفوه نهجٍ واجب اقتفاءه، وشرعوا ما لم يُؤمروا به.

وقوله: وعبدٌ بعضهم الأصنام.

أي أن: بعض اليهود إن لم يكن أكثرهم، قد أحدثوا فى اليهودية عبادة الأصنام، وهي بلا ريب بابًا من أبواب الشرك عظيم؛ فبذلك منهم المشركون بالله.

وقوله: فدعا بني إسرائيل؛ أي: بعدما بعثه الله تعالى إليهم.

وقوله: فطلبوا منه أن يُقيم [3] لهم مَلِكًا يُقاتلون معه أعدائهم.

وهذا يدُلُّ على أنهم هُم الذين طلبوا هذا بمحض إرادهم، إذًا فهم يعلمون ما

---

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٣٤٣].

(٢) قوله: تترا: أي تتتابع.

(٣) قوله: يُقيم: وهو من فعل قيم، وقيِّمُ القوم: الذي يقوم بشأنهم، ويَسُوس أمرهم، المُعجم الوسيط [ج٢/ص ٧٩٨ - مادة : قام].

يُريدون، وكان طلبهم من نبيهم أن يكون عليهم مَلِكًا قوامًا على أمورهم من الحرب وما شابه مما يحتاجون إليه، وبذا يكون عونًا لنبيهم على طاعة الله عزّ وجلّ.

وهذا ما عُنِيَ من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإذا ما كان الجهاد في سبيل الله، إذًا لزِمَ الاستعداد والتأهب، والطاعة، ولزوم الجماعة، وعدم النكُول والتقاعس، حتى التخاذل غير مطلوب، وكذا التثبيط، وخمود عزيمة الآخرين.

ولأن جميع أنبياء بني إسرائيل قد جرّبوا ذلك الشعب العاصي، الخاذل، والذي يُخشى من أجله عقاب الله تعالى.

فكان جواب نبيهم: فهل عسيتم إن أقام الله لكم مَلِكًا ألاّ تُقاتلوا وتَفوا بما التزمتم به من القتال معه؟

هذا استفهام تقريري، ومفاده إلزامهم الحُجة على أنفسهم، من أنهم هُم الذين طلبوا الجهاد، والعلة استرداد مُلكهم، واستعادة هيبتهم، وكذا ضم سباياهم إلى أكنافهم؛ وهو المُراد من قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾، فقالوا جوابًا وردًا عليه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: ولما لا نُقاتل ونحن الراغبين في الجهاد وقد عينوه لفظًا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وذلك بما أخرجنا من ديارنا قهرًا، وسُبيت أولادنا ونسائنا.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ يقول الإمام القُرطبي:

أخبر تعالى أنّهُ لما فُرض عليهمُ القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مُباشرة الحرب وأن نفوسهم ربما قد تذهب ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أي: اضطربت نياتُهم

وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأُمم المُتنعْمة المائلة إلى الدِّعة، تتمنى الحرب أوقات الأَنَفَة [1]، فإذا حضرت الحرب كعَّت [2] وإنقادت لطبعها، أهـ [3].

هذه عادهم، وهذه سُنتهم فى الأرض، وليس بمستغرب ولا بجديد أن يكون هذا ردّ فعلهم، فمن صفتهم الجُبن والخِسة والنذالة، وكذلك الخُذلان والنكول والنقوص على الأعقاب.

وقوله: ﴿تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فهذا استثناء، أي أن الذين نقضوا ما وعدوا به تولوا، وتقاعصوا عن القتال ومجاهة الجبابرة، إلّا قليلاً منهم؛ ولقد سمى الله تعالى من خذلَّ منهم بالظالمين، وأنّهُ بِهم عليم.

مما قد سبق نجد أن خُلاصة الشعب اليهودي هُم الذين أطاعوا رهم، وكانوا مع نبيهم على أمرٍ جامعٍ، على أن يُقاتلوا مع من أقامهُ عليهم مَلِكًا، وهُم الذين قد عبروا معه نهر الأُردُن.

يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾

[البقرة: ٢٤٧]

---

(١) قوله: الأَنَفَة: العزّة والحَمية، المعجم الوسيط [ج١/ ص ٣١ - مادة: أنفت].

(٢) قوله: كعَّت: أي تقهقرت وتراجعت.

(٣) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ١١٥٦].



طالوت الملك:

وهو: طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أُنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن [1] إبراهيم الخليل (على أنبياء الله الصلاة والسلام) قاله الإمام ابن كثير حكاية عن الثعلبي، أهـ [2].

وقال الثعلبي:

طالوت واسمه بالسُريانية سادل، وبالعبرانية شاول. بن قيش بن أقيل بن صار بن تحورت بن أفيح بن أُنيس بن بينامين بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام، أهـ [3].

والمُلاحظ أن هُناك اختلافًا يسيرًا في بعض ألفاظ الأسماء، ولعّلها متفقة، غير أنها حُرِّفت من النُساخ، وأمثال ما فيه اختلاف ما جاء في لفظ ابن كثير قوله: (أفيل) هكذا بالفاء، وفي رواية الثعلبي (أقيل) بالقاف؛ قول ابن كثير في لفظ (صارو) بزيادة واو بعد الراء، وما جاء عن الثعلبي قوله: (صار) هكذا بدون إضافة الواو، والله تعالى أعلم، أهـ.

وقال فيه الثعلبي: وكان رجُلاً دبّاغًا [4] يعمل الأدم، ثم قال: وقال وهب بن منبّه: كان يدبغ الجلود؛ وعن عكرمة والسُدّي يقولان: كان سقّاء، يسقي على حِمارٍ لهُ من النيل. [5]

(١) قوله: بن إبراهيم: هذا هو الصحيح: وما جاء في المطبوع: قوله: ابن إبراهيم، وهو خطأ، وقد سبق بيانُ ذلك.

(٢) البداية والنهاية [ج٢/ ص ٦].

(٣) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ١٤٨].

(٤) ما جاء في المطبوع قوله: دباعًا: هكذا بالعين والصحيح دباغًا، وهو ما ذكرناه.

(٥) المصدر السابق.

وقد تَبِعهُ ابن كثير فى البداية والنهاية.

أمّا خُلاصة الشعب اليهودي، والذين حثّوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، فى اتباع نبيهم، والانقياد لأوامر المَلِك الذي وكّلهُ بهم، وأمْرّهُ عليهم، لُمحاربة الجبابرة والذين قد سلبوهم مُلكهم، وسبوا أولادهم، وأضاعوا كرامتهم، وقلّلوا من هيبتهم في نفوس الآخرين.

انظر إلى مُفاجئة قولهم لنبيهم:

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ يا سُبحان الله. ألم تطلبوا ذلك بأنفسكم، وما ذاك إلّا لعجزكم عن الانتصار لأنفسكم، وقلة حِيلكُم، وأردتُم بذلك مَلِكًا يقودكم إلى الظفر بعدوكم؛ وما أن استجاب لكم نبيكم تذمرتم، وأعلنتم العصيان، والتساؤلات التي لا تنفع بل تَضُر.

ثُمّ أنكم معشر يهود قد قِستم الأمور على غير قياسها.

فلو كان فيكم خيرًا، أو من هو قد يصلُح لأن يقودكم، ويعبُر بكم جسر المهانة والخزي والقهر، لرشحتموه لنبيكم، إلّا أنكم طلبتم منه أن يجعلْ لكم مَلِكًا، ثم ما لبثتم بعد أن أقامه علكيم اعترضتم.

وكان عِلّة حجتهم الواهية، والتي تنتمي إلى مادتهم، وحبهم إلى الخلود للحياة الدُنيا، قولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

هذه صفتهم حُبُ المال، والذي هو عصب حياتهم، وعِماد أعمارهم، إلّا أنّهُ زائل، ولم يبق لهم إلّا ما قدمت أيديهم، وهذه النتيجة، والتي قد خرجوا بها لاعتراضهم على مَلِكهُم، وهي أنّهُ لم يُبسط له الرزق الوافر، ولم يكن لديه المالُ الكثير، ظنًا منهم أن بالمال يكون السُلطان والحُكم، وإن كان لا يُمنع من ذلك،

إلّا أن السيادة والريادة وغيرهما، ومن قبل ذلك كُله سُلطان العلم، فهو الذي يأتي بالمال، وليس بالعكس.

فكان الردّ الحق، من الله تعالى، حيثُ قال على لسان نبيه، وهو ما حكته الآية جاء قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، ففي هذه الآية ثلاث صفات قد حَباهُ الله بها، وخصه بها.

الأوّلى: الاصطفاء.

لقد أتى الله تعالى بطالوت ليكون عليكم مَلكًا، وفي هذا بيان أنّهُ ليس فيكم من يستحق ذلك الشرف، لأن وجهائكم، وأغنياءَكم لم يكن فيهم من هو مؤهل لمثل هذه المكانة، فلذلك اصطفاه الله تعالى واختاره.

الثانية: إيتاءهُ العلم.

فهذه مَزية القيادة الناجحة، وأن بالعلم تُبنى الأُمم، وبالعلم تُزلّل كل الصِعاب، وبالعلم تُبنى القوة التي تحمى بِنية التعمير، وبالعلم تُنشْأ الأفراد أصحاء غير معلّولين، وبالعلم تعلمُ مَالك وما عليك تجاه خالِقُك، فتترسخ عقيدة الإيمان، والتي بها تكتملُ شخصية المرء، أهـ.

ولذلك تجد الدولة الأمريكية، قد استقطبت عُلماء الأرض، واستحوذت عليهم، فأمريكا لم تبن نفسها بيَدِها. بل بِفضل عُلماء الإسلام، وما خلّفوه من علوم، حوّلوها إلى لغات محلية، وغيروا معالمها، ونسبوها إلى أنفسهم، وبها علا شأنهم، ولا غرابة في ذلك، فهذا ليس بجديد.

الثالثة: بسطة الجسم.

قيل في ذلك: أن الله تعالى أتاه قوةً فى الجسم؛ وقيل: أتاه الله جمال الجسم، وغير ذلك.

والحق. أن المُراد من ذلك أن العلم لابُدّ لهُ من قوةٍ تحميه، ومن قوةٍ تُنميه، ومن قوة تُنفذُ أمره، فكنى عنها المولى عزّ وجلّ بالجسم؛ وأيضًا أن العلم في ذاته قوة، وإن كان مُؤتيه ضعيف البُنيان، أهـ.

فهذا فضلُ الله يؤتيه من يشاء، إذ المُلْك مُلكه، والأمر منه وإليه، وهو وحدُه المتصرِفُ فيه، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي أنّهُ هو الذي يعلمُ أين يكون مُلكه، وفيمن تكون النعمة، ومن يصطفى من عباده، وأنهى الله تعالى الآية بفضله وجزيل عطاءه، حيثُ قال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واسع المُلك والعطاء، عليمٌ بمن يؤتيه، عليمٌ بأحوال عياله جميعًا، فالخَلْقُ عيالُ الله تعالى، وهم فقراءٌ إليه، ومحتاجون لفضله ومنّه ولا غنى لأحد عن فضله، وإن أُتي مِلىءُ الأرض ذهبًا، أهـ.

وعلى ما يبدو أن بني إسرائيل لم ينجع معهم كُل هذا، ولم يُرغِمُوا أنفُسَهُم على الطاعة، والانقياد لأوامر الله تعالى، وذلك لابتغاء مرضاته، وطلب الهُدى.

ومن الواضِح أيضًا، أنهم شكوا في صدق مقال نبيهم، فطلبوا منه أن يُعاين لهم هذا المَلِك، حتى يعلموا صِدق حديثه.

يقول الله عزّ وجلّ في ذلك:

وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

[البقرة: ٢٤٨]

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ هو شمويل عليه السلام؛ لما طلبوا منه آيةً على مُلكه ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصُندوق. كان فيه صور الأنبياء، أنزلَه على آدم واستمر إليهم، فغلّبهُم العمالقة عليه وأخذوه، وكانوا يستفتحون به على عدّوهم، ويُقدمونه فى القتال، ويسكُنون كما قال تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طُمأنينة لقلوبكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهي نعلا موسى وعصاه وعمامة هارون، وقفيز من المنّ الذي كان ينـزِلُ عليهم، ورضاض من الألواح ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، حال من فاعل يأتيكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ على مُلكِه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فحملته الملائكة بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فأقروا بُملكه، وتسارعوا إلى الجهاد، فاختار من شبابهم سبعين ألفًا. (1)

بذلك نعلم أنّ بني إسرائيل، والذين لم ينصاعوا لأمر نبيهم مرةً واحدة، بل طلبوا الآيات والبراهين على صدق كلامه، فرحمهم ربهم، وأتى بالآيات السالفة حتى يعلموا صدق مقاله، ويهبوا للجهاد، فلما عَلِمُوا ذلك تسارعوا كما علمنا.

إلّا أن الله تعالى بعلمه تذبذب الإيمان بداخلهم إن لم يكونوا قد عَدِموه، فقد ابتلاهم، وامتحنهم، وهو ما نطقت به الآيةُ التالية.

فقال تعالى:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ

---

(1) تفسير الجلالين [ص ٥٤].

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

[البقرة: ٢٤٩]

يقول الإمام الثعلبي في قصصُ الأنبياء:

فلما أوحى الله إلى شمويل الطّيلا، أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود، لم يتخلّف عنه إلاّ كبير لهرمه، أو مريض لمرضه، أو ضرير لضُره، أو معذُور لعُذره، وذلك إنهم لما رأوا التابوت قالوا:

قد أتانا التابوت وهو النصر لا شك فيه، فسارعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي فيما أرى؛ لا يخرُج معيَّ رجُل. مَن بنى بِناءً لم يَفرُغ منه، ولا صاحب تِجارة مُشتَغل بها، ولا رجُل عليه دَين، ولا رجُل تزوج بامرأةً و لم يَدخُل بها، ولا يتبْعُني إلاّ الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع ثمانون ألفًا على شرطه، فخرج بهم، وكان في حرّ شديد، فشكوا قِلة الماء بينهم وبين عدوهم، وقالوا:

إن المياه لا تحمِلنا، فادعو الله تعالى أن يُجرى لنا نهرًا، فقال لهم طالوت بأمر شمويل الطّيلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ مختبركم، ليرى طاعتكُم، وهو أعلمُ بكم، وهو نهر بين الأُردن وبين فلسطين عذب. يُقال له: أدمى. ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني وطاعتي، ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ ولم يشرب منه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ وهو مِلء الكف، ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة، ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قال: قال السُدّي:

كانوا أربعة آلاف، وقال غيرُه: كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رَجُلاً، وهو الصحيح. فدلّ عليه حديث البراء بن عازب ﷺ قال:

كنا نتحدثُ أنّ أصحاب بدر ثلثُمائة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معهُ إلاّ مؤمن. (١)

ثم قال الإمام الثعلبي:

فمن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قَويَّ قلبه، وصحّ ورجع إيمانُه، وعبرّ النهر سالمًا، وكَفَتْه تلك الغُرفة الواحدة لِشُربه وحمله ودوّابه، والذين شَرِبُوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاهُهُم، فلما جاوز النهر مع طالوت القليل، الذين ثبتوا معه، وقال الذين شَرِبُوا وخالفوا أمر الله تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وانصرفوا عن طالوت، ولم يشهدوا قتال جالوت، و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي: يعلمون ويُوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ وهُم القليل الذين ثبتوا مع طالوت ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ومروا قاصدين الجهاد. (٢)

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي: إن الله قد ابتلاكم بتلك المحنة، ولسوف يختبركم ويمتحنكم بهذا، ودائمًا وأبدًا يجئُ الاختبار من الله تعالى بما يوافق النفس والهوى، ويُخالف طاعة الله تعالى وأوامره، وهؤلاء قد ابتلاهم الله تعالى بعطش شديد، وقلةً في الماء، فابتلاهم الله بذلك النهر، وقال لهم فيه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ هذا شرطٌ شرطهُ نبيُ الله

(١) لفظ الحديث مما جاء في الصحيح، وليس مما أورده المُؤلف، ولقد رواه البخاري في صحيحه [ج٣/ ص ٥]، والترمذي [ج٣/ ص ٥٥٤]، وابن ماجة [ج٢/ ص ٥٢١، ٥٢٢]، وقد رواه ابن جرير الطبري في تفسيره [ج٢/ ص ٨٣٩، ٨٤٠].

(٢) قالهُ الثعلبي في قصصُ الأنبياء [ص ١٥٠، ١٥١].

على لسان طالوت، وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي: بعصيانه أمر نبي الله والذي قد بلغتكم به، فليس هو مني بمنـــزلة أهل الطاعة والإيمان ممن يصحُبني، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ أي: ممن اتصف بالإيمان، وصار من أهل الطاعة لله والذي أنا منهم على سجيتهُم.

إلّا أن الله تعالى كان رحيمًا بهم مع ذلك، ولطيف بهم في حُكمه، فاستثنى في ذلك ما كان بين المُطيع والعاصي، وهو ما جاء تعريفه في الآية بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ هذا استثناء من الله تعالى رحمة بمن أراد الطاعة ابتغاء الهُدى، وقد جعْل في هذه الغرفة رَويًا لمن كان قد أهلكهُ العطش، واُحتيج إلى الماء زادًا له.

ورغم كل التحذيرات، وتخويفهم بالله عزّ وجلّ، مِن ألا يُخالفوا أمر الله تعالى ويشربُوا من ذلك النهر، فلقد مَارس قوم بني إسرائيل هوايتهم ودأبهم في عصيان أوامر الله تعالى ورُسُلِه، فَشَرِبَ الكثير من هذا النهر مخافة أن يموتوا عطشًا، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدُلُّ على عدم وثُوقِهم في أمر الله، وما يَتبعهُ من رضا نظير الطاعة، وبهذا يكون الإنعام ومزيدًا من المِنّة والفضل.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والقليلُ هذا. هُم الذين أطاعوا الله تعالى في ألا يشربوا.

ومن هذا نجد أنّ مَن خرج من بني إسرائيل لُمحاربة جالوت وجنوده، قد صُنفُوا إلى ثلاثة:

١- قومٌ أطاعوا الله في ألا يشربوا من النهر.

٢- قومٌ خافوا على حياهم، فعصوا أوامر الله تعالى وشَرِبوا.

٣- قومٍ بين هؤلاء وهؤلاء، وهُم الذين استثنى الله تعالى، أن يشربوا بغُرفة واحدة، فقبِلوا رخصة الله تعالى وعفوه.

وهؤلاء جميعًا جاوزوا البحر مع جالوت، ولكن مع هذا الابتلاء والاختبار كان لابُدّ أن يُمحص الله قلوبهم، ويميز الخبيث من الطيب من بني إسرائيل، فكُلٌّ نطق بما يجُول في خاطره، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكذلك من عصى الله بشُربه من النهر، وهُم الذين استحبوا الحياة الدُنيا، و﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ وهؤلاء أكثر الذين جاوزوا البحر مع طالوت، وأمّا الذين ثبتوا على الإيمان، وهم الفئة القليلة، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾] وهذا حق، لأن الله ناصر رُسله، ولأن الله تعالى ناجز وعده، ولأن يدُ الله مع الجماعة، وأن الله مُوهِنُ كيد الكافرين، ومُقذف في قلوبهم الرُعب، ولأنهم عَلِمُوا ذلك فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ولأن الفئة القليلة هُم المُؤمنون بالله تعالى، ويعلمون أنّ النصر من عنده، وأنّ التثبيت كذلك من عنده، استعانوا به على عدوّهم، وابتهلوا إليه أن يُظهرهم على عدوهم، والذين كفروا بالله، فتضرعوا إليه قائلين، وهو ما حكاه القُرآن الكريم، فجاء قولُ الحق عزّ وعلا:

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا
وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

[البقرة: ٢٥٠]

يقول الإمام ابن كثير:

أي لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت وهم عددٌ كثير ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء: وجنبنا الفِرار والعجز

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[1]

وبهذا تمّ الظفر على العدو، وكسروهم وهزموهم شر هزيمة، وتمّ النصر لحزب الله، ألا إن حزب الله هُم الغالبون؟

فقال تعالى وتقدّس:

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

[البقرة: ٢٥١]

كُل كلامنا في هذا الموضوع يُدورُ حول شخصية نبي الله تعالى شمويل ﷺ، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وطاولت هذا هو الملك الذي توجه مع شعب بني إسرائيل حتى يهزموا أعداء الله.

إلّا أنّ مع سياق الآيات جاء ذِكر نبيًا آخر من أنبياء بني إسرائيل وهو داوُد ﷺ.

فما هي علاقة ورود ذِكر اسْمُه مع قصة شمويل ﷺ، ومع طالوت الملك، وجالوت رأس الكُفر والطُغيان والجُور؟

وقبل أن نعلم الجواب، يجب أن نعلم أيضًا أن ما جاء بهذا الشأن، وذكرهُ بعض أئمة التفسير أمثال ابن جرير الطبري، والقُرطبي، ما هي إلّا نقلاً عن الإسرائيليات، لأن سياق الكلام وما يحمله من معاني لا تجب في حق أنبياء الله تعالى، ولا يخفى مِثلُه على كل مُسلم فطِن، ناهيك عن إمامًا مثل الإمام ابن كثير والذي قال في تفسيره:

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٣٤٥].

ذكروا في الإسرائيليات: أنَّهُ قتله – أي: داوُد قتل جالوت – بمقلاعٍ كان في يده رماه به، فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعدَه إن قتل جالوت أن يُزوجه ابنته ويشاطره [1] نعمته، ويُشرِكَهُ في أمره، فوفى له.

ثم آلَ المُلك إلى داوُد عليه السلام، مع ما منحه الله به من النبّوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصهُ به ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لولا الله يدفع عن قومٍ بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمُقاتلة طالوت، وشجعه داوُد لهلكوا.

ثم قال الإمام:

وقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: ذو منٍّ عليهم ورحمةً بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، ولهُ الحُكم والحِكمة والحُجة على خلْقِه في جميع أفعاله وأقواله. [2]

إلى هُنا تنتهي حِقبةً أو فترةً من الزمان، في عهد نبي الله تعالى شمويل عليه السلام، وليست هذه كل مواقف حياته عليه السلام تفصيلاً؛ بل أتينا بمواقف الخُذلان من بني إسرائيل، والتي أصبحت صفةً لهم، ولاصقةً بهم غير مُنفكةً عنهم.

ألا لعنة الله على الكافرين.

---

(١) قوله: يشاطره: أي يُناصِفَهُ فيما بين يديه من أموالٍ ونِعم.

(٢) قاله الإمام ابن كثير في تفسيره [ج١/ ص ٣٤٦] مع بعض التصرف.

حال اليهود مع نبي اللّه تعالى داوُد عليه السلام



يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

[صٓ: ١٧]

ويقول تعالى:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

[صٓ: ٢٦]

نبي الله داوُد عليه السلام.

وهو:

داوُد بن إيشان بن عويد بن عابر بن سلّمون بن عويناذب بن ارم بن حصرون بن فارص بن [1] يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في بيت أرض المقدس. [2]

وقيل هو:

داوُد بن إياشا بن عوقيد بن يوعز بن سلّمون بن يغشون بن غمينوذب بن

(١) قوله: بن: هذا هو الصحيح، وما جاء في المطبوع قوله: ابن: هكذا بالألف وهو خطأ، وقد سبق بيانه.
(٢) البداية والنهاية [ج٢/ ص ٩].

أرم بن حضرون بن [1] باص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليلُ الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين. [2]

وقيل:

داوُد بن إشي بن عويز بن سلّمون بن باعز بن نحشون بن عمى ناذب بن ناب بن حضرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[3] - عليه السلام

ومن الواضح والذي لا خفاء فيه، أن في هذه الرواية قد سقط اسم نسب متصل ما بين (عويد، أو عوقيد، أو عويذ؛ وما بين سلّمون)، وأمّا ما قد يبدو من اختلاف الحرف في تعيين الألفاظ، فمن الوارد أن يكونُ قد حُرِّفَ بسبب تعاقُب الأزمان، وقد جاء في قصصُ الأنبياء للإمام عبد الوهاب النجار؛ نقلاً عن النص الإنجيلي نسبُه، فجاء قوله: هو كما جاء في إنجيل متّى:

داوُد بن يس. بن عويد. بن بوعز. بن سلّمون. بن نحشون. بن عمينا داب. بن أرم. بن حصرون. بن فارص. بن يهوذا. بن إسحاق. بن إبراهيم عليه السلام[4] أهـ.

وفيه يقول الإمام ابن كثير:

قال مُحمد بن إسحق عن بعض أهل العلم، وعن وهب بن منبّه:

كان داوُد عليه السلام قصيرًا، أزرق العينين، قليل الشعر، طاهر القلب ونقيه.

وتقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتلُهُ له فيما ذكر ابن عساكر عن قصر أُم حكيم، بقرب مرج الصفر، فأحبته بنوا إسرائيل ومالوا إليه وإلى مَلكِه عليهم،

---

(١) قوله: بن: هو الصحيح، وما جاء في المطبوع بإثبات الألف في (ابن) وهو خطأ، وقد سبق بيانه.
(٢) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ١٥٤].
(٣) المُحبَّر [ص ٣١].
(٤) قصصُ الأنبياء للدكتور: عبد الوهاب النجار [ص ٣٦١].

فكان من أمر طالوت ما كان، وصار المُلك إلى داوُد الطّيّلا، وجمع الله له بين المُلك والنبوة بين خير الدُّنيا والآخرة.

وكان المُلك يكون في سبط، والنبوة في آخر، فاجتمع في داوُد هذا وهذا كما قال تعالى:

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

[البقرة: ٢٥١]

أي: لولا إقامة المُلوك حُكامًا على الناس، لأكل قوي الناس ضعيفَهم. (١)

وأمّا ما حدث منهم في زمن نبيهم داوُد عليه الصلاة والسلام، كانوا قد أجمعوا فيما بينهم، وكان بأمرٍ من أحبارهم لكيلا ينفضحوا من سوء أفعالهم، وأليم عقابهم، بل شر عِقابهم وأيضًا غايةً في المهانة، ولكن هيهات أن تتعظ يهود.

يقول الله تعالى:

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

[الأعراف: ١٦٣]

لا تجِدُ قومًا غايةً في المكر السيئ، ولا في الدهاء الأسود، ولا في النفوس المريضة، والأرواح الشريرة غير يهودا؟!

---

(١) البداية والنهاية [ج٢/ ص ٩، ١٠].

دائمًا وأبدًا يحتالون على أوامر الله تعالى وتعاليمه، دائمًا وأبدًا مصدر شديد الآلام لأنبياءه، دائمًا وأبدًا يخدعون الناس طالما هُناك مصالح يرجون منها.

هؤلاء هُم اليهود!

هُنا أيضًا بداية موقفٍ آخر مع نبي من أنبياءه، ألا وهو سيدنا داوُد الطَّيِّلاً، فهذه الواقعة كانت في زمنه حسب ما قررهُ عُلماء المسلمين من المُفسرين.

يقول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، وهنا الخطاب موجه لنبينا سيدنا مُحمد ﷺ، والحدث قد انقضى أمره، إلاّ أن فيه العِظة والعِبرة، وكذلك فضح أمرهم دومًا نتيجة ما يصدُّر منهم دائمًا.

يقول الإمام ابن كثير:

أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأهم نِقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المُخالفة، وحذّر هؤلاء من كتمان صِفتك التي يجدونها في كُتبهم، لئلا يحلّ بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم.

وهذه القرية هي أيلة، وهي على شاطئ بحر القلزم. (١)

وعن ابن زيد قال: هي قرية يُقال لها: مقانا بين مدين وعينونى.

وعن ابن عباسٍ قال: هي قرية بين أيلة والطور ويُقالُ لها: مدين. (٢)

وعن الزُهري: طبرية.

وعن قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحل من سواحل الشام، بين مدين وعينون، ويُقالُ لها مقناة. (٣)

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٢٩٠].

(٢) تفسير الطبري [ج٦/ ص ١٢٣].

(٣) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٨٢٠].

والجمهور: أن القرية المذكورة أيلة، وهي التي على طريق الحاج الذاهب إلى مكة من مصر؛ قاله ابن حجر. (1)

وسواء كانت القرية بطبرية، أو بأيلة، أو بمدين، أو في أي مكانٍ آخر فلا فائدة من تعيينها، ولا مضرة في جهلها، والذي يعنينا أن الحدث قد وقع في بني إسرائيل، ولنا فيهم العظة والعبرة، وقد كان اليهود يكتمون هذه القصة لِما فيها من السُّبّة عليهم. (2)

حقًا. إن اليهود تاريخهم مليء بالأحداث المُخزية، والتي قد سوّدت صفحات الزمان، وتبين أيضًا مدى نفوسهم الشريرة الشيطانية، بل هي أشدّ من الشيطان لأنهم في إهاب الخِلقة البشرية.

فكونهم بشر في إهاب شيطان، فتجد دائمًا البشرية في عذاب من جرّاء أفعالهم القذرة الوقحة.

أمّا قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: إذ يعتدون في يوم السبت وهو يوم عيدهم، أو عبادتهم، ومن المفترض ألّا يرتكبوا فيه الخطيئة.

إلّا أنهم لم يُراعوا لله حُرمة، ولم يجتنبوا المعاصي.

ويوم السبت هذا؛ قد هداهُم الله تعالى له بعد أن أضلّهم عن يوم الجُمعة، وكذا أضلّ عنه النصارى، وهداهم إلى يوم الأحد، وهذا ما نطق به الحديث الشريف، غير أن هذا ليس موضع بيانه.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

(1) قاله الإمام ابن حجر في فتح الباري [ج6/ ص 522].
(2) تفسير القُرطبي [ج3/ ص 2820].

فهذا واللهِ بلاءً وابتلاءً من الله تعالى قد أصاب به بنو إسرائيل، وقد حق عليهم ذلك، لسليقتهم القذرة الخبيثة لعَلّهم يَنيبوا إلى بارئهم، ولعَلّهم يتوبوا له، ولعَلّهم يفيقوا من سُباتهم السرمدي.

وقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ وهذا البلاء كما قُلنا من الله تعالى قد أصاب بنو إسرائيل، وذلك أن الله تعالى قد حرّم عليهم صيد الحيتان يوم السبت، وأحلّ لهم فيما دون ذلك من الأيام.

ولشدة وطئة البلاء عليهم لخُبث نفوسهم، كانت الحيتان تأتيهم شرعًا في البحر، ظاهرة على الماء، ابتلاءً من الله وبوحيٍ منه.

وكانت الحيتان لا تأتي في الأيام التي قد أباح الله تعالى لهم فيها الصيد، فكان يَشُق ذلك على بني إسرائيل، ولذلك قال عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لاحظ أخا الإسلام عَصِمنا الله وإياك من الذلل والمِحن، أن الله تعالى يصِفُ دائمًا هذا الشعب الخبيث بالفسق، ولِما لا وهو أعلمُ بهم!؟

ولِما لا وهو الذي خلقهم، وهداهم فاستحبوا العمى على الهُدى!؟

فمع ذلك البلاء، وبتلك المِحن، صبرت بنو إسرائيل، إلاّ أنّ صبرهم لم يدُم طويلاً.

احتالوا كعادتهم حتى يصطادوا هذه الحيتان، واللهُ أعلمُ بهم.

ويقول الإمام ابن كثير:

يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاءِ قومٌ احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

ثم ساق الإمام حديثًا، وعزاه للإمام الفقيه أبو عبد الله بن بطة، فيه التحذير من فَعلَ مِثل فِعلِ هؤلاء اليهود، فقال:

عن أبي هُريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال:

[لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل] (١).

فاعلم أيها المسْلم الكريم على الله أنّ الله تعالى دائمًا ما يدعو إلى مخالفة أفعال اليهود، وكذلك نبيه ﷺ، إلاّ أنا خالفنا، وكنا كما أخبرنا ﷺ حذو القدم بالقدم، ونقلدهم تقليدًا أعمى، وننساق ورائهم سوق العبد الأسيز المُلازم لسيده، نسألُ الله العفو والعافية، أهـ.

ثم يقول تعالى:

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

[الأعراف: ١٦٤]

وهنا افترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق:

الأوّلى:

فرقة احتالت على أوامر الله تعالى، وعصوا أوامره، واصطادوا على غير أمر الله.

الثانية:

فرقة سكتت على فِعل العاصين المُخالفين لأمر الله، لعلمهم أن العقاب نازل بهم لا محالة، وأن العقاب واجبٌ عليهم.

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٢٩٠].

الثالثة:

فرقة وعظت من عصا من الفرقة الأولى، ونهتهم، وذكّرتهم قُدرة الله على ردعهم وقصمهم من جرّاء ما ارتكبوا من مُخالفة أوامر الله.

وهذه الفرقة هي التي نهتها الفئة الذين سكتوا واعتزلوا، وهم المعنيون فى الآية بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلّا أن الفئة الثالثة عَملت بأمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهي التي عُنيت من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعّلّ الفئة العاصية ترتدع بوعظنا، وتتقى عذاب الله وهلاكه النازل بهم نظير عصيانهم لأوامره، واحتيالهم في ذلك. وفي هذا يقول سُبحانه:

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

[الأعراف: ١٦٥]

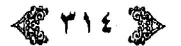
تكرارًا ومرارًا يصف ربّ العزة سبحانه وتعالى هؤلاء القوم بالفسق، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يَدُلُّ على أنهم أتوا بكل نقيصة في مُخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه، الأمر الذي استحقوا به هذه الصفة، فكانت مُلازمة لهم.

يقول القُرطبي:

والنسيان، يُطلق على الساهي، والعامد التارك، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي تركوه عن قصد. (١)

---

(١) تفسير القُرطبي [ج٣/ ص ٢٨٢٣].



وقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، يقول الإمام ابن كثير:

فنص على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيُمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيُذموا.(١)

فكان حُكم الله تعالى فيهم شديدًا، حتى يكونوا عِبرةً وعِظةً لمن خلفهم، وحتى يتعظ من بعدهم قبحهم الله. فقال تعالى:

فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

[الأعراف: ١٦٦]

فعن عكرمة قال: جئتُ ابن عباسٍ يومًا وهو يبكي، وإذا المُصحف في حِجره، فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يُبكيك يا ابن عباسٍ جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تَعرِف أيلة؟ قُلت: نعم، قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كدّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شُرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، فكانوا كذلك بُرهةً مِن الدهر.

ثم إنّ الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه، وكُلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم.

وقالت طائفة: بل نُهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك حتى جاءت الجُمُعة المُقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها،

---

(١) تفسير ابن كثير: [ج٢/ ص ٢٩٠].

واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون، ويلكم. الله، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأيمنون ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ينتهون، إن ينتهوا فهو أحبُّ إلينا أن لا يُصابوا ولا يُهلكوا، وإن لم يَنتهوا فمعذرة إلى ربكم، فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله. والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم حتى يُصبحُكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عِندهُ مِن العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهِمُ الباب ونادوا فلم يُجابوا، فوضعوا سُلمًا وأعلوا سور المدينة رَجُلاً، فالتفت إليهم فقال: أيّ عباد الله قِردة واللهِ، تُعادي وتُعاوي لها أذناب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القُرود أنسابَها من القِردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فَتَشُمْ ثيابه وتبكي، فيقول:

ألم ننهكم عن كذا، فتجيب برأسها: أي نعم.

ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ قال: فأرى الذين نَهوا قد نَجوا، ولأرى آخرين ذُكِروا، ونحن نرى أشياء نُنكرُها ولا نقول فيها، قال: قُلت: جعلني الله فداك. ألا ترى أنهم قد كَرِهُوا ما هُم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

قال: فأمر لي فَكُسِيت ثوبين غليظين. (1)

(1) ذكره ابن كثير في تفسير [ج٢/ ص ٢٩١] وعزاه لعبد الرزاق وبسنده، وذكَره الطبري في تفسيره [ج٦/ ص١٢٧، ١٢٨] وبسنده إلى عبد الرزاق إلى عكرمة عن ابن عباسٍ، وعند الطبري عن ابن زيد، وابن رومان، وأبي صالح بمعناه.

هؤلاء هُم اليهود!؟

مسخ القردة والخنازير.

هكذا كان حُكم الله فيهم، ولقد عاقبهم بذلك لأن جَرمهم كان قد أوصلهم إلى هذه الحالة.

فصارت هذه العقوبة وصمة عار وخِزي في الأُمة اليهودية، ويحاولون نسيانها ويحاولون أن يتناسوا هذا، إلّا أنّ تاريخهم يفضحهم، وهو لاحقٌ بهم، لا ينفك عنهم.

ولذا ذكْرَّ ربُّ العزّة أمة يهود، والذين عاصروا النبي ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية، بأنهم مَثلُهم مِثل أوائلهم، فأوائلهم رفضوا قبول الحق ونبذوه وراء ظهورهم، فكانت النوازل محيطة بهم. وأحفادهم بدّلوا صفة النبي ﷺ، ولم يُذعنوا للحق وحاربوه، فلذا ذكْرّهم ربُّنا سُبحانه بما فعل بأسلافهم، قبح الله الأولين منهم والآخرين إلى يوم الدين آمين.

وفي هذا يقولُ ربُّ العزّة:

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

[البقرة: ٦٥، ٦٦]

يقول الإمام ابن كثير:

مسخهم الله إلى صورة القِردة، وهي أشبه شيء بالأناسي فى الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقةً، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مُشابهة للحق فى الظاهر، ومخالفةً له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.(١)

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٨].

وعن ابن عباسٍ قال:

فجعل الله منهم القِردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قِردة، وأن المشيخة – وهي لفظ له ساقه ابن كثير، وأن الشِيخة، وفي آخر شيوخهم – صاروا خنازير. (١)

واختلف أولو ا العلم في أمر هؤلاء المسخ، هل صار منهم نسل؟ أم هل تناكحوا؟

هل أكلُوا أو شَرِبُوا؟

أو أن فصائل القِردة والخنازير الموجودة على ظهر هذه الأرض. هي من نسل هذا المسخ إن لم يكونوا قد خُلِقُوا من قبل!؟

يقول الإمام القُرطبي:

واختلف العُلماء فى الممسوخ. هل يَنسِل على قولين:

قال الزجاج: قال قومٌ: يجوز أن تكون هذه القِردة منهم. واختاره القاضي أبو بكر بن العربي.

قُلت: وهذا مردود، وقد ردّه الإمام مُتَبِعًّا قول الجمهور، ومنه ما ذكره الإمام ابن كثير، عن مُجاهد، عن ابن عباسٍ قال:

إنما كان الذين اعتدوا في السبت فَجُعِلُوا قِردة فواقًا، ثم هُلِكُوا. ما كان للمسخ نسل، أهـ (٢).

---

(١) رواه الطبري في تفسيره وبسنده [ج٦/ ص ١٣٦]، وذكره ابن كثير في تفسيره [ج١/ ص ١٢٨] وعزاه إلى العوفي في تفسيره عن ابن عباس، وقد ذكره ابن حجر في فتح الباري [ج٦؛/ ص ٥٢٢] وقد عزاه لابن جرير من طريق العوفي أيضًا عن ابن عباس، لفظ: شيوخهم – أهـ.

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٩] وقد عزاه لابن أبي حاتم وبسنده إلى ابن عباس.

ويقول الإمام القُرطبي: وقال الجمهور:

المسوخ لا يَنسِل، وإن القِردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا و لم يبق لهم نسل، لأنَّهُ قد أصابهم السُخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام، ثم قال ابن عباس: لم يعش مسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، و لم يأكل و لم يشرب، و لم ينسل.

وقال: قال ابن عطية:

ورُوي عن النبي ﷺ، وثبت أن الممسوخ لا يَنسل ولا يأكُل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

ثم قال الإمام القُرطبي مؤيدًا قول الجمهور: قُلتُ: هذا هو الصحيحُ من القولين. [1]

وقال الضحّاك عن ابن عباسٍ:

فمسخهم الله قردة بمعصيتهم. يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلّا ثلاثة أيام، قال: و لم يعش مسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، و لم يأكل و لم يشرب و لم يَنسِل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعلُ بمن يشاءُ كما يشاء، ويَحوّلُهُ كما يشاء. [2]

وهذه الواقعة وكما قُلنا سلفًا، أن الله تعالى ذكرَّ بها يهود ممن عاصروا النبي ﷺ، وقد كانوا يخفون أمرها لما فيها من السُبَّة لهم، ولما فيها من فضح عقيدتهم الفاسدة. ثم أخبر الله تعالى عن هذه الواقعة، فقال وقولُهُ الحقّ:

(١) تفسير القُرطبي [ج١/ ص ٤٧٧].
(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٢٩].

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: تلك العقوبة ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرةً مانعةً من ارتكاب مثل ما عملوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: للأُمم التي في زمانها وبعدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الله. وخُصوا بالذكر لأنهم المُنتفعون بخلاف غيرهم. (١)

ويقول ابن كثير:

قُلت: المُراد بالموعظة ههنا الزجر، أي: جعلنا ما أحلّلنا بهؤلاء من البأس والنكال، في مُقابلة ما ارتكبوه من محارم الله. وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المُتقون صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم.

ثم ساق حديثًا قد رواه الإمام عبد الله بن بطة، بسنده عن أبي هُريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

[لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهُود، فتستحلُّوا محارم الله بأدنى الحيل]. (٢)

وقد قيل في هذه القصة مجمْلاً، ما تلّفظ به الإمام القُرطبي قوله:

ورُوي في قصصُ هذه الآية – آية الأعراف – أنها كانت في زمن داوُد عليه السلام. (٣)

ننتَقِلُ إلى شيء آخر لهذا الشعب اليهودي، والذي لا ينفض له موقف مُخزي، فأحداثه تترا (٤). ولا تنقطع إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة.

---

(١) تفسير الجلالين [ص ١٤].

(٢) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ١٣١]، وقال في سند الحديث: وهذا إسنادٌ جيد.

(٣) تفسير القُرطبي (ج٣/ ص ٢٨٢٠).

(٤) قوله: تترا: تتتابع وتتوالى.

يقول الله تعالى:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾

[المائدة: ٧٨: ٨٠]

يقول الإمام الطبري:

يقول الله تعالى ذِكرُه لنبيه مُحمد ﷺ: قُل لهؤلاء النصارى الذين وصف تعالى ذِكرُه صفتهم:

لا تغلوا فتقولوا فى المسيح غير الحقّ، ولا تقولوا فيه ما قالت اليهود الذين قد لعنهم الله على لسان أنبيائه ورُسُله. داوُد وعيسى ابنُ مريم، وكان لعن الله إياهم على ألسنتهم.

ثم روى آثارًا بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لُعنُوا بكل لسان، لُعِنُوا على عهد موسى فى التوراة، ولُعِنوا على عهد مُحمد ﷺ فى القُرآن.

وعنه قال: خالطوهم بعد النهي في تجاراتهم، فضَرب الله قلوب بعضهم ببعض، فهُم ملعُونون على لسان داوُد وعيسى ابنُ مريم.

وعن مُجاهد بمثله.

ثم روى الإمام قول ابن جُريج فى الآية: وقال آخرون:

على عهده، فلُعنوا بدعوته. قال: مرَّ داوُد على نفر منهم وهُم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير، قال اللّهُمّ اجعلهم خنازير! فكانوا خنازير، ثم أصابتهم لعنته. ودعا عليهم عيسى فقال: اللّهُمّ العن من افترى عليَّ وعلى أُمي، واجعلهم قِردةً خاسئين! [1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: يتجاوزون الحدّ في العصيان والمُخالفة. وقوله: ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ وذلك أن المرء فيهم كان يرى صاحبه، أو أخيه، أو جاره، أو من هو على مِلّته، يراه على معصيةً لله، فينهاهُ بالنهار إذا رآهُ على معصية، فإذا نهاه ولم ينته أتى المساء عليهما، فيكون أكيلَهُ وشريبه، وينهاه بالليل إذا رآه على معصية، فإذا نهاه ولم ينتهِ، أتى عليه الصباح فَتَجِدُه يأكل معه ويشرب ولا يُبالي بما فعل، ولا يعبء به.

وفي ذلك جاء قوله تعالى والذي ذكرناه: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وفي تفسيرها جاءت السُنة المُطهرة ناطقة بما رواه أبي عُبيد [2]، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: [إن أوّل ما دخل النَّقْص على بني إسرائيل كان الرجُلُ يلقى الرجُل فيقول: يا هذا. اتَّق الله ودعْ ما تصنع، فإنّه لا يحلُّ لك. ثم يلقاه من الغد فلا – أو: ولا – يمنعُه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيدُه فلما فعلوا ذلك ضرب الله قُلُوب بعضهم ببعض، ثم قال:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٤٢٦، ٤٢٧].

(٢) قوله: أبي عُبيد: هو ابن عبد الله بن مسعود، وقيل في التهذيب: أبو عُبيدة.

- إلى قوله فَسِقُونَ﴾، ثم قال: كَلاَّ والله. لتأمرُون بالمعروف ولتنهُون عن المُنكر ولتأخُذُن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرُنَّهُ على الحق قصْرًا].[1]

(١) رواه أبو داوُد واللفظ له [ج١١/ ص ٣٢٧، ٣٢٨]، والترمذي [ج٥/ ص ٩٦، ٩٧]، وابن ماجة [ج٣/ ص ٤٢٠]، والطبري في تفسيره [ج٤/ ص ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩]، وهؤلاء ذكروه مرفوعًا، وموقوفًا على أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود، وقد ذكره النووي في رياض الصالحين [ص ٥٠، ٥١]، والمُنذري فى الترغيب [ج٣/ ص ٢٣٦].

وهذا الحديث قال فيه الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وبعضهم يقول: عن أبي عُبيدة عن النبي ﷺ مُرسل (ج٥/ ص ٩٧)، وقال المُنذري فى الترغيب [ج٣/ ص ٢٣٦]: قال الحافظ: رويناه من طريق أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود، ولم يسمع من أبيه، وقيل سَمِعَ، ورواه ابن ماجة عن ابى عُبيدة مُرسلاً، وهذا ما قرره الإمام ابن كثير في تفسيره.

قُلت:

والحديث حسنٌ إن شاء الله لأشياء عدة، منها:

أولاً: قال الطبري في إحدى رواياته للحديث [ج٤/ ص ٤٢٨] من طريق: على بن بذيمة عن أبي عُبيدة - أظنه عن مسروق - عن عبد الله، قال: وذكر الحديث، فإذا أردنا أن نُحسّن من درجة الحديث لورود مسروق (وهو ابن الأجدع بن مالك) بين أبي عُبيدة، وبين أبيه عبد الله، وذلك لحكم البعض على أبي عُبيدة بالإرسال لعدم سماعه من أبيه حسب زعمهم.

فنجد أنَّ مسروق ثبت سماعه من عبد الله بن مسعود، كما في تهذيب التهذيب [ج١٠/ ص ١١٠]، إلا أنَّ أبي عُبيدة لم يُثبت له سماع من مسروق، والذي ثبت له سماع من مسروق أخيه عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وبذلك لم تصح الرواية (المصدر السابق).

ثانيًا: قالوا: إن أبي (أبو) عُبيدة بن عبد الله، واسمه (عامر) لم يثبت له سماع من أبيه.

ثالثًا: فقد ثبت له سماع كما جاء في تهذيب التهذيب [ج٦/ ص ٢٧] قول الإمام ابن حجر: وعنه ابناه عبد الرحمن وأبو عُبيدة.

بهذا فحُجة الإرسال لعدم ثبوت السماع قد انتفت.

رابعًا: قال الإمام النووي في ذكر هذا الحديث في رياض الصالحين [ص ٥٠]: رواه أبو داوُد، والترمذي وقال، حديثٌ حسن.

في حين جاء في سُننه [ج٥/ ص ٩٧] قوله: هذا حديثٌ غريب، ولعْلّ ما قاله الإمام النووي قد علمهُ من طرق أخرى بتحسين الإمام الترمذي للحديث.

خامسًا: ثبت مما سبق أن حُجة الإرسال والتي قد توهِنُ درجة صحة الحديث قد انتفت.

والله تعالى أعلى وأعلم، أهـ.

أمّا قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: اليهود عليهم لعنة الله ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يوالون الكُفار ضد المُسلمين، ويُظاهرون عليهم.

يتحالفون مع الشيطان ضد الإسلام والمسلمين.

وهذا بيّن في وقتنا هذا، فقد خرج منهم كافرًا فاسقًا فاجرًا، بكتابات وأسماها: صراع الحضارات، فهذه كَذِبة وصدّقوها، وأصاغوها للعالم حتى صارت أمرًا واقعًا كعادهم.

والحقّ أننا وهُم سواء، فنحن نُجمِّل الأشياء حتى نفعلها، ونجد لها من الوسائل ما يُبرِّرُها.

المُهم. أنّ اليهود كعادهم يُحاولون غير مُألون في هذا جُهدًا أن يُدخلوا المُسلمين في متاهات، وفي دروب الإضلال والتشكيك والتي ينتج عنهما وغيره نشُوء الصراعات والجدل العقيم، ويُدخلُونا في فروع حتى ننسى أصول الخلافات معهم، وتتوه الحقائق وتذوب في تلك الأمور.

أو حتى تنشأ خلافات في الرأي الإسلامي وأهله، وما أيسره وأسهله، ويحدُث الانقسام فى الرأي، والتي سُرعان ما تتحول إلى مشاكل وخلافات حادة، فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

هؤلاء هُم اليهود.

لا يدعون مجالاً ولا يتركون أفرادًا أو جماعات إلّا وسخرّوها ووجهوها لضرب الإسلام والمسلمين، حتى القوانين الدولية: أمثال حقوق المرأة، منع ختان الإناث، وكذلك القوانين الاقتصادية والتشريعات الخاصة بها، وغير ذلك كثير. كل هذا والمسلمون في سُباتٍ سرمدي.

كل هذا والمُسلمون آلةٌ في يدٍّ هؤلاء تُوجه حيث شاءوا، وتسير كيفما أرادوا، وتقف وقتما يشاءون، فالحوّل والقوة بالله وحده.

أمّا قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بئس الذي قدمته أنفسهم بالمُظاهرة على الإسلام والمُسلمين، وهم أهلُ دين وكتاب، وليس دينهم كأي دين، وليس كتابهم كأي كتاب، يكفيهم فخرًا وشرفًا وعزًا، أن دينهم دينُ الله وكذلك كلام الله، ورسولهم صفيُّ الله، وخاتم الأنبياء والمرسلين. وكذلك نحن شهداء على الأُمم يوم القيامة.

فإذا كان هذا فعلهم وغيره الكثير الجمّ، إلّا أنّهُ كان سببًا في ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾.

الحمدُ لله وحدهُ على عدلِّه، وله الفضل والمِنّة علينا نحنُ المُسلمين.

انظر أخا الإسلام إلى هؤلاء القوم، ما مِن نبي بُعِثَ فيهم إلّا ولعنهم لفسقهم ومعصيتهم، وتحايُلهم على أوامر الله ونواهيه.

وما نذكُرُه من أحداث أو بعض الأحداث، والتي قد حدثت مع بعض أنبياء بني إسرائيل، وليس جميعهم حتى يعلم ذلك القارئ الكريم، المُسلم الطيب الطاهر الزكي، الكريم على ربه، أهـ.

حال اليهود مع نبي الله تعالى سُليمان عليه السلام



عليك أولاً أخا الإسلام أن تتحلى بالصبر، وتوسع من صدرك حتى لا يضيق لتختنق فتزهق رُوحك حسرةً من هؤلاء الكفرة الفسقة الفجرة نظير ما يَحدُث منهم تجاه أنبياء الله تعالى.

فهذا سُليمان بن داوُد عليهما السلام، انظر بما رمُوه عليهم لعائن الله.

يقول الله تعالى:

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

[البقرة: ١٠٢، ١٠٣]

وإليك ما جاء في سبب نزول هذه الآية.

فعن شهر بن حوشب، قال:

لما سُلبَ سُليمان مَلكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سُليمان، فكتبت: من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقلُ كذا وكذا.

فكتبته وجعلت عنوانه: (هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سُليمان بن داوُد من ذخائر كنوز العلم)، ثم دفنته تحت كُرسيّه.

فلما مات سُليمان قام إبليس خطيبًا فقال: يا أيها الناس. إن سُليمان لم يكن نبيًا، وإنما كان ساحرًا، فالتمِسُوا سِحرُه في متاعه وبيوته! ثم دلّهُم على المكان الذي دُفِنَ فيه، فقالوا:

والله. لقد كان سُليمان ساحرًا، هذا سِحْرُه، بهذا تعبَّدنا، وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كان نبيًا مؤمنًا.

فلما بعث الله النبي مُحمدًا ﷺ جعل يذكُر الأنبياء حتى ذكر داوُد وسُليمان قالت اليهود: انظروا إلى مُحمد يخلط الحق بالباطل، يذكُرَ سُليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرًا يركب الريح. فأنزل الله عُذر سُليمان: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية. (١)

وعن ابن إسحاق:

وذلك أن رسول الله ﷺ فيما بلّغني لما ذكر سُليمان بن داوُد فى المُرسلين، قال بعضُ أحبار اليهود:

ألا تعجبون من مُحمد يزعُم أن داوُد كان نبيًا، والله ما كان إلّا ساحرًا! فأنزلّ الله في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾. (٢)

---

(١) رواه الطبري في تفسيره [ج/١ ص ٦٣١، ٦٣٢].

(٢) رواه الطبري [ج/١ ص ٦٣٢]، وذكره السيوطي في أسباب النـزول بزيل تفسير الجلالين، وقد عزاه لابن أبي حاتم عن أبي العالية. [ص ٣٣، ٣٤].

هذا. وقبل أن ننتقل إلى موضوع التخاطب، فلننظُر إلى قول اليهود لعنهم الله فيما قالوه ونسبوه ظلمًا وزورًا إلى سيدنا محمد ﷺ، وكذا نبي الله سُليمان عليه السلام.

ففي قوله حكايةً عنهم لعنهم الله، قوله: والله. لقد كان سُليمان ساحرًا.

انظر يُقسمُوا على الباطل، لتأكيد ما يرموا به نبي الله سُليمان مِن أنّهُ ساحر. وهذا كذبٍ محض، وافتراءٍ بيّن.

فهل يبعثُ الله نبيًا ساحرًا؟

أو أن يُعلّمهُ السحر؟

ولقد حرّم الله تعالى السحر وتعلّمه، وقد عُلّمنا من الشرع الحكيم أن حدّ الساحر بعد الإعذار القتل.

فهل ننسب إلى الله تعالى مثل هذا كون الله تعالى هو الذي بعث نبيه سُليمان واصطفاه.

وقولهم في حقّ نبينا محمد ﷺ حيثُ قالوا: يخِلطُ الحقّ بالباطِل.

يا سُبحان الله. مَن يفعل هذا حتى تكون هكذا صفته، إمّا أنّ يكون لهوىً في نفسُه، أو أنّ يكون والعياذ بالله سفيه العقل لا يُميز بين الأمور، ولا يضعها في نصابها الحق.

وسيدنا مُحمد ليس كذلك وحاشاه، وكذا أنبياء الله ورُسُله.

وإنما كُل ما هُنالك أنهم قومٌ فسقه فجرة طُغاة ظلمة، لا يعرفون لنبيهم، بل ولأنبياء الله كافةً وكذا رُسُله قدْرهم، ولم يَنــزِلُوهم المنــزلة اللائقة بهم، ولم يُبجلُوهم التبجيل الواجب في حقهم.

وقولهم لعنهم الله: وإنما كان ساحرًا يركب الريح، يُريدون نبي الله سُليمان.

ولقد عَلِموا أن الله تعالى هو الذي سخر له الريح، ولكنه الجحُود والنُكران لأنعُمِ الله تعالى على عباده.

انظر إلى قول المولى عزّ وجلّ:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

[صٓ: ٣٤: ٤٠]

هذا عطاءُ الله وفضله على عبده سُليمان ﷺ، لا كما قالت يهود: والله. لقد كان سُليمان ساحرًا، و: بهذا تعبَّدنا، وبهذا قهرنا فهذا ليس بمستغربٍ على يهود، فهم دائمًا يُزيفون الحقائق، ويجعلون الحقّ باطلاً، والباطل حقًا، ويغيرون في حروف التاريخ للناس والأمم، فواقعهم يشهد بذلك، وماضيهم سواء.

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

يقول الإمام الماوردي في تفسيره:

فيه ثلاثة أقوال:

أحدُها: ليكون ذلك مُعجزًا له يعلم به الرضا، ويُستدلُّ به على قبول التوبة.

الثاني: ليقوى به على مَن عصاهُ مِن الجن، فَسُخرت له الريح حينئذ.

الثالث: لا ينبغي لأحد من بعدي في حياتي أن ينـــزعَهُ مني كالجسد الذي جلس على كرسيه، قاله الحسن.

وقال مُقاتل: سأل الله تعالى مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده بعد الفتنة. فزاده الله تعالى الريح والشياطين بعدما ابتُلِيَّ.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي: المُعطي.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي: ذللناها لطاعته.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ يُحتمل وجهين:

(**أحدهما**) تحمل ما يأمُرُها.

(**الثاني**): تجري إلى حيث يأمُرُها.

وقوله: ﴿رُخَآءً﴾ فيه خمسة تأويلات.

(**أحدها**) طيبة.

(**الثاني**) سريعة.

(**الثالث**) مُطيعة.

(**الرابع**) ليّنة.

(**الخامس**) ليست بالعاصفة المُؤذية ولا بالضعيفة المُقصّرة.

ولقد حكى عن هذه الخمسة أقوال عن جماعة من علماء السلف.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ فيه وجهان:

(**أحدهُما**) حيث أراد، قاله مُجاهد.

(**الثاني**) حيثُ ما قصد. مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ يعني: سخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ﴾ يعني: في البرّ، و ﴿وَغَوَّاصٖ﴾ يعني: في البحر على حُلْيّه وجواهره.

وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ فيه ثلاثة أوّجهٍ:

(**أحدُها**) فى السلاسل.

(**الثاني**) فى الأغلال.

(**الثالث**) فى الوثاق؛ حكاهُ عن جماعة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ فى المُشارُ إليه بهذه الأقاويل الثلاثة:

أحدُها – ما تقدم ذِكرُه مِن المُلك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده بتسخير الريح والشياطين.

فعلى هذا في قوله: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وجهان:

(**أحدُها**) امنن على مَن شِئت مِن الجنّ بإطلاقه، أو أمسك مَن شِئت منهم في عمله من غير حرجٍ عليك فيما فعلته بهم، قالهُ قتادة والسُدّي.

(**الثاني**) أعطِّ مَن شِئت مِن الناس وامنع مَن شِئت منهم.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه ثلاثة أوَجُه:

(**أحدُها**) بغير تقدير فيما تُعطي وتمنع.

(**الثاني**) بغير حرج.

(**الثالث**) بغير حساب تُحاسبُ عليه يوم القيامة، حكاهُ عن جماعة من العُلماء.

قال الحسن: ما أنعم اللهُ على أحدْ نعمةً إلاّ عليه فيها تَبعةً إلاّ سُليمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

وعن مُجاهد في قوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الآية. قال سُليمان عليه السلام:

أوتينا ما أُتِيّ الناس وما لم يُؤتّوا، وعُلّمنا ما عَلِمَ الناس وما لم يعلمُوا، فلم ترَ شيئًا هو أفضل من خشية الله في الغيب والشهادة، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحقّ في الرضا والغضب.

(**والقول الثاني**): أنّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا تقديرُه: هذا عطاؤنا بغير حساب، فامنن أو أمسك، فعلى هذا في قوله: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ وجهان:

(**أحدُها**) بغير جزاء.

(**الثاني**) بغير قِلّة.

(**الثالث**): إنّ هذا إشارةً إلى مُضمر غير مذكور، وهو ما حُكِيَ: أنّ سُليمان كان في ظهره ماء مائة رجُل، وكان له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، فقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ يعني الذي أعطيناك من القوة على النكاح، ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ بجِمَاع من تشاء من نسائك، ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ عن جماع من تشاء من نسائك.

فعلى هذا في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وجهان، قَبِلَ الأوّل منهما وأيده، وردّ الثاني لعدم موافقته الصواب والمُوائمة، فقال:

(**أحدُها**) بغير مؤاخذة فيمن جامعت أو عزلت.

(الثاني) بغير عدد محصور فيمن استبحت أو نكحت. وهذا القول عدول عن الظاهر إلى ادّعاء مُضمر بغير دليل. لكن قيل فذكرتُه [1]. انتهى قول الإمام.

لقد أتينا بكل ما قاله الإمام لِحسُن مقاله، ولما فيه مِن إظهارِ فضلِّ الله تعالى عليه ومِنّته.

ولما فيه من جَزيل الفضل والعطايا التي وهبها الله تعالى إياهُ لا كما زعمت يهود عليهم لعنةُ الله.

وأيضًا يُزاد الأمر بهاءً وسموًا، حينما امتنع رسول الله سيدنا مُحمد ﷺ.

أن يدعوا بمثل ما دعى به سيدنا سُليمان عليه السلام، وتَحُجرّ [2]؛ ذلك الفضل عليه وحده، وهذا من عظيم أدبه مع خالقه ﷻ ومع إخوانه الأنبياء والمرسلين، صلوات ربي وتسليماته عليهم أجمعين.

فعن محمد (هو ابن زياد) قال: سمعتُ أبا هُريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: [إن عفريتًا من الجنِّ جعل يَفتكُ عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة، وإنّ الله أمكنني منه فَذَعتُّهُ، فلقد هَمَمتُ أنْ أربطهُ إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تُصبحُوا تنظُرُون إليه أجمعون (أو كُلُّكُم) ثم ذكرت قول أخي سُليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّهُ اللهُ خاسئًا]. [3]

(١) مُصحف التهجُّد ومعه تفسير الماوردي المُسمى (النُّكت والعيون). [ج٣/ ص ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨]، مع بعض التصرف.

(٢) قوله "تحجُرّ": تحجر هذا الأمر عليه - أي: وقف عليه وخاصًا به.

(٣) رواه مُسلم في صحيحه [ج٥/ ص ٣٩، ٤٠، ٤١]، والبخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٢٧٩]، والنسائي في السُنن الكُبرى [ج٦/ ص ٤٤٢، ٤٤٣]، وأحمد في مُسنده [ج٣/ ص ٨٢، ٨٣]، وفي جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان [ج٣/ ص ٦٠، ٦١]، وفي الباب عن السيدة عائشة، وأبي سعيد الخُدري، وبمعناه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد رواه الحاكم في مُستدركه [ج٢/ ص ٤٧١]، وابن ماجة في سُننه [ج١/ ص ٥٣٢].

يقول الإمام النووي:

(**يفتك**)، وفي رواية البخاري (**يفلت**) وهُما صحيحان. والفتك: الأخذ في غفلةٍ وخديعة.

(فذَعتُهُ) هو بذال مُعجمة وتخفيف العين المُهملة أي: خنقته.

ثم قال الإمام في قوله ﷺ (ثم ذكرت قول أخي سُليمان. صلاة الله وسلامه عليه) قال القاضي:

معناه أنّهُ مختص بهذا فامتنع نبينا ﷺ مِن ربطه، إمّا أنّهُ لم يقدر عليه لذلك، وإمّا لكونه لما تذكر ذلك لم يتعاط ذلك لظنه أنّهُ لم يقدر عليه، أو تواضعًا وتأدبًا.

قوله ﷺ: [فردَّهُ الله خاسئًا] أي: ذليلاً صاغرًا مطرودًا مُبعدًا. (١)

قُلت:

أمّا قول القاضي (هو ابن عياض): أمّا أنّهُ لم يقدر عليه لذلك ... إلخ.

هذا مردودُ كونه ﷺ قد أخبر عن أنّ الله تعالى أمكنه منه، أهـ.

ولقد قيل في جامع البيان:

وأمّا ما أخرج الطبري (٢) من طريق سعيد عن قتادة:- في قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾: لا أُسلّبه كما سُلِبّتهُ أوّل مرة.

وظاهر حديث الباب يَرُدّ عليه، وكأن سبب تأويل قتادة هذا: هكذا: طعن بعض الملاحدة على سُليمان، ونسبته في هذا إلى الحرص على الاستبداد بنعمة

---

(١) قاله الإمام النووي في شرح مُسلم [ج٥/ ص ٤٠، ٤١].

(٢) قد رواه الطبري في تفسيره [ج ١٢/ ص ١٨٩].



الدُنيا، وخفيَّ عليه أن ذلك كان بإذن له مِن الله، وأن تلك كانت مُعجزتُه - كما اختُص كل نبي بمعجزةٍ دون غيره، والله أعلم [1] أهـــ، وهذا ما تفوهت به يهود. نعدُ إلى حديثنا عن ما رمت به اليهود به سيدنا سُليمان مِن أنّهُ ساحر.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾، الآية.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي شعب يهود ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ أي: ما تقوله وتَعرِضَهُ عليهم بعد وفاة نبي الله سُليمان، مِن أنّهُ قد خبأ ما كتبته الشياطين مِن السحر تحت كُرسي مُلكه؛ وقيل: بل استخرجوا ما كان قد دفنه من أدوية وأدعية ومن أعشاب وكلمات تُستعمل فى كُل داء.

فاستعملته الشياطين فى السِحر، ووجهته إلى ذلك ونسبتُه إلى نبي الله سُليمان بعد وفاته، فصدقت بذلك الأُمة اليهودية استخفافًا، حيثُ أكدت ذلك عُلماءهُم ظُلمًا وزورًا، وطغيانًا وكُفرا.

ولقد عَلِموا أن السحر كُفر، وأن مُتعاطيه ومتعلّمُه كافر، ومُرتدّ، ومع ذلك نسبوه إلى نبيه سُليمان، وقد جاء في آية سورة البقرة برآة سُليمان ﷺ، فجاء قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ أي: أن السحر كُفر، فهل يجوز في حق نبي الله تعالى سُليمان مِثل ذلك؟

لا يجوز.

وبذلك يتبرأ سُليمان من الكفر كون الساحر كافر، وها أنتم قد أدّعيتم عليه أنه كافر وما هو بكافر، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ فهل معنى هذا أن الإيمان جائز في حقّ الشياطين؟ نعم.

---

(١) جامع البيان لما اتفق عليه الشيخان [ج٣/ ص ٦٣].

إن منهم المؤمن ومنهم الكافر، وهذا ليس موضع بسطه، وأن السحر كُفر، وهم يعلمون ذلك، ومع ذلك تعلموه، فكفروا، ولم يكتفوا بذلك، بل علّمُوه الناس ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

ثم يذكر الله تعالى فى الآية مضار السحر، والغاية المذمومة منه، والغرض الخبيث من وراءه، ولذلك عرّف العاقبة سُبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾. أي ولقد عَلِمت الجن واليهود وعلماؤهم، أن الذي يشتريه، أي: يكتسبه عِلمًا ويرتضيه، ومن يفعل ذلك ويرضاه ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: من نصيب عند الله من الجزاء والمثوبة الحسنة.

وحقًا رضوا بذلك لأنفسهم عن اقتناع ورغبة، فقال الله لذلك: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

ويُبينُ الله تعالى لنا الفارق الشاسع مِن عِلمهم بالكُفر وإحدى موجباته وهي تعْلُم السحر، وبين نبذ الكُفر بكل أشكاله وموجباته ومعطياته، وبما في ذلك الكُفر، فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بالله تعالى، وأعرضوا عن نواهيه ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الله تعالى، وجعلوا بينهم وبين معصيته جُنّة ووقاية ﴿لَـ﴾ كان جزاء ذلك ﴿مَثُوبَةٌ﴾ أي: ثوابًا ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لهم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

فجَهِلوا ذلك كُله، واستحبوا العمى على الهُدى، واستحبوا الضلال على الهُدى وآثروه، وآثروا الحياة الدُنيا على الآخرة، ولدار الآخرة خيرٌ لهم، ولدار الآخرة أكبر عند الله تعالى، أفلا تَعقلُوا يا يهود.

نرجوا من الله تعالى، ونبتهلُوا إليه، راجين الله تعالى بصفات كماله، وبأسماء جلاله أن يتعلم أولي الأمر فى الأُمة الإسلامية تاريخهم العقيم الأليم.

وأن لا يوالوهم، فإن من يواليهم فليس بمُسلم، فإن من يواليهم فليس بمُسلم، وأن من يوالى من حآدّ الله وَرَسُولُه؛ وأنّ من يُشاقق الله وَرَسُولُه فليس بمُسلم، فليس بمُسلم أيًا كانت سجيته، وأيًا كانت منـــزِلتُه، أو منصبه فى الأرض.

اللّهُمّ نتبرأ إليك من كل حوّل وقوة إلاّ بك، ونتبرأ إليك ممن يوالي اليهود ومن يُناصرهم على الإسلام والمُسلمين، وكذا من يوالي اليهود على الظهور على الإسلام والمسلمين.

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حوّل ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ..

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين

حال اليهود مع نبي الله تعالى زكريا عليه السلام



زكريا عليه السلام.

وهو: زكريا بن برخيا، ويُقال: زكريا بن دان، ويُقال: زكريا بن لدن بن مُسلم بن صدوق بن حشبان بن داوُد بن سُليمان بن مُسلم بن صَدْيقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن داوُد بن بهفاشاط بن إينامن بن رحيعام بن سُليمان بن داوُد، أبو يحيي النبي عليه السلام من بني إسرائيل، قاله ابن عساكر.

وقال الإمام ابن كثير:

وقد قيل غير ذلك في نسبه، ويُقال فيه: زكريا بالمد والقصر، ويُقال: زكرى. أيضًا. [1]

وقال الثعلبي:

هو: زكريا بن يحي يوحنا بن ادن بن مُسلم بن صدوق بن يحسان بن داوُد بن سُليمان بن مُسلم بن صَدْيقة بن ناحور بن سدوم بن ثهفاساطين بن رابيا بن رحيعم بن سُليمان بن داوُد عليه السلام [2].

ولعْلّ الاختلاف في ألفاظِ أسماء النسب يرجع إلى عاملين.

الأوّل: تعاقُب حِقبةً من الأزمان غير يسيرة على كُتّاب السير والتاريخ في حفظ هذه الأسماء.

الثاني: أنّ تغير الألفاظ يرجع بعض اختلافها إلى أنّ بعضها عِبري، والآخر سُرياني، وهذا وذاك قد عُرِبا، وهو بيّن وواضح، والله تعالى أعلم؛ أهـ.

إن زكريا عليه السلام، لم يكن له مع بني إسرائيل سوى موقفهم من قتله، ولو لم

(١) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٤٨٢].
(٢) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ٢٠٣].

يكن لبني إسرائيل غير هذا الذنب لكفاهم بأن يَرِدُوا موارد التهلكة، ويكون مصير حتفهم في جهنم وبئس المصير.

يقول الإمام ابن كثير في قصصُ الأنبياء:

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منّبه: هل مات زكريا عليه السلام موتًا، أو: قُتِلَ قَتْلاً؟

وساق الإمام روايتين عن ابن منّبه.

الأوّلى منهما :

أنّهُ قال: هرب من قومه فدخل شجرةً فجاءوا - أي اليهود - فوضعوا المنشار عليهما، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنْ. فأوحى الله إليه: لئن لم يسكُن أنينُك لأقلبن الأرض ومن عليها. فسكن أنينُه حتى قُطِعَ باثنتين.

قُلت:

إن صحت هذه الرواية، وهي كذلك إن شاء الله، فإنها تُبين مدى جفاء خُلُق الأُمة اليهودية، وعدم مساس الرحمة شِغاف قلوبهم، فهي قاسية، بل أقسى من الحجر الصوان في ذاته، ولا تلين ولا ترحم، لا رحمهم الله.

ومع ذلك خاف عليهم سيدنا زكريا عليه السلام، حتى لا يُهلكوا، لعلّهم إن يبقوا على حياتهم يتوبوا، أو أن يغفر الله لهم.

إلّا أنّ القاعدة، وكما جاء في الحديث الشريف ما معناه: أن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة مَن قتل نبي، أو قتلَهُ نبي، أهـ.

الثانية :

أنّهُ قال: الذي انصدعت له الشجرة هو: شعيا. فأمّا زكريا فمات موتًا، فالله أعلم. (1)

(1) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٤٨٢].

ويقول الإمام الثعلبي:

لما سَمِعَ زكريا أن ابنهُ يحيي قُتِلَ، وخُسِفَ بالقوم، انطلق هاربًا في الأرض حتى دخل بُستانًا عند بيت المقدس فيه الأشجار، فنادته شجرة: يا نبي الله. ههنا! فلما أتاها انفتقت لهُ الشجرة، ودخل زكريا في وسطها، فانطلق إبليس لعنه الله حتى أخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليُصدِّقوه إذا أخبرهم، فلذلك تصنع اليهود الخيوط في أطراف أرديتهم لا يدرون لِما أُمِروا بذلك، وأخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا، فاستقبلهم إبليس لعنه الله تعالى، فقال لهم، ما تلتمسون؟ قالوا: نَلتمسُ زكريا! فقال إبليس: إنّهُ دخل في هذه الشجرة. قالوا لا نُصدقُك. قال: إن أريتكم علامة تُصدقُوني بها. قالوا فأرِنا إياها. فأراهم طرف ردائه، فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين، فسلط الله عليهم أخبث أهل الأرض عاجًا مجوسيًا، فانتقم الله به من بني إسرائيل بدم يحيي وزكريا، فقتل عُظماء بني إسرائيل، وسبي منهم مائة وسبعين ألفًا. (1)

وفي هذا الخبر، تبين أن اليهود قتلةُ الأنبياء، فما بعد ذلك هين، فحينما يقتلون المسلمين، أو العرب، أو حتى أصحاب الأرض في فلسطين، وكذلك الأطفال حتى الرُضعْ منهم، وأيضًا النساء الضعاف، فإن ذلك في حقهم شيءٌ يسير إذا قيس بما فعلوه بأنبياء الله تعالى.

وأيضًا. فإن معنى أن سيدنا زكريا ينطلق هاربًا، فإن فراره هذا ليس فرارًا من الموت، وإنما مخافة أن تؤخذ يهود بدمه، كما فعل الله بالقوم الذين قتلوا ابنه يحيي عليه السلام، إلاّ أنهم قتلوه أيضًا عليهم لعنة الله إلى يوم الدين.

ولقد قال الثعلبي روايةً أخرى تُبين قتل اليهود نبي الله تعالى زكريا عليه السلام، فقال: قيل:

---

(1) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ٢٠٩].

أن السبب في قتل زكريا. أن إبليس جاء إلى مجالس بني إسرائيل، فقذف بمريم زكريا، وقال ما أحبلها أحد غيرَ زكريا، وهو الذي كان يدخُل عليها، فطلبوا زكريا فهرب، واتّبعَهُ سُفهاؤهم وأشرارهم، فسلك واديًا كثير الأشجار، فتشبه له الشيطان في صورة راعٍ، فقال: يا زكريا. قد أدركوك، فادعُ الله أن يفتح لك هذه الشجرة، ففعل ذلك، فانفتحت له فدخل فيها، وأخرج إبليس هدب رِدائه منها، فمرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا: يا راعي. هل رأيت رجُلاً ههنا مِن صفته كذا وكذا. قال نعم! سحر هذه الشجرة فانفتحت له، فدخل فيها وهذا هدب رِدائه، فقطعوا الشجرة مع زكريا، وفلقوها فلقتين بالمنشار طوُلاً.

فبعث الله الملائكة فغسلّوا زكريا، وصلّوا عليه، ودفنوه. (١)

يا سُبحان الله. هؤلاء اليهود لعنهم الله بظلمهم.

فكثيرًا نجدُ الكلام مؤلمًا، ولا يشفي ما فى الصدور قليل الكلام أو كثيره، ولا كذلك سطُور، أو صفحات، أو حتى كُتب.

وإنما يشفى صُدُورنا، أن مثواهم جهنم وساءت مصيرًا، كُلما خبت زِيدت سعيرًا، ولن يجدوا لهم من الله تعالى وليًا ولا نصيرًا، ولن يجدوا من عذاب الله تحويلاً ولا مصرِفا.

فالحمد لله على كل حال. وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ أهـــ.

---

(١) المصدر السابق.

حال اليهود مع نبي الله تعالى يحيى عليه السلام



هو يحيى بن زكريا عليهما السلام.

قال كعب الأحبار:

كان يحيى بن زكريا نبيًا، حسن الوجه والصورة، لين الجناح، قليل الشعر، قصير الأصابع، طويل الأنف، مقرون الحاجبين، رقيق الصوت، كثير الغيرة، قويًا في طاعة الله تعالى، وقد ساد الناس في عبادة الله وطاعته. (١)

وقد قيل: إنَّهُ لم يتزوج، شأنه في هذا شأن عيسى عليهما السلام.

وثانيةً. فإذا ذُكِرت يهود، فإنما يُذكرُ الألم والعذاب الروحي والأحزان على ما تقترفه أيديهم في حق الإنسانية جمعاء.

فقد قتلته بنو إسرائيل كما قتلت أباهُ من قبل، وكما قتلت أنبياء غيرهما.

يقول الإمام ابن كثير:

وذكروا في قتله أسبابًا من أشهرها: أن بعض مُلوك ذلك الزمان بدمشق كان يُريد أن يتزوج ببعض محارمه، أو مَن لا يحِلُّ له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقيَّ في نفسها منه، فلما كان بينهما وبين الملك ما يُحبُّ منها، استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعث إليه من قَتلهُ وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها فيُقال: أنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل:

بل أحبته امرأة ذلك الملك، وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك، ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمهُ في طست. (٢)

---

(١) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ٢٠٦].
(٢) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٤٩١].

ورُوي غير ذلك في سبب قتل بني إسرائيل سيدنا يحيى عليه السلام.

فقال الثعلبي:

اختلف العُلماء في سبب قتله. فقال بعضُهم: كان يحيى عليه السلام في زمن ملك من ملُوك بني إسرائيل، وكان له امرأةٌ، وهي ابنة ملك صيدا، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين، وكانت عاهرة، تَبْرُز للناس، وكان يحيى يزجرها عن ذلك ويقول لها:

لا تَبْرُزي كاشفةً وجهكِ، وكان كثيرًا ما يقول لها: مكتوبٌ في التوراة: أنّ الزُناه يُوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيفة، فأمرت بيحيى فَسُجِنَ، وكان قد حُبِسَ رجُلٍ من أبناء المُلوك، وكان كثيرًا ما يختلفُ إليها بالليل، فعلِمَ بها وبه يحيى، فزجرَه فبلغ ذلك امرأة الملك، فحملت بنتًا له، واستقبلت بها زوجها، فقال: لِما فعلتِ ذلك، فقالت: وجب لها عليك حقّ فقال [1] لها: سلي ما شئت، فقالت البنت: استوهبت مِنك أهل الحبس أصنع بهم ما شئت، فظن أبوها أنها ترحمهم وتستروحهُم، فقال أبوها: قد فعلت! فأمرت أُمها بأهل السجن فَعُرِضُوا عليها، فلما مرَّ بها يحيى أمرت به فَذُبِحَ، وأخذت رأسهُ في طشت، ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أُمها وقالت: أيها الملك. إني قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ما وجدته، ولو كان مِثلهُ ألف لذبحتهم لك. فقال: وما هو؟

قالت: يحيى بن زكريا.

فقال: هلكتِ وأهلكتِ أبويك، فغيْرَ الله ما بِهم من النعم، وسلط عليهم عدوًّا، فَذُبِحت البنت وأبويها، وسلّط عليهُمُ الكلاب والسباع حتى أكلتهم.[2]

---

(١) قوله: فقال: هو الصحيح، وما جاء في المطبوع قوله: فقل. هكذا على الأمر، وهو خطأ.
(٢) قصصُ الأنبياء للثعلبي [ص ٢٠٨].

وروي سببًا آخر في قتل يحيى عليه السلام، قد ذكره ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر بسنده إلى قاسم مولى مُعاوية، قال:

كان ملك هذه المدينة يعني دِمشق: هدّاد بن هدّار، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملك صيدا.

وكان من جُملة أملاكها سُوق المُلوك بدمشق، وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا. ثم أنّهُ أراد مُراجعتِها فاستفتى يحيي بن زكريا فقال: لا تَحِلُّ لك حتى تَنكِحَ زوجًا غيرك، فحقدت عليه، وسألت مِن الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أُمها.

فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه وهو قائمٌ يُصلي بمسجد جَبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تَحِلّ لك حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أُمِّها وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدىٍّ أُمها خُسف بها إلى قدميها، ثم إلى حقويها، فجعلت أُمها تولول، والجواري يصُرخنّ ويلطمنّ وجوههُن، ثم خُسِفَ بها إلى منكبيها، فأمرت أُمها السيّاف أن يضرب عُنُقها لتتسلى برأسها، ففعل فلفظت الأرض جُثتها عند ذلك، ووقعوا فى الذُلّ والفناء، ولم يزلّ دم يحيى يفور حتى قَدِم بختنصر فقتل عليه خمسة وسعبين ألفًا. قال سعيد بن عبد العزيز - الراوي عن القاسم، وأحد رجال السند -:

وهي دم كُل نبي، ولم يزّل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام، فقال:

أيُّها الدم. أفنيت بني إسرائيل فاسكُن بإذن الله فسكن فَرُفِعَ السيف، وهرب من هرب من أهل دِمشق إلى بيت المقدس، فتبِعهُم إليها، فقتل خلقًا كثيرًا لا يُحصون كثرةً، وسبى منهم من رجع عنهم [1]، أهـ.

---

(١) قصصُ الأنبياء لابن كثير [ص ٤٩٣].

وعن سعيد بن المُسيب قال:

قَدِم بختنصر دِمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفًا فسكن.

ثم قال الإمام ابن كثير:

وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى سعيد بن المُسيب، وهو يقتضي أنه قُتِلَ بدمِشق، وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري، فالله أعلم.[1]

وقد رُوي عن قتل نبي الله تعالى يحيي عليه السلام أسبابًا غير ذلك، فالله أعلم بها، وكذلك جاء أن شعب يهود هُم الذين تكالبوا عليه وقتلوه، أو كانوا عونًا على قتله، فسواءً هذا أو ذاك، فالعبرة بنتيجة الموقف.

فإنهم قتلوه عليهم لعنة الله، أو وشوا به فَقُتِل كما قتلوا أباه وكما قتلوا أنبياء بعده وقبله، فلعنة الله على الكافرين.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) المصدر السابق [ص ٤٩٢].

حال اليهود مع نبي الله تعالى عيسى عليه السلام



لقد كان نبي الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام في ذاته آية، وقد كانت رسالته كونه نبي من غير أبٍّ، قد كانت مجالاً للأخذ والرّد، والشك والتشكيك، وكذلك الكفر.

وكذلك مجيئه هذه الحياة بأمر الله، فكان مُعجزةً، وكان آيةً، وكانت ولادته أيضًا فتنة للناس.

إذ قَبلَ بأمره أُناسٌ، ثمّ آمنوا به وبرسالته، وردّتهُ طائفةٌ كُفرًا وجحودًا، فردت أمرَهُ كُليةً، وتقوّلوا فيه بعض الأقاويل، والتي لا تليق ولا يحق لها أن تُنسب إلى ذات الأنبياء كونهم يترفعون عن كل نقيصة ورذيلة.

وكذلك كانت هُناك طائفة كفرت برسالته وبمعجزاته، والتي أيدهُ بها ربّهُ عزّ وجلّ لتكون آيةً لصدق مقاله، وتكون أدّعى لإيمان شعب بني إسرائيل لما يعاينوه من خرق العادة.

وقد كان أمر عيسى عليه السلام محل شك وجِدال من يهود نجران لرسول الله ﷺ سيدنا مُحمد، وذلك في صدر الرسالة المُحمدية.

يقول الإمام السيوطي:

أخرج أبن أبي حاتم عن الحسن، قال: أتى رسول الله ﷺ راهبا نجران، فقال أحدُهما مَنْ أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجلّ حتى يُؤامرُ ربه [1]، فنــزلت: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [2].

(١) قوله: حتى يُؤامرُ ربه: أي حتى يأتيهُ الأمر من الله تعالى، فيأخُذُ عنه، وهذا من أدبه مع ربه، وكذلك أيضًا يستبين لنا أنّهُ ما كان لينطقُ عن الهوى، إن هو إلاّ وحيٌّ يُوحى.

(٢) أسباب النــزول للسيوطي بزيل كلمات القُرآن لحسنين مخلوف [ص ٧٧، ٧٨].

وذلك كُله وغيرُه مما جاء في قوله تعالى:

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

[آل عمران ٥٨: ٦١]

وفي ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره، فقال:

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أوّلِ السورة إلى هنا في وفد نجران: أنّ النصارى لَمّا قَدمُوا فجعلوا يُحاجّون في عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنّوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم.

كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره، قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيرُه:

وقَدِمَ على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكبًا فيهم أربعة عشر رَجُلاً من أشرافهم، يؤول أمرهم إليهم وهُم:

العاقب. واسمه: عبد المسيح، والسيد. وهو: الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأُويس بن الحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، وابناه وخويلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله، ومُحسن، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهُم:

العاقب. وكان أمير القوم، وذا رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدّرون إلاّ عن رأيه. والسيد. وكان عالمهم وصاحب رَحلهم ومجتمعهم.

وأبو حارثة بن علقمة. وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم، وكان رَجُلاً من العرب مِن بكر بن وائل، ولكنه تنصر فعظّمته الروم وملُوكها وشرّفوه، وبنوا له الكنائس وأخدموه لِما يعلمونه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما عَلِمُه من الكتب المتقدمة.

ولكن حمله على ذلك على الاستمرار على النصرانية لِما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزُبير قال:

قَدِموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال:

يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: [دَعُوهُم]. فصلوا إلى المشرق. قال: فكلّم رسول الله ﷺ منهم: أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والسيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالثُ ثلاثة، تعالى اللهُ عن قولهم علوًا كبيرًا.

وكذلك النصرانية. فهم يحتجون في قولهم: هو الله. بأنّهُ كان يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، ويُخبرُ بالغيوب.

ويخلقُ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا، وذلك كُلّه بأمر الله. وليجعَلّهُ اللهُ آيةً للناس.

ويحتجون في قولهم بأنّهُ ابن الله، يقولون: لم يكن له أبٌ يُعلم، وقد تكلّم فى المهد بشيءٍ لم يصنعَهُ أحدٌ من بني آدم قبله.

ويحتجون على قولهم: بأنه ثالِثُ ثلاثة بقول الله تعالى: فعِلنا، وأمرِنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحدًا ما قال: إلّا فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدّس وتنــزّه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا - وفي كل ذلك من قولهم: قد نزل القُرآن، فلما كلّمهُ الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: [أَسْلِمَا] قالا: قد أسلمنا.

قال: [إنكما لم تُسلِمَا فأسْلِمَا] قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: [كذبتُما. يمنعُكما من الإسلام أدعاؤكما لله ولدًا، وعبادتُكما الصليب، وأكلُكُما الخِنــزير] قالا: فمن أبوه يا مُحمد؟

فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يُجِبَهُما؟ فأنزلّ الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بِضع وثمانون آيةً منها.

قال الإمام ابن كثير:

ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال:

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أُمِرَ به من مُلاعنتهم إن ردّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك فقالوا:

يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نُريدُ أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خَلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا: يا عبد المسيح. ماذا ترى؟

فقال: والله يا معشر النصارى. لقد عرفتم أنّ مُحمدًا لنبيٌّ مُرسل، ولقد علمتم بالفصل من خبر صاحبكم - يُريد عيسى عليه السلام - ولقد علمتم أنه ما لاعن

قومٌ نبيًا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلاّ إلّف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم. قد رأينا أن نُلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رَجُلاً من أصحابك ترضاهُ لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا.

قال مُحمّد بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: **[ائتوني العشية أبعث معكم القويَّ الأمين]** فكان عُمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحِبُها، فَرُحت إلى الظهر مُهجرًا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلّم ثم نظر عن يمينه وشماله، فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزلّ يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبيدة بن الجراح فدعاه، فقال: [اخرُج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه] قال عُمر: فذهب بها أبو عُبيدة ﷺ (1). أهـــ.

وأمّا عقيدة اليهود والنصارى الفاسدة تجاه سيدنا عيسى عليه السلام، سنذكُرُها في موضعها إن شاء الله تعالى.

يقول الله تعالى:

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا

(1) ذكره ابن كثير في تفسيره [ج1/ ص ٤١٥، ٤١٦]، وبمثله الطبري في تفسيره أخرجه [ج٣/ ص ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٧]، وبمثله للواحدي في أسباب النــزول [ص ٨٩، ٩٠]، والحديث أخرجه مُسلم في صحيحه [ج١٥/ ص ٢٧٣، ٢٧٤]، والبُخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٣٣٩]، وأحمد في مُسنده [ج١/ ص ٤١٤]، وابن سعد في الطبقات الكُبرى [ج٣/ ص ٣١٤]، وذكره ابن حجر في الإصابة [ج٣/ ص ٧٣٧]، وابن عبد البر في الاستيعاب [ج٣/ ص ٦٤١، ٦٤٢]، وذكره السيوطي في الجامع الصغير [ص ١٤٥].

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾

[آل عمران: ٣٥، ٣٦]

يقول الإمام ابن العربي:

قال عُلماؤنا: كان لعمران بن ماثان ابنتان: إحداهما حَنّة، والأُخرى يلمشقع. وبنو ماثان من ملوك بني إسرائيل مِن نسل داوُد عليه السلام، وكان ذلك الزمان لا يحرَّر إلّا الغِلمان، فلما نذرت قال لها زوجها عِمران: أرأيتكِ إنّ كان ما في بطنكِ أُنثى كيف نفعل؟

فاهَتمَّتَ لذلك فقالت:

إني نذرتُ لك ما في بطني محرَّرًا، فتقبل مني إنك أنت السميعُ العليم.

وذلك لأنها كانت لا ولد لها، فلما حملت نذرت إنْ الله أكمْلّ لها الحمل ووضعتُه فإنه حبسٌ على بيت المقدس. [1]

فكان من أمر الله ما جال في خاطِرّ عِمران، مِن أنَّ المولود أُنثى لكي تتم مشيئتُهُ سُبحانه في خلقه.

فوضعتها، وسمتها مريم، وجعلتها خادمة بيت المقدسِ وفاءً للنذر.

ولما كانت مريم رضي الله عنها وليدة، ثم ما إن شبت كفلّها زكريا عليه السلام، بعد أن احتكموا إلى الأقلام، فكان أمر الله تعالى.

(١) أحكام القُرآن [ج١/ ص ٢٦٩، ٢٧٠].

وفي ذلك يقول عزّ وجلّ: وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا [آل عمران: ٣٧]

ويقول تعالى:

ذَالِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

[آل عمران: ٤٤]

أمّا قوله: ﴿ذَالِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يقول ابن كثير:

أي: نَقُصهُ عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كُنت عندهم يا مُحمّد فَتُخبِرهُم عن مُعاينة عما جرى، بل أطلعك اللهُ على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيُّهُم يكفُلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.[1]

قال قتادة رضي الله عنه:

كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم: فتشاحّ [2] عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهُم يكْفُلها، فقرعهم زكريا، وكان زوج أُختها [3] فكفلها زكريا، يقول: ضمها إليه [4] وكانت أُمّ مريم قد ذهبت بها إلى بيت المقدسِ، وإلى الكُهان حتى يكفلُوها ويأدبوها، وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير، عن ابن جريرٍ بسنده إلى عكرمة قال:

ثم خرجت بها - يعني: بمريم - في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٤١٠].

(٢) قوله: فتشاحّ: أي فتنازعَ.

(٣) قوله: وكان زوج أُختها: أي زوج أُخت أُمّ مريم، يعني زَوجَهُ خالة مريم.

(٤) تفسير الطبري [ج٣/ ص ٣٦٤].

موسى عليهما السلام، قال: وهم يومئذٍ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة، فقالت لهم:

دونكم هذه النذيرة، فإني حررتُها وهي أُنثى، ولا يَدخُلَ الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي، فقالوا:

هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم فى الصلاة - وصاحب قُرباننا، فقال زكريا: ادفعوها لي. فإن خالتُها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفُسنا. هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامِهمُ التي يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا فكفلها.[1]

فبهذا صارت ولاية الكفالة لزكريا نبي الله تعالى ﷺ، ثم كان من أمرها معه، فكُلّما دخل عليها المحراب وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف، الشيء الذي لفت انتباهه، ودفعه إلى أن يسألها عن مصدر هذه الفاكهة، والتي لم تُوجد في أوانها بعد، وفي ذلك حكى القُرآن الكريم ما دار بينهما، يقول تعالى شأنُه:

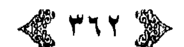
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

[آل عمران: ٣٧]

فلما شبت وبلغت كانت كُلما تحيض تخرُج من مسجد بيت المقدس، ولما تَطهُر تَدخُله، وتعمل على نظافته، وكان معها رَجُلٍ يُدعى: يُوسُف النجار.

---

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٤١٠، ٤١١].



ولما أراد الله تعالى أن يقضيَّ أمرًا كان مفعولاً، فكان من قضاؤه أن يُولد من مريم ابنت عِمران غُلامًا، ويكون نبيًا، بل وسيدًا وحصورًا ومن الصالحين.

يقول الله تعالى:

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

[آل عمران: ٤٥: ٤٧]

فهذه بشارةُ من الملائكة لمريم عليها السلام، بأن الله سَيهب لها ولدًا رحمةً منه، وسيجعله نبيًا ومن الصالحين، وكانت له من الخصائص والميزات التي ذكرها القُرآن الكريم.

فتعجبت مريم من ذلك، لأن المتبادر إلى الأذهان أن الولد يجيءُ من التناكُح، وإن لم يكن فمن الزنا، وهي ليست بمتزوجة ولا زانية، حاشا لله، فكان استفهامها لأجل ذلك لا اعتراض على قضاء الله ومشيئته.

فكان أمرُ الله تعالى.

أمّا قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فهذا يدلُ على أن هناك جمع للجنس، فبشروها، ثم يقول تعالى فى الآية التالية: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ فما وجه التباين بين قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ وبين ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ فمن الواضح والله تعالى أعلمُ بمراده، أنّ ليس بين البشارة وتنفيذ أمر الله تعالى متسع من الوقت.

فـ ﴿قَالَتْ﴾ الأوّلى. كانت بها البشارة من بعضٍ من الملائكة، ثم ما كان من إيراد قوله: ﴿قَالَ﴾ ثانيةً، فهي على لسان جبريل مَلك الوحي عليه السلام، لأنه هو الذي نفخ في درعها بأمر الله عزّ وجلّ.

وهو ما تؤكده الآيات التالية، حيث يقولُ عزّ وجلّ:

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

[مريم : ١٦: ٢١]

قيل في قوله: ﴿شَرْقِيًّا﴾ لذلك اتخذت النصارى جهة المشرِق قِبلةً.

ولا يفوتنا هُنا شيءٌ، هو:

أنّ الله تعالى قال لزكريا عليه السلام حين بُشِرَ بيحيى، قيل له على لسان الملائكة:

قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾

[آل عمران: ٤٠]

وقال الله تعالى لمريم على لسان ملائكته ما حكاهُ القُرآن:

قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ

[آل عمران: ٤٧]

فالفعل في الآيتين مختلف لفظًا ومعنًى، ففي إعلام زكريا قوله: ﴿يَفْعَلُ﴾ وفي إعلام مريم قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ في حين هذا وذاك مخلوقان بإذن الله، فولادة زكريا خلق، وولادة عيسى خلق، إلاّ أنّ الآيات بيّنت أنّ في ﴿يَفْعَلُ﴾ إيجاد من أبٍّ وأمّ وفعل الخلق يجري عليهما وبهما، أمّا في مريم جاء قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ مما يَدُلّ ويؤكد على أنّهُ سَيجيء مخلوقًا على غير عادة الإيجاد القدرية، الأمر الذي جعل مريم رضي الله عنها تسأل مُستفسرةً على غير العادة.

ويؤكد هذا الأمر ما جاء في قوله عزّ وجلّ والذي سبق ذكرُه:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾

[آل عمران: ٥٩].

وكأن خلّقهُ بالكلمة القدرية، فسُبحان ربّ العِزّة عما يصفون.

وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولم يقُل ﴿يَفْعَلُ﴾ كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنّهُ يخلُق، لئلا يُبقي لمبطلٍ شُبهةً، وأكدّ ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فلا يتأخر شيءٌ يُوجدُ عُقيب الأمر بلا مُهلة كقوله:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝﴾

[القمر: ٥٠]

أي: إنما نأمر مرةً واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح البصر.[1]

(١) تفسير ابن كثير [ج١/ ص ٤١١].

فحملت مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام على خوفٍ من قومها وما سيكون من شأنها معهم.

يقول الله تعالى:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

[مريم: ٢٢، ٢٣]

قوله: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي بعيدًا.

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: معناه: ألجأها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومنه قول الشاعر[1]:

إذ شددنا شدةً صادقةً فأجاناكم إلى سفح الجبل

الثاني: معناه: فجأها المخاض كقول زُهير[2]:

وجارٍ سارَ مُعتمدًا إلينا أجاءته المخافة والرجاء

وفي قراءة ابن مسعود: فأواها.[3]

وقيل: أي: جاء بها الطلق.[4]

وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير:

---

(١) هو: حسان بن ثابت. يردّ على عبد الله بن الزبعري يوم أُحد.

(٢) هو: زُهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه [ص ١٣]، كذا في الموضح في التفسير.

(٣) تفسير الماوردي [ج٢/ ص ٥٨٦].

(٤) الموضح في التفسير [ص ٧٥].

فالمشهور الظاهر والله على كُل شيءٌ قدير، إنها حملت به كما تحمِلَ النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجُلٌ صالح من قراباتها يخدم معها في البيت المُقدسّ يُقالُ له: يُوسُف النجار، فلما رأى ثِقل بطنها وكُبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها، ودينها وعِبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يَجوس في فِكرِه لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسَهُ على أن عرض لها القول فقال: يا مريم إني سائِلُكِ عن أمرٍ، فلا تعجلي عليَّ.

قالت: وما هو؟

قال: هل يكون قط شجر مِن غير حبْ؟

وهل يكون زرع مِن غير بذر؟

وهل يكون ولد مِن غير أبّ؟

فقالت: نعم. وفَهِمت ما أشار إليه. أمّا قولك: هل يكون شجر من غير حبْ، وزرع من غير بذر؟ فإن الله خلق الشجر والزرع أوّل ما خلقهُما من غير حبْ ولا بذر. وهل يكون ولد من غير أبّ؟. فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أبّ ولا أمّ. فصدقها وسلّمْ لها حالُها.

ولما استشعرت مريم مِن قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانًا قصيًا، أي: قاصيًا عنهم لئلا تراهم ولا يروها.

وقال: قال محمد بن إسحاق :

فلما حملت به وملأت قلّتها، ورجعت استمسك عنها الدم، وأصابها ما يُصيب الحامل على الولد مِن الوصب والتوحم وتغير اللّون، حتى فطر لسانُها فما

دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا. وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحِبُها يُوسُف، و لم يكن معها فى الكنيسة غيرُه، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حِجابًا فلا يراها أحدٌ ولا تراه، وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جِذع النخلة فى المكان الذي تنحت إليه.

وقال ابن كثير:

وفي أحاديث الإسراء: أن ذلك ببيت لحم، فالله أعلم. وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يَشُك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح، أهـ [1].

بهذا نجد أن الأمر مِن أوّله إلى آخره من تدبير الله ونفاذ أمره، وسير الأمور بحكمته، وليس لمريم عليها السلام في ذلك يدٌ، ولا بها ريبة، ولا تُتّهم في نفسها ودينها بأدنى حرف، وكذلك نبي الله عيسى عليه السلام، ما هو إلاّ كلمةُ ربِّ العالمين، قال له كن فكان، وما ذلك إلاّ لحكمةٍ هو يَعلمُها.

يقول الله تعالى:

فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

[مريم: ٢٦]

ما مِن قضاءٍ يقضيّهُ اللهُ في خلقه إلاّ وَيُنـزّلُ معه اللّطف، وتَصحبُه الرحمة، وتُلازِمَهُ الرأفة، وفيه من الرفق ما يُهونّ به على قلب المؤمن.

(١) تفسير ابن كثير [ج٣/ ص ١٣٠، ١٣١].

فكذلك كان الأمر بالنسبة إلى مريم، أمرها عزّ وجلّ أن تصوم عن الكلام، وهذا كان في شريعتهم، وكان في ذلك الخلاص من القوم عندما تأتيهم بعيسى ﷺ تحملّهُ، حتى لا تتحرج من القول والردّ، فينشأ منهما ما لا يُحمد له عاقبة التأذي والآلام.

فقال في ذلك سُبحانه:

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

[مريم: ٢٧، ٢٨].

فأتت بعيسى إلى قومها تَحمِلُه، وقد حَفِظها الله تعالى بالصوم، والامتناع عن الكلام.

فلما رأوها تَحمِلُ غُلامها أصابهم دهشةً وخلل في عقولهم لِما يعرفونها به من الطهارة والعفة وهي كذلك.

فقالوا: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا مُنكرًا. (١)

وقوله: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ قال ابن كثير: أي: يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: أنتِ من بيت طيب طاهر معروف بالصلاحِ والعبادة والزهادة. فكيف صدر هذا منكِ؟

ثم ذكر عن على بن أبي طلحة والسُدّي، قيل لها: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ أي: أخي موسى، وكانت من نَسله كما يُقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمُضري: يا أخا مُضر. ثم ساق في ذلك قولان قبلناهما، ونبذنا ما سواهما، فقال:

(١) كلمات القُرآن [ص ٢٥٥].

وقيل: نُسبَت إلى رجُلٍ صالحٍ كان فيهم، اسمُه هارون، فكانت تُقاس به في الزهادة والعبادة.

الثاني: وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجُلٍ فاجر، كان فيهم يُقال له: هارون [1]، انتهى قوله، وبمثل ذلك قال الماوردي في تفسيره. [2]

فلما كان في الأمر من الشدّة، وفي ذلك الموقف من الآلام والصعوبة، أشارت إلى عيسى عليه السلام، بما يدُّل به لسان حالها أنّ كلِّمُوه.

فتعجبوا لما وجهتهُم إليه، يقول الله تعالى:

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

[مريم: ٢٩: ٣٣]

في نُطق عيسى عليه السلام بهذه الصيغة يُوحي، أنّ الله تعالى استغنى بالكلام عن تبرئة مريم على لسان نبيه لِما يقتضيه الأمر ولما فيه من برآءة ساحتها من القذف والنّيل منها.

فنجد أن الله تعالى، وقد ذهب بالكلام على لسان نبيه استغناءً عن لسان مريم نتيجة هذا الأمر الذي فيه يخوضون، ومنها يطلبون التفسير، فكأن لسان الحال

(١) تفسير ابن كثير [ج٣/ ص ١٣٢، ١٣٣] مع بعض التصرف.
(٢) تفسير الماوردي [ج٢/ ص ٥٨٩].

يقول: إن ما تسألون عنه ما كان من زنى، أو سفاح، أو أي شيء يُخيل إليكم تصُورَه، وما رموتم به أُمي خطأ جسيم في حقّ عفتها وطُهرها، لأن ما كان من حمل وكان به ولادتي إنما كان بأمر الله، وليقضيَّ اللهُ أمرًا كان مفعولاً.

ولذلك كان قوله ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

إلّا أنّ السُلالة اليهودية وكذا النصرانية على درب أسلافهم الملعونين سائرين. فكما كان الجدل قديمًا، صار حديثًا.

وقالوا فيها ما قالوا، ولم يكتفوا بهذا، بل كانت النصوص المُحرّفة من الإنجيل قد نصت على أنّهُ ولد زِنى والعياذ بالله من ذلك.

يقول د/ عبد السلام محمد عبده. ما نصه:

(جـ) عقيدة اليهود في ميلاد عيسى عليه السلام ودوافعه.

تروي الأناجيل، أن مريم قد حملت بعيسى عليه السلام قبل أن تتصل برجلّها (**يُوسُف النجار**)، وأن عيسى عليه السلام قد انفصل عن أُمه وهي ما تزالُ عذراء لم يمسها بشر.

قَلت:

هذا تناقض غريب وعجيبٌ بيّن، فهُم حائرون ضالون كما كتب الله عليهم، أهـ.

ثم يقول:

ولما كان لهذا الميلاد العجيب غرابته فقد وجد اليهود الفرصة سانحة لطعن عيسى عليه السلام، ولَمز مريم رضي الله عنها في شرفها.

ولا زالت عقيدة [(١)] اليهود في عيسى عليه السلام أنّهُ وُلِدَ مِن الفحشاء والدنس، وكم وصفوه في حياته بوصف وضيع يتنافى مع حقيقته. [(٢)]

وهذا يوحنا في إنجيله يُبين كيف كانوا يقولون له متعالين: (**إننا لم نُولد من زِنا**) فيقول راويًا عن عيسى عليه السلام أنهُ قال: (**أنتم تعملون أعمال أبيكم**)، فقالوا: (**إننا لم نُولد مِن زنا، لنا أب واحد وهو الله**). [(٣)]

ومن هُنا يتضح لنا:

أن عقيدة اليهود في عيسى عليه السلام، أنه جاء مِن سِفاح، وأنّ مريم خانت حياءها وعِفتها فيه، وأتت به بطريق بَشري، ولكنه غيرُ شرعي، ولكن ممن جاءت به؟

ومَن أبوه؟

تختلف [(٤)]. اليهود في ذلك، فيدّعي بَعضُهم أنها حملت مِن أحد الغُرباء، أو أحد الجنود الرومان، وبعضُهم يُظهِرُ نَفسهُ بمظهر المُعتدِلَ في حُكمه، فيدّعي أنّ مريم وخطيبها (يُوسُف)، وقد أرّقهُما الحُبّ فاتصلا ببعضهما قبل الأوان – لعنهم الله تعالى على كذبهم وافتراءهم – فكان عيسى، ولذا فقد قَبِلَ الزواج منها وهيّ على هذا الذي كانت عليه.

وكثيرًا ما كانوا يُنادونّهُ: بعيسى بن يوسُف، وكان أغلب اليهود على ذلك.

---

(١) قوله: عقيدة: هذا الصحيح لما يقتضيه السياق، وما جاء في المطبوع قوله: عقدة. وهو خطأ.

(٢) قوله: حقيقته، هذا هو الصحيح، وما جاء في المطبوع (حقيقه) وهو خطأ.

(٣) إنجيل متى. الإصحاح الثامن رقم [٤١]، قاله المؤلف، وهذا الكلام كُفر وكَذب على الله ورُسُله.

(٤) قوله: تختلف: هو الصحيح. لما يقتضيه السياق، وما جاء في المطبوع قوله: يختلف، وكان على المؤلف أن يأتي بإحدى ثلاث، الأُولى: على تاء التأنيث كما وقد أوردناه، على اعتبار أن المُراد من الكلام باليهودية، الملة، أو الديانة. الثانية: كان عليه أن يأتي بصيغة الجمع، فيكون قوله: (فاختلفوا). الثالثة: أن يأتي بفاء التعقيب، فيكون قوله: (فتختلف)، أهـ.

ولم يكن هذا رأي اليهود وحدهم، بل إنّ الكثير من الناس قد صدّق هذه الأُكذُوبة، وعَمِلَ جاهِدًا على نشرها، وإذاعتها، بل إنّ من المسيحيين أنفُسَهُم من يتشكك في هذا الميلاد العُذري، ويذكُرَهُ في معرض التكذيب والنفي، بل غالى بعضهُم فأنكر وجود عيسى عليه السلام.

ولعلّ الذي دفع اليهود إلى هذا الذي ذهبوا إليه، أنّ الناس عامةً، واليهود خاصةً، ينظرون جانب الشرِ دون الخير، داءٌ قديم، ابتُليَ به الإنسان [1]، أهـ [2].

مما قد سبق نجد أنّ أهل الكتاب لهم في عيسى عليه السلام مُعتقدات خائطةً، أدت بهم إلى التهلكة، وهوت بهم في دركات جهنم، جزاء قولهم الكُفر في نبيه عيسى عليه السلام.

وكذا رميهم أُمّهُ بالباطل والافتراءات، ونسبهم الفاحِشة لها والعياذُ بالله. أمّا عيسى عليه السلام، فقد اعتقدوا فيه معتقدات عِدةٍ:

الأوّلى: أنّـهُ ولد زنا.

هذا القول من كبائر الإثم، إذ كيف يصطفي الله عزّ وجلّ ولد زنى، أم أنّ الله تعالى غَفِلَ عن حقيقة أمره، والعياذ بالله، أم ماذا؟

الثـاني: قولهم أنّـهُ ولد الله.

تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًا كبيرًا.

لقد وقعت أهلُ الكتاب في تيّه الضلال، وتخبطوا فى القول، وأوقعوا أنفُسَهُم في خطأ جسيم إذ قالوا: أنّ عيسى عليه السلام ولد زنى.

---

(١) قوله: الإنسان: يُريدُ بذلك أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، وإلّا فمن غيرهم يتصف بذلك في هذا المقام.

(٢) قضية الدين مع ميسرة الفكر الإنساني اليهود واليهودية - عقيدة وتاريخًا [ص ١٢٣، ١٢٤].

ثُمَّ هُم مرةً أُخرى يقولوا: أنّهُ ولد الله، أو: ابنُ الله.

فكيف يكون ذلك!؟

إن كان ابنُ زنى، فكيف يكون ابن الله!؟

فهل أتى الله والعياذُ بالله تعالى وبوجهه الكريم من ذلك؛ فهل أتى به من نِكاح، ثُمّ هذا النكاح فيه شُبهة زنى؟

ولقد علِمنا أنّ الله تعالى لا شبيه له، ولا نظير له، ولا نِد له، ولم يلد، ولم يُولد، ولم يكُن له كُفُـُءً أحد.

ثم هذا يلزم المُجاسمة والنـــزول إلى مرتبة البشرية، حتى يكون الولد، وقد أخبر تعالى أن هذا في حق خلقٍ من خلّقه مُحال، ألا وهُم الملائكة، فكيف ننسبُ إلى ذاته النقائص؛ واللهُ تعالى مُنـــزهٌ عن المُجاسمة، إذ لا تحويه الأقطار، ولا تُدرِكُهُ الأبصار، ولم يكُن له ند ولا نظير، وهو يَخلُق ولا يُخلق، وهو يُطعِمُ ولا يُطعمْ، وهو يُحي ويُميت، والكُل تحت قهره، ورهن مشيئته وقدره، وهو خالِقُ كُلِّ شيءً وهو على كُل شيءٍ قدير، سُبحانه وتعالى علوًا كبيرًا.

فكيف بكم يا أهل يهود إذا علمتمْ ذلك؟

وكيف بكم يا نصارى إذا ما علمتم بذلك؟

لقد أهويتم بأنفسكم طواعيةً في جهنم وبئس المصير؛ إذ رضيتم بالحياة الدُنيا، وآثرتموها على الحياة الباقية، واشتريتم الفاني بالباقي البقاء السرمدي.

ألا لعنة الله على الكافرين.

ونحمد الله تعالى على ما أنعم به علينا من نِعمة الإسلام، ومن نور القُرآن،

والذي فصّلَ لنا كُل أمر بالحديث الحق، وأتى به على فصل الخطاب، على لسان خير المصطفين الأخيار، سيدنا مُحمد ﷺ وعلى إخوانه مِن الرُسلِ والأنبياء.

وكذا جميع الآلِ والصحب، ومن على الدرب قد صار، وسلم تسليمًا كثيرًا.

الثالث: قولهم أنــهُ إله.

تعالى اللهُ عن ذلك علوًا كبيرًا.

فاليهود والنصارى أهلُ جُرأةً على الله تعالى، خاصةً اليهود أشدّ، ولذلك. لم يعبء بِهمُ الله تعالى حين حكم عليهم بالغضب والضلال فى الأرض إلى يوم يلقونه، ولم يعبء بِهم إذ حكم عليهم بالكفر، الشيء الذي يُوجِب الخلود في جهنم وساءت مُستقرًا ومُقامًا.

يقول الله تعالى:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

[آل عمران: ٤٩ ، ٥٠]

هذا القول الحق والذي نطق به الحق جلّ وعلا، مُرشدًا به سيدنا عيسى

عليه السلام، ومُعْلِّمًا إياه، كيف يقول لبني إسرائيل، وكيف يفعل معهم وبهم؟ هذا هو القول الصدق، لا ما تدّعيه الفئة الباغية الكافرة من أهل الكتاب.

يقول الإمام الباقلاني:

ويجب أن نعلم: أنّ صِدق مُدعي النبوة لم يَثبُت بِمُجردِ دَعواه، وإنما يَثبُت بالمعجزات، وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة، المُطابقة لدعوى الأنبياء، وتحديهم للأُمم بالإتيان بمثل ذلك.

ثُم قال:

وكذلك عيسى عليه السلام: جاء في زمان قوم طبّ ومداواة، فأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فأتى بما هو خارج عن قبيل الطب. خارقًا للعادة فيه، لا يَقدِرُ عليه مخلوق. (١)

معنى هذا أنّ الذي أجرى مِثل هذا على يديٌ سيدنا عيسى عليه السلام، هو الله تعالى، وما ذلك إلّا ليكون آيةً مُثبتة على صدق دعوته، ولما كان في ذلك من خرق العادة أعجز البشرية جميعًا عن الإتيان بمثل ذلك، والسبب في ذلك، هو أن الذي أجرى مِثل ذلك هو الخالق، وهو مالك المُلك، وهو الهادي لسواء السبيل.

ولّما كان عيسى بَشرًا ممن خلق الله، يجري عليه ما يجري على الخليقة، وأنّهُ مُحتاجٌ إلى رحمة ربّهُ وإنصافُه إياه، وتبرئة ساحتَهُ مما نسبته إليه كُلٍ من اليهود والنصارى مِن أنّهُ إله، ولِعلّة إحياء الموتى وغير ذلك، فقد حكى القُرآن الكريم ذلك، وأنّهُ يوم القيامة سيكون عليهم شهيدًا.

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به [ص ٦١، ٦٢].



يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

[المائدة: ١١٠]

أي: أن كُل هذا كان بأمر الله، وبإذن الله، وكذلك إحياء الموتى، فإذا هُم أحياءٌ بعد الموت، وكان ذلك بإذن الله، وإخراجهم من القبور فإذا هُم وقوفٌ بين يديه بإذن الله، فعلى هذا ليس لعيسى عليه السلام سُلطان في هذا، بل الأمر كُلّهُ بإذن الله تعالى.

فلا حُجة لمن كفر من اليهود والنصارى إذًا، من أنّ عيسى هو الذي يُحيي ويُميت، وأنّهُ يُبريء الأكمة والأبرص بُسلطانه، أهـ.

الرابع: قولهم أنـهُ ثالثُ ثلاثة.

وما مِن إلهٌ إلاّ الله، تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

ولقد كفّرَ الله تعالى الذين نسبوا إليه الأُلهية.

يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ

مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ

[المائدة: ٧٢، ٧٣]

أي: أن الله تعالى ثالثُ ثلاثة آلهة: عيسى عليه السلام، ومريم.

يقول ابن الجوزي:

فقال: اليعقوبية. أصحاب يعقوب، والملكية، أهلُ المَلك، والنسطورية. أصحاب نسطورس: أن الله جوهر، وأحد أقانيم ثلاثة، فهو واحد في الجوهرية، ثلاثة في الأقنومية [1]، فأحد الأقانيم عندهم: الأب، والآخر: الإبن، والآخر: رُوح القُدُس.

فبعضهم يقول: الأقانيم خواص.

وبعضهم يقول: صفات.

وبعضهم يقول: أشخاص.

وهؤلاء قد نسوا أنّهُ لو كان الإله جوهرًا لجاز عليه ما يَجوزُ على الجواهر من التحيُزِ بمكان، والتحرُك والسُكون والأوان، ثم سُوِّلَ لبعضهم أنّ المسيح هو: الله.

ثم قال:

قال أبو محمد النوبختي: زعمت المَلكية واليعقوبية: أنّ الذي ولدته مريم هو:

---

(١) قوله: الأقنومية: جمع أقنوم، وهو لفظ كُفر اعتقادي خاطئ، قالت به النصارى، والأقانيم عندهم: ثلاث صفات من صفات الله، وهي: العلم. والوجود. والحياة، وعبّروا عن الوجود بالأب، وعن الحياة برُوح القُدُس، وعن العلم بالكلمة، وقالوا: أقنوم الكلمة اتحد بعيسى، بمعنى أن الطبيعة الإلهية اتحدت بالطبيعة الإنسانية، بحيث تكون الأوّلى هي الجوهر الذي به تقوم الثانية، ومن ثمَّ كان معنى الأقنوم عند كُتّاب المسيحية هو الجوهر. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة [ص ٨٥] بتصرف.

الإله، وسوّل الشيطان لبعضهم أنّ المسيح: هو ابنُ الله؛ وقال بعضُهم: المسيح جوهران. أحدُهما: قديم، والآخر: مُحدث؛ ومع قولهم هذا في المسيح يُقرون بحاجته إلى الطعام ولا يختلفون في هذا. (١)

ألا لعنهم الله دُنيا ودين، أهـ.

ثُم بعد ذلك نجد أنّ اليهود والنصارى قد أغلظوا على مريم ببذئ القولِ وفاحشِه.

لعنهم الله تعالى بما قالوا.

هُناك بعض المُحدثين من عُلماء الأمة، دائمًا وأبدًا يُريد أن ينتصرُ للإسلام وشرعه، وكذلك الانتصار لقُرءانه، فيقول: إن الإسلام الدين الوحيد الذي برّأ رُسل الله وأنبياءه، وكذلك برّأ أُمهات الأنبياء من أي تدليس أو بُهتان. وكذلك أزواج الأنبياء والمرسلين.

والحق أن هذا ليس بشيء، ولا في حاجةٍ له، لأننا ننتصر لمن ولماذا، فإن الرسُل هُم الذين اصطفاهم الله تعالى، وأن الذي أرسل الأنبياء والرُسُل هو الله، والذي شرع هو الله، وأنّ ما جاءت به الرُسُل هو الحق، وأنّ الذي آتانا الله به هو الحق، وأن الحق جليٌّ وواضح، ولا يحتاج النور إلى ما يُظهرُه.

زعمت اليهود والنصارى أنّ مريم عليها السلام كانت زانيةً، والعياذ بالله من ذلك.

والله تعالى يقول في القُرآن:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

[التحريم: ١٢]

---

(١) تلبيس إبليس [ص ٧٣].

فهذا المقام مقام تبرأت لمريم من أي شُبهة قد تُثار حول أمرها، ولقد شَهِدَ الله تعالى بذلك وكفى به شهيدًا.

وأن الذين خاضُوا فيما خاضوا فيه ملعونين، ولهم عذابٌ أليم، إذ أي شُبهة في هذا، فهي بطبيعة الحال، تُنسب إلى جناب الله تعالى، لأنّهُ هو الذي أراد ذلك وقضاهُ ونفذ أمره، وأنّهُ هو الذي أمر جبريل الملك بالنفخ في درعها، فحملت بإذن الله، واصطفى عبده ورسوله سيدنا عيسى عليه السلام، فما العجب في ذلك، فكُلٌّ بأمر الله تعالى ومشيئته.

ولقد جاءت أوصاف وُصفت بها هذه السيدة الطاهرة العفيفة، وهو ما حكاه القُرآن الكريم.

أولها: اصطفاءها الله تعالى من دون النساء وقتئذ.

يقول الله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

[آل عمران: ٤٢]

والإصطفاء هُنا ليس كاصطفاء الأنبياء، بل هو اصطفاء اختيار لما سيكون من جرّاء هذا الاصطفاء، وأيضًا أنها لم تَشرُفُ بهذا الفضل إلاّ كرامةً من الله تعالى لها بإكرامه نبيهُ وعبده سيدنا عيسى عليه السلام.

ثانيها: أنْ طهرها.

لقوله تعالى في الآية السالفة الذكر: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

وهو أن الله تعالى طهرها من مس الرجال، وهذا النص قد جاء ذِكرُه قبل تبشير الله تعالى إياها على لسان ملائكته بأنّهُ سَيهبُ لها غُلامًا وسيكون نبيًا ومن المقربين، وذا صفاتٍ ذكرها القُرآن.

وبهذا نجد أنّ الله تعالى ذكر طُهرها قبل أنّ يخلُق نبيهُ بحملها، وذلك آيةً منهُ عزّ وجلّ، لا كما زعمت اليهود والنصارى مِن أنها زانية، لعنهم الله تعالى بما قالوا.

ثالثهما: أنها كانت من القانتين.

يقول الله تعالى:

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

[التحريم: ١٢]

أي: من المطيعين له.

رابعها: أنها كانت صدّيقة.

يقول الله تعالى:

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ

[المائدة: ٧٥]

يقول الطبري:

وأُمّ المسيح صدّيقة، والصدّيقة، الفِعّلية من الصدق [1]، وهذا أعلى

(١) تفسير الطبري [ج٤/ ص ٤٢٤].

مقامالها[1]. وقوله تعالى في آية سورة التحريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ قيل: أنّ الكلمات: هي شرعه وقدره، وقوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فقد قُرأ على الجمع، والمُراد منه: الإنجيل، والتوراة، والزبُور؛ وقُرِأ على الإفراد: (كِتَابه) وهو: الإنجيل، وكلا القراءتان صحيح وعلى المعنى المُراد، والله تعالى أعلم.

وقد نطق الحديث الشريف بفضلها من جملة خيرة النساء على الإطلاق.

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: [كَمَلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء إلاّ مريم بنت عمران، وآسية امرآة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام].[2]

وفي لفظ مُسلم [ولم يكمُل من النساء غير مريم بنت عمران، ...].

وعن ابن عباسٍ ﷺ قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط. قال: [[3] أتدرون ما هذا؟] فقالوا: الله ورسُوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: [أفضل نساءِ أهل الجنة خديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت مُحمد ﷺ، وآسية بنت مُزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران] رضي الله عنهُن أجمعين.[4]

والكمال هُنا يُراد به: تمام الخُلُق والخلّق والخِلّقة.

فهذا فضل مريم ابنت عمران، وهذه عفتها وطُهرها، وهذه شهادة القُرآن،

---

(١) تفسير ابن كثير [ج٢/ ص ٩٥].

(٢) رواه البخاري في صحيحه [ج٢/ ص ٣٤٢]، ومسلم في صحيحه [ج٢/ ص ٣٧٠].

(٣) قوله: أتدرون. بإثبات همزة الاستفهام، فهي لم تكن بمطبوع المُسند، وقد أثبتناها من تفسير ابن كثير [ج٤/ ص ٢٩٣].

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده [ج١/ ص ٢٩٣].

وهذا حديث رسول الله ﷺ قد نطق بفضلها، وكمال خُلُقِها مِثلُها مثل سائر النساء المذكورات، رضي الله تعالى عنها وعنهُن، وسائر أزواج سيدنا مُحمد ﷺ، ونساء آل بيته، ونساءِ صحابته الطاهراتُ العفيفات، أهـ.

تم الجُزء الأوّل ويَليهُ

إن شاء الله الجزء الثاني

ثبت المراجع سيكون بمشيئة الله
في آخر الجزء الثاني



فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة